

یوشع یراور

عالم الصليبين

ترجمہ و تقدیم و تعقیب :-
دکتور قاسم عبد قاسم
دکتور محمد خلیفہ حسن



دارالمعارف

عالم الصليبين

يوشع براور

عالم الصليبيين

ترجمة وتقديم وتعقيب

دكتور محمد خليفة حسن

مدرس تاريخ الأديان
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دكتور قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٩٨١



دار المعارف

هذه ترجمة كتاب :
The World of the Crusaders
By: Joshua Prawer

Quadrangle Books
New York 1972

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٢٠٠٠ ع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

حين تطرق عبارة « الحروب الصليبية » لاسماع الناس تنطبع في مخيلاتهم على الفور صورة ترسبت في وجدانهم عبر سنوات طوال ، بفضل ما نسيج حول هذا الحدث التاريخي الفذ من روايات وقصص - حقيقية وخيالية - ظلت الأجيال تتناقلها عبر القرون . ومن المنطقي أن تكون الصورة المترسبة في الوجدان الغربي مختلفة الى حد بعيد ، بل وبشكل جذري ، عن الصورة الكامنة في أعماق الشرق الاسلامي .

ففي الشرق تعني « الحروب الصليبية » عدوانا شنفه الغرب المسيحي ، تحت راية الصليب ، بهدف اقامة نوع من المستعمرات الاستيطانية تكون بؤرة للتوسع الذي يمتد أخطبوطه للقضاء على العالم الاسلامي . وتختلط الفكرة المجردة بصورة المجاهدين الذين تصدوا لهذا العدوان ، حتى تمكن صلاح الدين الأيوبي أن يبدأ الهجوم الاسلامي للتحريض ، وهو الهجوم الذي استدر حتى تم القضاء على فلول الصليبيين المتجمعين في عكا في عهد السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون .

ومن ناحية أخرى ، فإن الصورة التي رسمتها المصادر التاريخية العربية لفترة الحروب الصليبية تكشف عن نظرة المسلمين الى أولئك المعتدين ، وهي نظرة عدائية بطبيعة الحال ، فالصليبي ، كما تصوره المؤلفات التاريخية ، مقاتل همجي ، جامد العاطفة ، وهو ايضا كافر ملعون . وليس هناك ما يدعو للدهشة ازاء هذه النظرة العدائية التي تعاملت بها المصادر التاريخية العربية مع الشخصية الصليبية . فالواقع

أن تكفير المقاتل الصليبي ، فى كتابات المؤرخين المسلمين ، نابع من موقف سياسى أكثر منه موقف دينى ، ذلك أن جزءاً من ايمان المسلم أن يؤمن بالمسيح عليه السلام . ولكن حقيقة أن العدوان الصليبي قد تم على « دار الاسلام » وأن المقاومة الاسلامية ضده كانت تحت راية الجهاد ، تجعل من غير المنطقى والمقبول أن يرفع المسلمون شعار الجهاد ضد قوم لايعتبرونهم كفارا .

ومن الطبيعى أن تترسخ هذه الصورة فى وجدان الناس فى مصر وسوريا وفلسطين ، حيث دارت رحى المعارك الصليبيين ، خاصة وفى وجدان المسلمين عامة .

أما فى الغرب الأوربي فإن الصورة مختلفة الى حد بعيد ، وهو أمر يبدو متسقاً ومتوافقاً مع المنطق تماماً . فإن الكثيرين من عامة المثقفين المعاصرين فى الغرب اليوم لايكادون يعرفون عن الحروب الصليبية شيئاً سوى تلك الصورة الجذابة التى تبرز من ثنايا حوادث تلك الفترة لفارس عملاق ، ذى سترة مصفحة ، يمتطى صهوة جواد فاره ، وقد حمل راية الصليب واخذ يطارد أبناء القبائل العربية الذين يفرون أمامه فى جبن وتخاذل ، تميزهم بشرتهم الداكنة ، وعزائمهم الخائرة ، ليخلص قبر المسيح من أيدي المسلمين « الكفار » .

وعلى الرغم من أنه ليس هناك جانب واحد صحيح فى هذه الصورة ، فإنها قد رسخت فى الوجدان المسيحى الغربى بفعل التراث المتراكم فى ثنايا الكتابات التاريخية المعاصرة لتلك الفترة . لقد كانت قصة الحروب الصليبية الحافلة بالاثارة مجالا جديداً تمام الجدة على مؤرخى أوربا آنذاك ، وقد حررتهم من قيود النماذج والأطر القديمة التى كانوا يصبون رواياتهم التاريخية فى قوالبها الجاهزة . ولكن هذا لم يمنعهم من رؤية « الآخر » على أنه عدو كافر يجب قتله وتخليص الأماكن المقدسة من قبضته .

لقد كانت الحروب الصليبية حرباً كآية حرب أخرى ، ومن خلالها برزت رؤية كل فريق « للآخر » وتبلورت بفضل التلاحم العسكري والاحتكاك الحضاري بشتى جوانبه . هذه الرؤية هي التي فرضت نفسها على سطور الكتابات التاريخية آنذاك .

والحقيقة عندى أن الحروب الصليبية ليست سوى توضيح نرامي له مغزاه يكشف عن الجوانب الرئيسية في حضارة العصور الوسطى . ذلك لأن هذه الحروب ليست سوى مجرد عامل سببي من عوامل التغير في العصور الوسطى ، كذا أنها كانت تعبيراً عن ثقافة وأفكار ومواقف الناس في تلك العصور . فالحروب الصليبية تكشف النقاب عن أهل العصور الوسطى ، وتسلط الضوء على خصائصهم بشكل غير عادي ، الأمر الذي يجعلها ظاهرة تاريخية جديرة بالدراسة من جميع الوجوه .

ويميل بعض المؤرخين - وهم غالبية - الى المبالغة في تصوير الحروب الصليبية على أنها العامل الأساسي في التغيرات التاريخية التي طرأت على الشرق والغرب منذ القرن الحادي عشر . وربما تقترب من الحقيقة بقدر أكبر اذا قلنا ان الحروب الصليبية تعبير عن هذه التغيرات التاريخية أكثر منها سبب في حدوثها . فالحروب الصليبية تطور هام في تاريخ العصور الوسطى ، بيد أن ذلك يرجع في أساسه الى أن هذه الحروب كانت تعبيراً عن انماط أساسية من التفكير والسلوك الأوربي - والشرقي أيضاً - آنذاك . حقيقة أنه كان للحروب الصليبية تأثيرها على مجرى التطور الأوربي ، ولكن هذا التأثير لم يكن كافياً لأن يغير من اتجاه التطور في نظم الحكم والاقتصاد والثقافة بشكل جذري .

ومن ناحية أخرى ، توحى عبارة « الحروب الصليبية » بصورة فرسان الهيبة الحماسة الدينية ففارقوا أهل والوطن للمشاركة في حرب مقدسة وعادلة ضد أعداء المسيح . وبالفعل ، حملت الجيوش الصليبية

وليّة المسيح ، ووضع المقاتلون شارة الصليب على ستراتهم ، كما رفعوا
شمعاً تخيرين القدس من أيدي المسلمين .

والواقع أن صراعات كثيرة قد دارت حول هذه المدينة المقدسة منذ
أقدم العصور ، ولا يزال الصراع مشتعلًا من حولها حتى اليوم . فقد ربط
الاسبوتاليون المحدثون بين الوعد المقدس ومفهوم « الأرض الموعودة » في
العقيدة اليهودية ، وبين عدوانهم الاستعماري الاستيطاني في الأرض
العربية على نحو ما فعل الصليبيون في العصور الوسطى . فهل يمكن أن
تكون المحاولة الاستعمارية الاستيطانية التي قام بها الصليبيون على
مدى ما يقرب من قرنين من الزمان نتيجة لهذا الدافع الديني وحده ؟
وهل يمكن أن نسلم بالدافع الديني لدى الصهاينة كمبرر وحيد لاغتصاب
الأرض العربية في فلسطين وسيناء والجولان ولبنان ؟

إن هذين السؤالين ، وما يتفرع عنهما بالضرورة من أسئلة أخرى ،
يقودنا إلى محاولة تقصي الأصول الأولى للفكرة الصليبية ، حتى يمكننا
أن نجد الإجابة المناسبة لكل سؤال . وفي الحقيقة أنه لا يمكن تتبع أصول
هذه الفكرة وجذورها على نحو فعال بسبب الضبابية الناجمة عن اختلاط
المثال بالواقع ، أو تضاربهما ، في كثير من الأحيان ، فضلاً عن عدم وجود
الأدلة التاريخية الدافعة التي تحدد البداية الحقيقية لهذه الفكرة . وفكرة
الخزوب الصليبية ، كفكرة ، يصعب تعقب أصولها وجذورها ، شأنها في
ذلك شأن أية فكرة أخرى . ومع ذلك فإن لدينا من الشواهد والقرائن
والأدلة الاستنباطية ما يساعدنا على رصد أصولها بشكل مقنع ، وإن يكن
غير حاسم .

لقد أشار المؤرخ الاقتصادي البلجيكي هنري بيرين إلى أنه لا يمكن
فهم أحوال الغرب الأوربي في العصور الوسطى دون تفهم حقيقة الدور
الاستعماري وتأثيره على أحوال الغرب آنذاك ، وعلى الرغم من أن بيرين

اختصار لكتابه الذى تناول فيه هذه القضية عنوانا معبرا هو « محمد وشارلمان » ، فان محاولته لتأكيد التأثير السلبي للدور الاسلامى قد كشفت عن التعصب وسوء الفهم من جهة ، كما أثارت معارضة شديدة فى اوساط المؤرخين المتخصصين من جهة ثانية ، الأمر الذى جعلنا لانعول عليه كثيرا فى هذا المجال .

ومن ناحية أخرى ، يرى بعض المؤرخين الغربيين أن التطور الذى شهدته أوروبا فى العصور الوسطى ، انما كان نتاجا للتفاعل بين عناصر أوربية خالصة ، وأن أوروبا كفت نفسها بنفسها ، ومن ثم فان فكرة الحرب المقدسة والدوافع الأولى للحروب الصليبية أمر يمكن تفسيره بمعنى عن المؤثرات الاسلامية .

وفيما يتعلق بالأصول الأولى لفكرة الحرب المقدسة أو الحروب الصليبية ، ينبغى علينا أن نبحث عن جذورها الأولى فى طيات الفكر والثقافة فى أوروبا المسيحية . وهنا ينبغى أن نشير الى حقيقة هامة مؤداها أن الديانة المسيحية ديانة تميل الى السلم بشكل واضح ، فالتعاليم الواردة فى الأناجيل وفى أعمال الرسل تظهر ميلا قويا نحو السلم . والحرب تعنى الذبح والتدمير والخراب . وبالنسبة لآباء الكنيسة الأوائل كانت الحرب تعنى القتل الجماعى . ومن المؤكد أن الكنيسة الشرقية فى بيزنطة كانت تعتبر الحرب شرا يجب تحاشيه ، وعدم اللجوء اليه الا بعد فشل الوسائل السلمية والدبلوماسية ، حتى لو كان الثمن هو دفع جزية باهظة . ويسبب تعاليم القديس باسيل St. Basil ، أعظم مشرعى الكنيسة البيزنطية ، لم يكن الجندي البيزنطى يعتبر شهيدا اذا قتل فى الحرب – ولو كانت دفاعا عن بلاده – لأن الشهيد هو فقط من يموت متسلحا بالايمان . ويكشف تاريخ بيزنطة العسكرية عن أن الحروب البيزنطية كانت فى حقيقتها حروبا دفاعية ، وهو ما يبدو فى أعين المؤرخين الغربيين ، الذين تستهويهم الروح العسكرية ، ضربا من ضروب الجبن والتخاذل وهو فى

الحقيقة تعبير عن هذه الايديولوجية التي ترى في الحرب شرا لا يليق بالمسيحي .

أما في الغرب ، فقد كان الموقف جد مختلف ، ذلك أن الشعوب الجرمانية ، لم تكن لترضى بهذا المنطق الذي فرض نفسه على التصرفات البيزنطية ، فضلا عن أن القديس أوغسطين نفسه قد صاغ نظرية عن الحرب العادلة يمكن قبولها ، ويمكن أن يجذبها الرب . بيد أنه أعلن أن الحاكم هو الذي يقرر هذه العدالة . وفي مجتمع له ظروف المجتمعات الاقطاعية في أوربا العصور الوسطى كان لابد وأن تنهار نظرية أوغسطين عن الحرب العادلة ، ذلك أنه لم يكن يوجد في ذلك المجتمع من لا يحكم غيره سوى أئنان الأرض ، كما أنه لم يكن يوجد من لا يحكمه غيره سوى الملك . وكان التصرف الواقعي هو أن كل من كان ينال ضربة كان يردها بشكل مباشر دون أن يفكر في موضوع الحرب المقدسة .

ومن ناحية أخرى كان التراث الجرمانى في غرب أوربا يمجّد صفات العسكرية والبطولة في المجتمع ، وكان لابد لهذا المجتمع العسكري أن يجد تبريرا لعباداته العسكرية التي ورثها عن ماضيه . وقد تطور قانون الفروسية في المجتمعات الاقطاعية الأوربية من خلال الحاجة الى وضع القواعد والأصول التي تحكم وتوجه عمليات الحرب والقتال ، وبفضل الملاحم الشعبية المتداولة في ذلك الحين Chansons de geste التي تتحدث عن بطولات شارلمان ورولان ورفاقهما تم تكريس قيم البطولة العسكرية . لقد كانت الروح العسكرية وقيم البطولة والاقدام محل تقدير في الغرب الأوربي منذ زمن طويل ، إذا أنها كانت – بغض النظر عن رأى رجال الكنيسة – هي الفاصل الذي يميز النبلاء عن الأئنان .

ومن ناحية أخرى ، فإن المسلمين كانوا بالنسبة لمسيحي الغرب بمثابة شبح رهيب يفرض نفسه على سلوكياتهم ، فقد كان المسلمون

يحكمون الشطر الغربى من عالم البحر المتوسط ، من قطلونيا حتى تونس ، وكان الغرب يخشى أن يخرج المسلمون من مكائهم الحصينة لكى يهاجموا الغرب مرة اخرى ، كما حدث من قبل عندما اوقفهم شارل مارقل عند تور - بواتيه فى فرنسا ، الا أن الخطر الاسلامى على أوربا الغربية قد زال تماما بوفاة الخليفة عبد الرحمن الثالث ، فقد بدأت القوة الاسلامية فى الأندلس رحلة الغروب والأفول ، على حين كانت حرب الاسترداد الاسبانية reconquista تؤتى ثمارها ، واخذت البابوية تبارك أية محاولة لتوسيع نطاق الممتلكات المسيحية على حساب المسلمين فى الأندلس .

والواقع أن من يحاول أن يتصور الحياة الأوربية فى العصور الوسطى دون أن يضع نصب عينيه ملامح الصدام والوفاق بين المسلمين والمسيحيين ، انما يشبه شخصا يغمض عينيه عن ضوء الشمس الذى يفرض نفسه عليه . ذلك أن من يتأمل سطور المراسيم البابوية فى تلك الفترة لابد وأن يتأكد من احساس البابوية بجيرانها المسلمين الأقوياء ، وهو احساس يشى بمزيج من القلق والخوف والكراهية .

والحقيقة أننا يجب أن نبحث عن أصول الفكرة الصليبية فى طيات الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى شبه جزيرة ايبيريا التى كان المسلمون قد احتلوا الشطر الأكبر منها منذ سنة ٧١١ ميلادية بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد . ويذهب المؤرخ الاسباني المعاصر اميركو كاسترو فى كتابه « حقيقة اسبانيا التاريخية » الى أن فكرة الحرب المقدسة عند المسيحيين كانت مستوحاة من مفهوم الجهاد الاسلامى ، اذ يقول : « ... الحقيقة عندى هى أن الحياة الأوربية عامة والحياة الاسبانية خاصة فيما بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر للميلاد ، كانت نوعا من التصادم والتعايش بين المسلمين والمسيحيين . وقد يكون هذا نوعا من التمايز فى الرأى ، ولكنى اعتقد أنه الحقيقة وادافع عنه بكل

قوة • وهذا أمر ضروري لأننى أريد أن أوضح من هم الاسبان وكيف كانوا ••• ان الحرب ضد المسلمين فى فلسطين واسبانيا استلهمت من فكرة الجهاد أو الحرب المقدسة لدى المسلمين • ولا يهمنى فى هذا المقام شكل هذا الاستيحاء ، بل يهمنى أن تؤكد على وجوده بصفة قاطعة ••• وفى رأى أنه لا يمكن أن نتصور أن البابا ليو الرابع فى سنة ٨٤٨ م ، أو البابا اريان الثانى فى سنة ١٠٩٥ ، كانا يجهلان أن القادة المسلمين كثيرا ما كانوا يذكرون جنودهم وهم يحثونهم على قتال الكفار بأن الله قد وعد الشهداء الذين يقتلون فى سبيل الاسلام بجنان تتوفر فيها شتى صنوف المتع ، وكان هذا هو ما يدفع بالمسلمين ، المؤمنين بهذا الوعد ايمانا مطلقا ، الى النضال بكل قوة وبسالة ، ولابد أن تأثير هذه الآيات هو الذى مكن المسلمين من السيطرة على رقعة هائلة الاتساع من ارض العالم ، ولسنا نظن أن قادة المسيحية فى أوربا العصور الوسطى كانوا بحاجة الى أن يكونوا مستشرقين أو حتى الى معرفة اللغة العربية لكي يدركوا قيمة مبدأ الجهاد عند المسلمين ، ولا نتصور ايضا أن الجهاد فى الأندلس كان يستهدف الحصول على المغانم والأسلاب ••• ،

ويمضى المؤرخ الاسبانى ليوضح كيف تأثرت اسبانيا المسيحية بالمسلمين فى مجال الحرب المقدسة ، وهو التأثير الذى بدأ واضحا فى الرهبنات العسكرية الاسبانية التى تولت أمر حرب الاسترداد الاسبانية Reconquista التى بدأت من الجبال الشمال فى القرن العاشر •

وفى تصورنا أن نجاح فكرة الحرب المقدسة فى اسبانيا قد استلقت نظر البابوية على نحو ما • فى القرن الحادى احزر الاسبان المسيحيون اول انتصاراتهم الكبيرة بفضل النزاع الذى اخذ ينهش الجسد الاسلامى فى الاندلس عقب وفاة عبد الرحمن الثالث • وما أن اهل عام ١١٠٠ حتى كان المسيحيون يسيطرون على مساحة تتراوح ما بين خمس وربع مساحة

البلاد • وقد استمر مد حرب الاسترداد يزحف فى ببطء - ودونما توقف - صوب الجنوب • وعلى الرغم من أن القضاء على الوجود الاسلامى بشكل نهائى لم يحدث سوى فى سنة ١٤٩٢ ، فإن الملوك المسيحيين كانوا قد فرضوا سلطانهم على معظم اراضى شبه الجزيرة الأيبيرية منذ منتصف القرن الثالث عشر • وفى غمرة هذه الحرب الاستردادية ، كان المسيحيون قد استوعبوا تماما فكرة « الجهاد » الاسلامية وطوروها فى ثوب مسيحي خالص •

ومنذ البداية كانت البابوية ترقب الموقف فى شبه الجزيرة عن كثب • وفى سنة ١٠٦٤ قدم البابا اسكندر الثانى الغفران كمكافأة لكل من يقتل وهو يحارب المسلمين فى اسبانيا • كذلك حظيت جهود المسيحيين الاستردادية فى اسبانيا بالتعاطف والتأييد من جانب الأديرة الكلونية التى كانت تقوم بدور رائد فى الحياة الديرية آنذاك • وفى عصر البابا جريجورى السابع (١٠٧٧ - ١٠٨٥) كان كثيرون من الفرسان فى غرب أوربا ، وفى فرنسا على نحو خاص يتوجهون الى اسبانيا للمشاركة فى الحرب ضد المسلمين • وحتى نهاية القرن الحادى عشر ، كانت « الحرب المقدسة » فى اسبانيا تجتذب الفرسان المسيحيين المغامرين من الشمال ، وهو ما يعنى أن نهاية هذا القرن قد جاءت لتشهد على أن فكرة الحرب المقدسة قد صارت حقيقة واقعة • وأخذت البابوية تنظر صوب الشرق البعيد حيث الاماكن المقدسة التى ترتبط بقصة المسيح لكى تكون ميدانا لحرب مقدسة أوسع مجالا ، وأبعد هدفا •

بيد أن الفكرة فى حد ذاتها لم تكن لتسبب حدوث الظاهرة التاريخية التى نحن بصددتها ؛ أعنى الحروب الصليبية ، ما لم تكن قد جاءت متوافقة مع ظروف العصر • وفى تصوراتنا أن فكرة الحرب المقدسة قد جاءت فى ظروف ملائمة تماما فى الغرب الأوروبى والشرق الاسلامى والبيزنطى على حد سواء •

فقد شهد القرن العاشر حركة اصلاح كنسية بزعامة الأديرة الكلونية . وكانت هذه الحركة الاحيائية الكبرى تستهدف اصلاح الأديرة ، والكنيسة ، واصلاح العالم . واصلاح العالم يعنى اخماد الحروب الاقطاعية التى كانت سمة من سمات المجتمع الذى اختفت فيه السلطة المركزية ، وتعرض للكثير من الغارات الجرمانية . وقد كان الأسساقفة ومقدمى الأديرة قد اندمجوا فى البناء الاقطاعى ككل ، وظهر من بينهم من يقود فرسانه فى حرب اقطاعية . ولم يجد المصلحون وسيلة لمنع الحروب الاقطاعية تماما ، ولكنهم توصلوا الى صيغة عملية لتحديد نطاقها . وجاءت « هدنة الله » لتمنع القتال فى نهاية الاسبوع ، وفى الأيام المقدسة ، وطوال فترة الصيام الكبير . وهكذا لم يعد أمام الحروب الاقطاعية سوى فصل الصيف فقط . ومن ناحية أخرى ، فان حركة « سلام الله » قد شملت الأشخاص فى محاولة لزيادة عدد غير المحاربين . فقد كان محرما شن الحرب ومهاجمة رجال الكنيسة ، والحجاج ، والتجار ، والنساء ، والمستن ، والفلاحين وممتلكاتهم من الثيران والبغال ومستلزمات الزراعة عموما . وبعبارة أخرى ، كان « سلام الله » يحمى العناصر الكنسية والتجارية والزراعية والنسائية فى المجتمع من التعرض لهجوم المتحاربين . وقطع الأمراء على أنفسهم عهدا بالحفاظ على هذه القواعد . وعلى الرغم من ذلك ، فان الكثيرين منهم قد حنثوا فى أيمانهم . ولم تكن حركة « هدنة الله » « وسلام الله » تحظى بتأييد أحد الأمراء الأقوياء ما لم تكن هناك مصلحة خاصة له .

وحينذاك وجدت الكنيسة أنه لابد من تكوين قوة سلام يخدم رجال الاكليروس فى صفوفها فى كل من فرنسا وألمانيا لاقرار النظام والضرب على أيدي من يعتدون على « هدنة الله وسلام الله » . وكانت هذه الخطوة بمثابة تغيير جذرى فى موقف الكنيسة من الحرب ، وتطورا هاما فى هذا السبيل . ورب قائل بأن الكنيسة لم تلعب دورا فى الحرب ، بل كانت

تقوم بمهمة بوليسية • ولكن الواقع أن الكنيسة قد رفعت السيف ، وأخذت تضطلع بالدور العادى للدولة • وقد حدث فى ألمانيا ذات مرة أن أقلت زمام جيش السلام فنهب البلاد ، واضطر أحد الكونتات الى أن يجرد جيشا مضادا ليعيد النظام الى صفوف جيش السلام • وحين انقشع غبار المعركة التى دارت بين الجيشين كانت هناك سبعمائة جثة من رجال للكنيسة تغطى ساحة القتال •

وهكذا أدلت البابوية بدلوها فى حركة الإصلاح بشكل أدى فى النهاية الى تأكيد مكانة البابوية وحكمها للعالم المسيحى الغربى • وقد تتابع على عرش القديس بطرس فى روما عدد من البابوات المصلحين ، إلا أن أكثرهم تأثيرا كان هو ليو التاسع الذى وصف بأنه « المؤسس الحقيقى للحكومة البابوية » • وقد عمل هذا البابا على جعل السلطة البابوية حقيقة ملموسة فى سائر أنحاء الغرب المسيحى ، وبذلك استطاع أن يستحوذ على ولاء الأديرة الكلونية ومساندتها • ولكن رغبة البابا فى توطيد سلطانه سرعان ما دفع به الى انصدام الحاد والعنيف مع الامبراطور • هذا الصراع الذى تجسد كأوضح ما يكون بين البابا جريجوى السابع والامبراطور الألماني هنرى الرابع •

وكان البابا جريجورى السابع رجلا ذا ميول عسكرية ، فقد أقنع البابا اسكندر الثانى ، وهو لا يزال كاردينالا ، بتأييد العدوان النورمانى على انجلترا • وعندما اعتلى العرش البابوى كتب الى الامبراطور هنرى الرابع فى سنة ١٠٧٥ يقترح عليه تجريد حملة لاستعادة ممتلكات الامبراطورية الشرقية التى فقدتها بعد معركة مانزكرت • وكان واضحا أنه ينوى أن يتولى قيادة الحملة المقترحة بنفسه ، ظاناً أنه هذه الحملة ربما تؤدى فى حالة نجاحها الى اخضاع الكنيسة الشرقية وتوحيد العالم المسيحى تحت زعامته • كذلك كان هذا البابا الطموح يشجع حملات الاسترداد فى اسبانيا • ولا شك أن البابا جريجورى السابع قد حاول أن

يجعل من ورطة الامبراطور البيزنطى ، بعد هزيمته فى مانزكرت ، ميزة عاجلة تفيد منها البابوية . ولكن استمرار الصراع بين البابا والامبراطور حول مسألة التقليد العلمانى عطل تنظيم أية حملة أو ارسال أى جيش ابان بابوية جريجورى السابع ، وترك أمر تنفيذ ذلك الى خليفته أوربان الثانى الذى كان أكثر اعتدالا ، وأقل طموحا من سلفه .

ونجد أنفسنا فى مواجهة سؤال يطرح نفسه فى الحاح حول دوافع البابوية الى الدعوة الى شن حملة مقدسة لمحاربة المسلمين فى الشرق . واذا ما أردنا البحث عن الاجابة المناسبة وجدنا أنفسنا مقودين الى استعراض خطاب أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت فى السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥ ، لعلنا نجد الاجابة فى طياته .

كانت خطبة البابا فى كليرمونت مثالا رائعا فى البلاغة . وعلى الرغم من أن هذه الخطبة قد وصلتنا فى عدة روايات مختلفة ، فالواضح ان هذا البابا قد استطاع أن يمس كل الدوافع التى كان يمكن أن توجد فى وجدان سامعيه . واذا ما اعتمدنا على رواية روبرت الراهب الذى كتب فى الربع الأول من القرن الثانى عشر ، واعتمد على رواية أخرى اسبق زمنيا ، وجدنا أن البابا يخاطب « جنس الفرنجة » ويذكرهم بحسن عقيدتهم الكاثوليكية وشرف كنيستهم . ثم يحدثهم عن صنوف مرعبة من التعذيب الذى زعم بأن الأتراك المسلمين أنزلوه بالمسيحيين فى الشرق . ثم يثير اريان الثانى نخوة الفرسان الفرنجة « ... دعوا مآثر اسلافكم تحفزكم الى القيام بما يليق بالرجال من اعمال . انذكروا أمجاد شارل العظيم وعظمته ، وابنه لويس وغيره من ملوككم الذين دكوا ممالك الوثنيين ، ونشروا لواء المسيحية فى تلك البقاع . وليكن قبر سيدنا المخلص ، الذى تسيطر عليه أمم غير طاهرة ، حافزا لكم . ولتثر الاماكن المقدسة ، التى تعاني من المهانة نخوتكم ... »

ثم اخذ أوربان الثانى يذكر سامعيه بأن بلادهم التى يحدق بها

البحر والجبال أضيق من أن تتسع لاعدادهم الكبيرة ، كما أنها لا تكاد تقى حاجة سكانها من الطعام ، ومن ثم فإنهم يقتلون بعضهم بعضا • ويدعون البابا فرسان الفرنجة الى نبذ الكراهية ، ووقف الحروب المحلية ، ويسعوا جميعا على درب الضريح المقدس ليحرروه من نير المسلمين • وليحكموا هذه الأرض التى يذكر الكتاب المقدس أنها « تفيض باللبن والعسل » •

والمقامل فى خطاب أوربان الثانى فى كليرمونت كما رواه روبرت الراهب – الذى يحتمل أنه كان واحدا من شهود المؤتمر – يستطيع أن يضع يده على بعض دوافع البابوية من ناحية ، والعلمانيين من ناحية أخرى ، وراء الدعوة الى شن حرب مقدسة والمشاركة فيها •

لقد كانت دوافع البابوية مزيجا مختلطا • فان الحرب المقدسة ، كأداة من أدوات سياسة البابوية الخارجية كان تستهدف عدة أغراض ، منها ما هو معلن ومنها ما يفهم من استقراء الظروف التاريخية ؛ ففي المحل الأول كانت الحملة المزمع القيام بها تنشد استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين ، وحماية طرق الحجاج المسيحيين • ولا شك أن الرغبة فى نشر المسيحية كانت من عوامل دعوة البابوية الى الحرب الصليبية ، بيد أنه كان من الواضح أن البابا رأى فى مثل تلك الحملة فرصة لتوحيد كنيسة الشرق والغرب – اللتين كانتا قد تباعدتا تماما منذ الشقاق الكبير الذى حدث سنة ١٠٥٤ – تحت زعامته ، وتأكيده دوره كزعيم للعالم المسيحى •

كذلك كانت البابوية ترغب فى توظيف الميول الحربية لفرسان الغرب الذين لا يكفون عن الاقتتال ، فى خدمة غرض عام يفيدهم ، لا سيما وأن حركة « سلام الله » ، « وهدنة الله » كانت قد لقيت تجاهلا تاما من بعض أهم مؤيديها • ويمكن أن نلاحظ أن سادة الأراضى التى ثم استردادها (م ٢ – عالم الصليبيين)

فى أسبانيا فى غضون القرن الحادى عشر ، قد صاروا أفضالا اقطاعيين تابعين للبابا فى روما . وهو ما يعنى أن البابوية كانت تسعى الى أن تكون الأراضى المقدسة – بعد استعادتها من المسلمين – تابعة للبابا وخاضعة لسيطرته . ومن ثم فإن مثل هذه الحرب الصليبية سوف تكون تعبيرا عمليا عن زعامة البابا الروحية للعالم المسيحى ، وقد كانت هذه الزعامة تمثل ركنا جوهريا من أركان وجود البابوية نفسها .

ومن ناحية أخرى ، فقد رأت البابوية أن الحروب الصليبية يمكن أن تجتذب شعوب شمال أوربا الى علاقات أكثر توطدا مع البابوية .

ولا شك أن البابا جريجورى السابع قد حاول أن يفيد من ورطة الامبراطور البيزنطى ويحولها الى ميزة عاجلة تفيد منها البابوية بإرسال جيش لاتينى يكون هدفه خدمة مصالح البابوية . وليس حماية البيزنطيين من خطر المسلمين ، ولكن استمرار الصراع بين هذا البابا والامبراطور هنرى الرابع عطل تنظيم أية حملة أو إرسال جيش فى عهد جريجورى السابع . وترك أمر هذه الحملة الى أوربان الثانى الذى كان واحدا من اكبر دبلوماسى عصره ، وقد نجح فى تضيق شقة الخلاف التى كانت تفصل بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية ، وتقبل فكرة الحرب المقدسة فى لهفة وشغف . وفى دعوته التى وجهها الى ذلك الجمع الحاشد من الناس فى الحقول خارج مدينة كليرمونت وعبد الناس بالمكافأة الدنيوية ، كما قدم الغفران والخلص لكل من يسقط فى حلبة الصراع ضد المسلمين .

وعلى الجانب الآخر ، كانت دوافع من قبلوا المشاركة فى هذه الحرب المقدسة مزيجا غريبا ومثيرا من العوامل والأسباب . والحقيقة أننا لا يمكن أن ننكر أن العامل الدينى كان موجودا بشكل ما ، ولكنه كان نابعا من تدين عاطفى يقوم على التعصب المقيت ولم يكن نابعا من تدين عقلانى حقيقى .

ذلك أن الجو المموم الذي أشاعته الدعاية المسعورة التي اذكت البابوية نيرانها ضد المسلمين ، جعلت نفوس بعض أولئك الفرسان تضطرم بالرغبة في قتل المسلمين الذين شاعت عنهم قصص تدمير الكنائس وقتل المسيحيين وتعذيبهم . ولأن غرب أوربا كان يجهل الصورة الحقيقية للمسلمين فإن مقاتليه الذين ساهموا في حرب الاسترداد الإسبانية كانوا يظهرون من دلائل القسوة والوحشية ضد المسلمين ما كان يتعارض بوضوح مع تصرفات الأسبان المسيحيين أنفسهم والتي اتسمت بالاعتدال إلى حد ما . وعلى هذا ، فإن المقارنة بين مبدأ الجهاد الإسلامي ، وفكرة الحرب المقدسة التي روجت لها البابوية تكشف من أن فكرة الحرب المقدسة ، على الرغم من اقتباسها لمفهوم الجهاد ، تفتقر تماما إلى الشرعية التي جعلت من الجهاد ركنا إضافيا من أركان الإسلام . فضلا عن أن فكرة الحرب المقدسة التي اشعلت نار الحروب الصليبية قد ألبت ثوبا دينيا على الرغم من جوهرها السياسي . ولعل من أكبر البراهين على ذلك ، أن كتب كبار رجال اللاهوت المعاصرين لها ، ومنهم « توماس الاكوينى » الذى شارك أخوه فى الحروب الصليبية وأسر أثناءها ، لم يتعرضوا من قريب أو بعيد لفكرة الحرب المقدسة .

ولا شك فى أن البعض الآخر قد أخذوا شارة الصليب أملا فى نيل الغفران والدخول فى رحمة الرب . ومع ذلك فإن الفرسان الذين لا أرض لهم ، والأبناء الصغار فى الأسر الاقطاعية ممن لا يحق لهم وراثة الاقطاعات ، قد انضموا إلى الحملة الصليبية يحدوهم الأمل فى أن يحققوا لأنفسهم الأرض والمكانة التى لم يتمكنوا من تحقيقها فى أوطانهم . وقد لعب البابا أوربان الثانى على أوتار هذا الأمل بشكل صريح فى خطبته الشهيرة مشيرا إلى حالة الجوع إلى الأرض التى باتت أوربا الغربية تعاني منها عشية الحروب الصليبية . ذلك أن غروب شمس القرن الحادى عشر جاء متوافقا مع تثبيت حدود الدوقيات والكونتيات الاقطاعية فى فرنسا ،

وقيام نمط بدائي من التوازن السياسى فيما بينها • وهو ما كان يعنى بالضرورة أن فرصة الأمراء الاقطاعيين للغزو داخل أرض الوطن باتت ضئيلة بالفعل ، ومن ثم فان اشتراكهم فى الحروب الصليبية كان فرصة مناسبة لتحقيق طموحاتهم •

لقد كان كثيرون من فرسان الغرب الأوربي فى القرن الحادى عشر يتوقون الى المغامرة فى الخارج ، وجاءت الحرب الصليبية لتروى ظمأهم وتعطشهم الى الحرب والمغامرة • وثمة أسماء كثيرة من الأسماء البارزة فى تاريخ الحملة الأولى تكشف عن مدى صدق هذه المقولة ، ومنهم ريمون امير تولوز ، وجودفرى أمير اللورين • وكان من الواضح ان مثل أولئك الفرسان سوف يستجيبون لأية دعوة توجهها البابوية لشن حرب مقدسة ضد المسلمين من أجل استعادة الأراضى المقدسة ، اذ كان ذلك يكفل لهم الستار الدينى المناسب لارضاء نزعاتهم العدوانية • ومن ناحية أخرى • كان بعض الأمراء الذين شاركوا فى الحملة الصليبية يبحثون عن فرصة يحرزون فيها نصرا عسكريا يعيد لهم الهيبة التى فقدوها فى اوطانهم •

وقد وجد البعض فى الحروب الصليبية فرصة للهروب من العدالة ، ذلك ان اشتراكهم فى مثل هذه « الحرب المقدسة » كان سيعفيهم من العقوبة التى يستحقونها جزاء ما اقترفوه من جرائم •

أما النورمان فى ايطاليا فقد تحركوا للمشاركة فى الحملة الصليبية بدافع من كراهيتهم العميقة للامبراطورية البيزنطية ، ورغبة فى انتزاع الممتلكات لأنفسهم على حسابها • فقد كان النورمان يرون فى الحرب الصليبية عملا عسكريا موجهها ضد البيزنطيين أكثر منها حربا ضد المسلمين • وكان بوهيموند ، أبرز قادتهم ، قد قام فى وقت سابق بحملة ضد الدولة البيزنطية بالفعل ، وعلى الرغم من فشل مغامرته هذه ، فانه رأى فى الحملة فرصة لمعاودة الهجوم على بيزنطة بتشجيع من البابوية •

وكانت المدن التجارية الإيطالية ، والبندقية وعلى وجه الخصوص ، من اشد المتحمسين لفكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين ، بيد أن سبب هذه الحماسة لم يكن دينيا وانما كان اقتصاديا . ذلك أن هذه المدن التجارية رأت في الحرب فرصة ذهبية لتدعيم وجودها التجارى فى عالم البحر المتوسط . بل ان البنادقة كانوا يأملون أن يحصلوا على موانئ على الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط اذا ما نجحت الحملة . وقد حدث بالفعل أن نال البنادقة مكافأتهم حين عهد الصليبيون اليهم بنقل المؤن ، ومنحهم الامتيازات الجمركية فى الاراضى التى استولوا عليها .

اما صدى الدعوة الى الحرب المقدسة على الصعيد الشعبى ، فكان مثيرا حقا . وفى تصورنا أنه فى مجتمع له ظروف الغرب الأوروبى فى القرن الحادى عشر ، حيث تسود مظاهر الجهل وتنفشى الأمية ، وحيث تختلط المفاهيم الدينية بالخرافات والخرعبلات ، كان لابد أن تكون الاستجابة لمثل هذه الحرب قوية ، بل وهستيرية . وهو ما حدث بالفعل . وفى هذا الجو تشيع أنباء عديدة عن الرؤى والأحلام المقدسة ، ويكتسب المشعوذون والمبشرون الجوالون ، من أمثال بطرس الناسك ، مكانة هائلة فى نفوس بسطاء الناس . لقد كان بطرس وأمثاله تجسيدا لحالة الهلع التى حكمت المجتمع الغربى مع اقتراب الألف الأولى بعد المسيح من نهايتها ، وتوقع الناس ليوم اليامة وفقا للمفاهيم التى أرساها أوغسطين وغيره عن عمر العالم . فقد تفشت بين الناس آنذاك حركة تدعوهم الى التكفير عن ذنوبهم ، والبعد عن الدنيا وزخارفها ، والتشبه بحال الزهد والتقشف التى عاشها الحواريون . وفى غمار هذه النوبة كان لابد للدعوة الى الحرب المقدسة أن تلاقى مثل هذه الاستجابة المحمومة .

ويقول مؤرخ الحروب الصليبية الشهير ستيفن رنسيमान ان النجاح الغريب الذى حظيت به الدعوة الى الحروب الصليبية يمكن أن يفسر فى ضوء حياة الفلاحين فى شمال غرب أوربا التى كانت حياة عابسة وغير

آمنة • فقد خربت مساحات كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة أثناء الغزوات الجرمانية وغارات الفيكنج التي تلتها ، إذ تهدمت الجسور وفاضت مياه البحر ومياه الأنهار لتغطي الأراضي الزراعية • وغالبا ما كان السادة الاقطاعيون يعارضون محاولة ازالة الغابات والزراعة مكانها لأنهم كانوا يمارسون رياضة الصيد في هذه الغابات كما أن القرية لم تكن تحت حماية أحد النبلاء الاقطاعيين غالبا ما كانت تتعرض للسلب والنهب ، أو حتى الحرق على أيدي عصابات الخارجين على القانون ، أو على أيدي المحاربين في أثناء الحروب الاقطاعية • وعلى الرغم من أن الكنيسة حاولت أن تلعب دورا في حماية الفلاحين الساكنين ، فإن ما قدمته في هذا المجال لم يكن على أية درجة من الفعالة والأهمية • ومن ناحية أخرى ساهمت الكوارث الطبيعية في زيادة المساحات القائمة الحزينة في الصورة ، فالفيضانات التي حدثت سنة ١٠٩٤ ، والمجاعات التي أعقبتها جعلت الحياة شبه مستحيلة •

هكذا ، إذن ، لعبت الظروف الاجتماعية والاقتصادية دورها في الاستجابة السريعة المذهلة للدعوة التي وجهها البابا الى الجماهير الأوربية • لقد كانت جموع الفلاحين المطحونين في مجتمع يستولى على نتاج عملهم في الحقول ، ويتركهم في مستوى معيشى أدنى من حيوانات الحقل هم أول من استجاب لدعوة أوربان الثانى في كليرمونت • لقد كانت استجابة نبلاء الغرب لهذه الدعوة متوقعة الى حد ما ، ولكن الذى لم يكن متوقعا هو الذى حدث على الصعيد الشعبى •

وعلى أية حال ، فإن البابوية سرعان ما أصدرت مرسوما عاما بالغفران لكل من يشارك في الحرب المقدسة ويحج الى بيت المقدس • ثم أعلنت البابوية أنها سوف تتولى حماية أملاك المشاركين في هذه الحملة •

وهكذا بدأت الحروب الصليبية • وهنا ينبغي أن نشير إلى أن هذه الحروب كانت تعبيراً عن موقف جديد تماماً للكنيسة من قضية الحرب • لقد كانت الحروب الصليبية حرباً بدأتها الكنيسة لا الدولة • ولم يكن المشاركون فيها يأمرون بأمر حاكم أو أمير علماني ، وإنما كانوا يتطوعون لحمل شارة الصليب • لقد كانت الحروب الصليبية علامة على عسكرة المسيحية ، وتجلى ذلك واضحاً في حقيقة أنه كان يمكن لرجال الدين أن يحاربوا دون أن يتحملوا تبعات التوبة • حقيقة أن الحملات الصليبية التالية جاءت تحت قيادة الملوك والأمراء العلمانيين ، ولكن الحملة الأولى كانت من عمل البابا ، على الرغم من أن الأمراء حملوا شارة الصليب استجابة لدعوته •

وهكذا ، خرجت فكرة الحرب المقدسة إلى حيز التنفيذ ، وكان الإصلاح الكنسي الذي قادته الأديرة الكلونية ، والسياسة البابوية ، ونظرية الحرب المقدسة التي تطورت ، منذ فكرة القديس أوغسطين عن الحرب العادلة ، حتى صارت أمراً يجلب مرضاة الرب ، هي الخلفية التي استندت إليها خطبة أوربان الثاني في كليرمونت ١٠٩٥ • وهذه العناصر هي التي شكلت الروح التي دفعت الجهود الدعائية التي ساهمت في تشكيل الجيوش التي توجهت إلى فلسطين ، كما كانت الروح هي القوة الدافعة لحملة الفلاحين أو الدملة الشعبية • لقد كانت الفكرة الصليبية نتاجاً لتفاعل القوى التي لبثت نداء البابوية في كليرمونت ، ثم خبرات أولئك الذين شاركوا في الحملة الأولى بالفعل •

والحقيقة عندي أن فكرة الحملة الصليبية قد ولدت في أذهان الذين عايشوا أحداثها بالفعل ، ومن ثم فأننا يجب أن نتوخى الحذر ونحن نستخدم مصطلح « الحملة الصليبية الأولى » ، ذلك أن صياغة فكرة الحملة الصليبية ، كمثال ونموذج ، قد تمت من خلال تجربة الحملة الأولى وخرجت من طياتها لتخلق نموذجاً ثابتاً في أذهان الدعاة إلى الحملات الصليبية التالية •

وعلى مدى قرنين تقريبا ، منذ ١٠٩٦ حتى ١٢٩١ ، توالى على شاطئ المتوسط الشرقى موجات عديدة من الأوربيين ، فقد جاءوا بعشرات الألوف ، زرافات ووحدا ، من الحجاج والأفراد المسلحين ، والمجموعات العسكرية الصغيرة بقيادة الأمراء الاقطاعيين ، والجيش الكبيرة التى يقودها أكبر حكام أوربا آنذاك . وهو ما يعنى أن الحملات الصليبية السبع الشهيرات لا تعبر عن واقع الحال ، إذ كانت الحملات الصليبية فى حقيقة الأمر أكثر من مجرد هذه الموجات التى كانت تضرب من حين لآخر على شاطئ فلسطين ، وإنما كانت بمثابة تقاطر مستمر من الحجاج ، والمحاربين والقراصنة والنبلاء الجوعى للأرض ، الذين اتخذوا من الشرق العجيب مقصدا لهم .

إن « الحروب الصليبية » بمقدماتها ونتائجها ، تقدم لمن يهتم بدراسة التاريخ مثالا فريدا عن مدى ما يمكن أن ينتج عن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية من استجابات : ففى أوربا الغربية كانت دعوة أوربان الثانى تطرح أمام المجتمع الذى مزقه الخلاف وأرهقته المشكلات هدفا عاما يمكن لهذا المجتمع أن يعبر عن نفسه من خلاله . أما فى الشرق ، الذى تعرض للعدوان ، فقد كانت الاستجابة لهذه الحركة مختلفة تماما ، فمن مرحلة التشتت والركود ، وعدم الوعى بحقيقة الغزوة الصليبية فى بداية الأمر ، مما مكن للانتصارات الأولى للصليبيين ، انتقل المجتمع الاسلامى من مرحلة التقهقر الى المقاومة ، ثم الهجوم المضاد الذى أنهى بتدمير الجسم الغريب على تراب الأرض العربية بعد حوالى قرنين من الزمان وتلك قصة تستحق أن تروى وحدها .

وقد احتلت قصة الحروب الصليبية حيزا كبيرا من اهتمام المؤرخين والباحثين . وانكب منهم عشرات يفتشون بين غبار المعارك ، وأشلاء الضحايا وانات الجرحى والمهزومين عن أجزاء الصورة التى يريدون استردادها من ذمة التاريخ . وأخرجت المطابع سيلا من البحوث والمؤلفات

تدور جميعها حول موضوع واحد هو : « الحروب الصليبية » . لقد اهتم الغرب بقصة هذه الحروب التي اتخذت الصليب شعارا ، والقدس هدفا ، وفى ظل الشعار والهدف ارتكبت أبشع ما يمكن للبشر أن يتخيلوه ، حتى بمقاييس العصور الوسطى التي اشتهرت بالقسوة وقلة الاهتمام بالجوانب الانسانية فى الحروب . وعلى الرغم من اداة كثيرين من الباحثين الغربيين « للحروب الصليبية » ، فان هذه الادانة ، فى رأينا ، نابعة من حقيقة أن الحروب الصليبية قد فشلت فى أن تحقق شيئا وان كانت فصولها الرئيسية قد دارت على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان . بل ان من هؤلاء الباحثين من يرى أن الحملات الصليبية قد خرجت لكى تسترد الأرض المقدسة من المسلمين أولا ، ثم تحاول الاحتفاظ بها هى والأراضى الأخرى المجاورة لها باعتبارها اراض مسيحية . بيد أن هذا لا ينفى وجود بعض المؤرخين الذين جعلوا البحث العلمى والتعرف على الحقيقة ايا كانت هدفا ينبغى الوصول اليه .

أما فى الشرق وفى الوطن العربى بصفة خاصة ، فان الدراسات الحقيقية لهذه الحركة ما تزال قليلة الى حد الندرة . وعلى الرغم من أن كثيرا من الكتب والبحوث قد خرجت تتحدث عن « الحروب الصليبية » فان معظمها للأسف توقف عند حد رواية الأحداث بطريقة قصصية سردية . أما الدراسات التى حاولت الغوص فى أعماق الظاهرة التاريخية وتحليلها بالطريقة التى تتفق مع كوننا الطرف الذى وقع عليه العدوان ، وكان عليه أن يتصدى للمعتدين على مدى قرنين من الزمان استنفدت كثيرا من موارده وجهوده المادية والحضارية ، فقد كانت دراسات قليلة بالفعل .

وإذا ما تأملنا حالنا اليوم ، ونحن نواجه الهجمة الصهيونية المدعومة من العالم الغربى على نحو خاص ، أدركنا مدى حاجتنا الى المزيد من الدراسات التى تكشف لنا عن جوانب عدوان الأمس علنا نستهدى التجرية ونحن نواجه عدوان اليوم . وعلى الرغم من أننا نؤمن بشكل

قاطع أن التاريخ لا يعيد نفسه ، فأننا نرى أن ثمة من الحوادث التاريخية المتشابهة من حيث الدوافع والنتائج ما يعيننا على تلمس الطريق السوى . ونحن نرى أن ثمة جوانب كثيرة متشابهة – وليست متطابقة – بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ، ومن ثم فانه يصبح واجبا علينا ان نتصدى بالدراسات المقارنة فى سبيل كشف الأبعاد الحقيقية لكل منهما . وعسى الله أن يوفقنا الى عمل من هذا النمط .

على أية حال ، فان الكتاب الذى تقدمه فى ترجمته العربية ، دليل على أن الاسرائيليين ينظرون الى الحركة الصليبية نظرة تختلف تماما عن نظرة كل من الغرب المسيحى والشرق المسلم ، فهم يبحثون لأنفسهم عن دور فى هذه المواجهة الطويلة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى محاولين تأكيد وجودهم التاريخى المستمر فى المنطقة من ناحية ، والتعرف على جوانب الفشل والاختفاق التى قضت على الوجود الصليبي فوق ذات الأرض التى زرعوا فيها . الكيان الاسرائيلى من ناحية أخرى .

ولؤلف هذا الكتاب كتاب آخر صدر باللغة العبرية وله ترجمة انجليزية وأخرى فرنسية وترجمة عنوانه « المملكة اللاتينية فى بيت المقدس » . ومن الطبيعى أن هذين الكتابين ليسا الوحيين فى هذا الموضوع من أعمال المؤرخين والباحثين الاسرائيليين ، ونأمل أن نقدم فى المستقبل ان شاء الله دراسة بيبلوجرافية وهستوريوجرافية حول هذا الموضوع . اما المؤلف فهو الاستاذ يوشع براور استاذ تاريخ العصور الوسطى فى الجامعة العبرية فى القدس . والكتاب الذى تقدمه للقارئ العربى ، والذى يحمل عنوان « عالم الصليبيين » لا يتعرض لتفاصيل الحروب والمعارك وحالات الحصار ونصوص المعاهدات وانما يهتم بدراسة الجوانب المختلفة للوجود الصليبي . وفى تصورنا ان هذا الكتاب تعبير صادق عن الرؤية الاسرائيلية للحروب الصليبية ، وأن هذا هو ما يجعل الكتاب هاما بالنسبة للقارئ العربى لا سيما وأن هناك تشابها بين الكيان

الصلبي والكيان الصهيوني مع تسليمنا بوجود الاختلافات أيضا • ولسنا نقصد في هذه المقدمة أن نتعرض للكتاب بالنقد حتى لا يقع القارئ في شبك الفكرة المسبقة ، بل اننا نترك القارئ مع النص ، ثم نسوق له ما يعن لنا من ملاحظات في تعقيبننا على الكتاب • كما اننا توخينا أن نقلل من تعليقاتنا على النص في الهوامش قدر المستطاع على اعتبار أن التعقيب سوف يتضمنها •

وأخيرا فاننا لن نشير الى مشاق الترجمة ، فذلك أمر نراه طبيعيا ، ولكننا نرجو أن نكون قد وفقنا في نقل هذا النص الانجليزي الى العربية بشكل مفيد وبقى بالفرض ، والله الموفق والمستعان •

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم • أغسطس ١٩٨٠

ثلاث امبراطوريات وأربع دعاوى

« وقال الله ليعقوب انا الله القدير اثمر واكثر امة وجماعة أمم تكون منك ، وملوك سيخرجون من صلبك ، والأرض التي اعطيت ابراهيم واسحق لك اعطيها ولنسلك من بعدك اعطى الأرض » (سفر التكوين ٣٥ : ١١ - ١٢) .

لقد ظلت اقدار البلاد والأمم والأديان والامبراطوريات على مدى ثلاثة آلاف سنة مرتبطة بالوعد العظيم المدون في الكتب المقدسة ، اذ تأثرت ملايين لاتحصى من البشر بكلمات العناية الالهية التي تلقاها يعقوب ابن اسحاق بن ابراهيم ، الذين هم الآباء الاسرائيليون . وقد صار مفهوم الأرض الموعودة عقيدة أساسية في ديانة اسرائيل ومحورا لآمالها في الزمن الغابر ، بل كان من المقدر لهذا المفهوم أن يصبح جزءا أساسيا في جميع الثقافات التي قبلت الكتب المقدسة لليهودية أو التي ارتبطت بالديانة الاسرائيلية برباط ما .

وقد حملت الديانة المسيحية ، التي شهدت تمام نبوات الخلاص بقيام عيسى المسيح ، هذه الكتب المقدسة وما سجلته عن الوحي عبر البحر المتوسط الى روما عاصمة الامبراطورية الوثنية . وسقطت الامبراطورية ، ولكن الدين الجديد كان قد غزاها من الداخل ، وهو غزو أكثر ثباتا من أى من الفتوحات العابرة التي قام بها زعماء الجرمان وغيرهم من البرابرة الذين طرّقوا أبواب العاصمة الرومانية . وانتشرت المسيحية بين القبائل التي اتخذت من أطلال الامبراطورية الكبيرة معسكرات لها .

لقد كانت المسيحية أكثر من مجرد ديانة • إذ أنها كانت ثقافة وحضارة امتزجت فيها أثينا وروما مع اورشليم ، ولم يرث الانسان المسيحي الفكر الكوني فقط وقصة الاله الذي أصبح انسانا فى سبيل خلاص البشرية ، وانما ورث أيضا تراث أمة مختارة كما ورث أحداث تاريخها وأنبيائها الذين هم أعظم المعلمين لأسمى اخلاق عرفت البشرية • ومن خلال قصة العبريين – الشعب المختار الذى فقد امتيازه برفضه للمسيح المخلص – تعلم المسيحي كيف ينظر الى نفسه باعتباره وريثا لدعوى العبريين وامتيازاتهم • إذ أن العهد الجديد قد صدر عن العهد القديم ، وصارت وصايا العهد القديم التى تعود الى ذلك الزمان الذى كانت البشرية فيه تعيش فى ظل الناموس ، محطا للنسيان والاهمال •

أما روايات الكتاب المقدس التاريخية ، بواقعها الجغرافى المحسوس ، فقد تم تناسخها وتحولها الى العالم الروحى المعنوى ، فاورشليم عاصمة المملكة القديمة تحولت الى اورشليم السماء • وباتت مملكة داود رمزا لعالم عصر الخلاص الذى سوف يأتى • وبينما ظلت بيت لحم والناصرة أماكن البشارة وال ميلاد ، كانت اورشليم ذاتها بما تشمله من طريق الآلام ، وجبل الزيتون ، وقبر المسيح أكثر من مجرد نقطة على خريطة عالم الله الهائل المنبسط • وهكذا أصبحت الأرض المقدسة ، والاماكن التى شهدت معجزات المسيح والامه أماكن حقيقية فى الوجدان المسيحى • ولم يكن هناك فى عالم المسيحية من لا يعرف اسماء أقاليم يهوذا والجليل الثانية •

وكانت تعاليم المسيح واحدة ومشاركة فى جميع انحاء العالم المسيحى ، بيد أنه نظرا لعدم وجود سلطة فى ممالك الغرب شبه البربرية تستطيع أن تترجم المزايم المسيحية الخاصة بالأرض المقدسة الى مفاهيم سياسية كان الموقف فى الشرق المسيحى مختلفا حيث كانت بيزنطة قد خلدت عظمة روما ، وجلال الامبراطورية المسيحية • ومع طلوع شمس القرن السابع بدأ الروم • كما كان يطلق عليهم جيرانهم المسلمون

حملة عظيمة ضد الفرس واستعادوا الصليب المقدس من الأسر الساساني . وبعد جيل واحد (حوالى سنة ٦٥٠ م) انتزع الفرسان العرب كل الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط بما فيه من الولايات الافريقية وشواطئ فلسطين وسوريا . وبدأ حينذاك أن القسطنطينية نفسها ستختفى فى طيات موجات الطوفان الاسلامي . ولكن بيزنطة نجت بنفسها واستمر الحكم البيزنطي على البلقان وآسيا الصغرى .

وكان امبراطور بيزنطة مسئولاً عن الدفاع عن العالم المسيحي والعمل على مد رقعتيه باعتباره زعيماً للامبراطورية المسيحية وحامى حى المسيحية الارثوذكسية . وكان هذا الدور الذى يلعبه الامبراطور من لوازم لقبه ، كما كان جزءاً من تراثه كخليفة للامبراطور المسيحي الأول قنسطنطين الكبير ، والامبراطور هرقل منقذ الصليب . وفى القرن العاشر شن الامبراطور فوكاس (فوقس) Phocas ، وحنا الأول تزمسكيس (الششمشقيق) John I Zimisces حملات عسكرية ضد المسلمين فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين . وقد حدث هذا فى عامى ٩٦٤ - ٩٦٥ ، ٩٧٤ - ٩٧٥ على التوالي . وقد وصلت هذه الحملات الى أعتاب القدس ، وأرسل الامبراطور فوكاس (فوقس) رسالة يحذر فيها الخليفة العباسي بقوله : « انت يا من تعيش فوق رمال الصحارى ... خذ حذرك وعسد ادراجك الى صنعاء ، اذ أنتى سرعان ما أهزم مصر وتصبح ثرواتها اسلاباً الى . وسوف اتحرك الى مكة على رأس جماهير المقاتلين الذين يشبهون فى كثرتهم جحافل الظلام . وسوف استولى على هذه المدينة لكى اقيم بها عرش الرب ثم اتوجه الى اورشليم لأقهر الشرق والغرب ، واقيم رمز الصليب فى كل مكان » .

لقد كانت مزاعم خلقاء الأباطرة البيزنطيين قائمة على أساس من قوة التاريخ وحق الدين ، واذ فشلت القوة العسكرية فى حسم الأمر ، ثم تعديل المزاعم البيزنطية فى الأرض المقدسة لكى تتناسب مع الظروف

السياسية والدينية السائدة آنذاك ، صار امبراطور الشرق هو المدافع الرسمي عن المواطنين المسيحيين في الأراضي الخاضعة لسيادة المسلمين . وكان دوره في الحقيقة قاصرا على حماية الكنيسة البيزنطية . وكانت تلك مصالحة مؤقتة قبلها الحكام المسلمون . وبينما كان المبدأ العملي هو السائد مما سهل عملية التوسع السياسي ، فان مزاعم الامبراطورية البيزنطية في الأرض المقدسة ظلت طيلة تاريخ الامبراطورية سلاحا مشرعا ضد المسلمين والصليبيين على السواء .

وفي الوقت نفسه كان العالم المسيحي الغربي يطور أطره الاجتماعية والسياسية الخاصة به . اذ بدأت تظهر كيانات سياسية جديدة ، نشأت عن الغزوات الجرمانية لأوربا الغربية ، وصار تراث روما جزءا لا يتجزأ من الكنيسة حيث وجدت مفاخر العالم الكلاسيكي ملاذها الأخير ، ولم يكن هناك وريث لروما الامبراطورية حتى عصر شارلمان (٨٠٠ م) الذي وحد أقاليم الغال وألمانيا وإيطاليا تحت حكمه ، فقد أعادت قوته العسكرية وضيقاته ضد السكسون الوثنيين ، وفي بوهيميا وبانونيا ، فضلا عن حروبه ضد أسبانيا المسلمة ، بناء الامبراطورية الغربية ، كما انها كانت في الوقت نفسه حروبا ضد الكفار . وقد وسعت حروبه ضد الوثنيين والمسلمين والشماليين والسلاف والآفار حدود سيادته السياسية ، كما انها وسعت من حدود الأمة المسيحية ، وأدت الى انتشار الدين المسيحي . وقد استمر الشعور بهذا الجانب من حملات الامبراطور الكبير على مدى عدة قرون ، وظلت انشودة رولان ، وهي ذات أساس تاريخي ، ورحلة شارلمان الى الشرق - وهي من الروايات الخيالية التي شاعت في القرن الحادي عشر وتحمل بصمات اسطورية - براهين أو شهادات شعبية تدل على المواجهة بين الامبراطور والكفار المسلمين . وبعد ثلاثة قرون ، أي عندما كانت أوربا في طريقها للاحتكاك بالمسلمين في سوريا وفلسطين ، كانت صورة شارلمان العظيمة كرائد للحرب المقدسة لاتزال شامخة في الوجدان الأوربي .

كانت مهمة الزعيم العلماني للعالم المسيحي أن يدافع عن أمن بيت الله وأن يقوم بتوسيع حدود العالم المسيحي ، مع أن هذه المهمة لم تتخذ شكلا رسميا على الاطلاق . وهكذا كانت مزاعم الدفاع عن العالم المسيحي ، التي أنتجت المزاعم الصليبية في نهاية الأمر ، مرتبطة بكل من الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الرومانية المقدسة . ومع اقوال شمس القرن الحادي عشر ، وفي ظل الاضطراب الناجم عن الصراع العلماني حول تقليد رجال الدين وحين كانت الامبراطورية والبابوية تتصارعان من أجل الزعامة تقدمت البابوية متعديّة على امتيازات الامبراطور وواجباته . والحقيقة أن البابا جريجوري السابع الكبير (هلدبراند) هو أول من أصدر الدعوة لمحاربة الكفار ، وكان ذلك قبل الحملة الصليبية الأولى بجيل كامل .

وكانت الدعوة البابوية معاصرة لحركات أخرى برزت في أوروبا الغربية . فقبل جريجوري السابع بجيلين ، أشرعت سفن جنوة وبيزا لقتال الكفار المتحصنين في جزر البحر الأبيض المتوسط . وكان المسلمون قد استولوا في القرن الثامن على جزر كورسيكا وسردينيا القريبة من القواعد الاسلامية . وقامت السفن الايطالية التي كانت قد تمرست على القتال بهجومها على شواطئ البروفنسال واسبانيا - بالهجوم على موانئ الجزر التي كانت قواعد للقرصنة ومراكز للسلطة . وصارت الجزيرتان مسيحيّتين وبذلك كسبت المسيحية أول قواعد البحر خارج أرضها . ومع منتصف القرن الحادي عشر (حوالي ١٠٤٦ م) مد الفرنسيون يد المساعدة في القتال ضد المسلمين في شبه الجزيرة الاسبانية ، كما شن الكتلان القطالنيون والبروفنساليون هجومهم جنوبا وحرزوا بعض التقدم حين استولوا على طليطلة سنة ١٠٨٥ م . وسرعان ما تقدم الاسبان جنوبا منطلقين من الامارات المسيحية الصغيرة في جبال (م ٣ - عالم الصليبيين)

البرانس ، ونافارا وأرغونة ، وقشتالة ، وأخذوا يطردون المسلمين من أجزاء شبه الجزيرة الشمالية . وقد أطلق على هذه الحركة فى وقت لاحق اسم حركة الاسترداد *reconquista* أى استرداد الأراضى التى كانت قد فقدت منذ أربعة قرون عندما يمر الغزاة المسلمون مملكة القوط الغربيين المسيحية . وهكذا كان العالم المسيحى الغربى يقاتل المسلمين لاستعادة الأراضى المفقودة ، وكان القتال يدور عبر البحر المتوسط من اسبانيا غربا الى سردينيا وكورسيكا ثم الى مالطة فى الوسط . وداخل هذا المنظور التاريخى كانت الحروب الصليبية فى الأرض المقدسة بمثابة الامتداد الشرقى لحروب الاسترداد المسيحية .

ومع الحرب الصليبية الأولى كانت المزاغم المسيحية سواء تلك التى كان يمثلها البابا أو الأباطور فى الشرق أو فى الغرب ، تقابلها على الناحية الأخرى المطالب الاسلامى بل والحكم الاسلامى . وفى أقل من خمسة عشر عاما بعد هجرة محمد من مكة الى المدينة (٦٢٢ م) داخل المقاتلون المسلمون القادمون من الجزيرة العربية فلسطين وسوريا وآسيا الوسطى فى الشمال ، كما فتحوا مصر وشمال أفريقيا فى الغرب . وفى أول هجوم كبير صوب الشمال سقطت فلسطين وسوريا ، وصارت دمشق عاصمة الدولة الأموية بعد ذلك بفترة . وقد ورثت الديانة الاسلامية - التى اعتبرت نفسها آخر وحى الهى - عن اليهودية والمسيحية . وهو الأمر الذى انقذ الاماكن المقدسة فى فلسطين من الدمار الشامل . وصار المسيحيون واليهود ، باعتبارهم أهل كتاب مميزين عن الوثنيين والزرادشتيين ، مواطنين فى الدولة الاسلامية ، أو أهل ذمة حسب المصطلح الشرعى الاسلامى . وثمة رواية تحكى أن الخليفة عمر بن الخطاب - الذى مسلمت له القدس على يد بطريركها البيزنطى وفق شروط متفق عليها - لم يؤد الصلاة عند قبر المسيح فى محاولة واعية لتجنب خلق سابقة ربما تضر بالمسيحيين فيما بعد . واتخذ عمر من المسجد المجاور لقبر المسيح مكانا للصلاة (العمرية) . ولكن الفاتح المسلم لم يقنع بترك

الأمر عند هذا الحد . ويروى القرآن كيف أن محمداً بعد رحلة ليلية اعجازية وصل على البراق ، المطية الخرافية ، الى المسجد الأقصى ، وهو المعبد الخارجى مما أضفى قداسة على المدينة . وعندما وصل عمر بن الخطاب الى القدس طلب أن يرى ميكل الملك العظيم سليمان ، وانتابه الفزع عندما وجد أن المنطقة التى كانت هى المعبد اليهودى الكبير ليست سوى مقلب أثرية ، وهذا شاهد أثرى يرتبط ببيزنطة ويكشف عن انقصار المسيحية على اليهودية . فأصدر أوامره فى الحال بتنظيف المنطقة وشيد أول مسجد فى المنطقة هو المسجد الأقصى وكان عبارة عن بناء خشبي متواضع . وبعد مائة وخمسين سنة ، وفى قلب المنطقة المقدسة شيد الخليفة عبد الملك الحرم الشريف ، وقبة الصخرة الجميلة التى كانت تواجه المسجد الأقصى عند الساحة .

ولقرنين من الزمان بعد الفتح الإسلامى لم تلعب القدس سوى دور ثانوى فى المنظور الدينى للإسلام . فالحج ، وهو فرض على كل مسلم ، كان موجهاً الى المدينتين المقدستين مكة والمدينة (١) ، ولكن مكانة القدس كانت آخذة فى الرقى . وفى القرن الثامن ، وعندما بات الطريق الى مكة صعباً بسبب المشكلات السياسية اعتبرت زيارة بيت المقدس بمثابة الحج ، وبلغت مكانة تقرب من الحج الى مدن الحجاز المقدسة . وقد سعى الخلفاء وولاتهم المحليون الى تحويل اورشليم البيزنطية الى مركز إسلامى . وبدأ التسامح تجاه غير المسلمين يقل فى ظل حكم الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) . وتأرجحت السياسة الرسمية بعد ذلك بين التسامح ، والضغط من أجل اعتناق الإسلام . وبلغت المراسيم التى فرضت على غير

(١) الحج من أركان الإسلام ، ولكن لمن استطاع اليه سبيلاً ، فقد جاء فى القرآن الكريم «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» . والحج مفروض الى مكة فقط ، ولكن زيارة المدينة إنما تتم لزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام . (المترجمان)

المسلمين زيا مميذا وعلامات مهنية كالصلبان الخشبية الضخمة للمسيحيين والأجواس لليهود ، فى تطورها الى حد تدمير الكنائس والمعابد (٢) .

ففى سنة ١٠١٢ امر الخليفة الحاكم بأمر الله ، حاكم مصر الفاطمى شبيه المجنون بتدمير الاماكن المقدسة المسيحية واليهودية . ووقعت كنيسة القيامة ، ضمن كنائس أخرى ، ضحية لحماسته . ومع ذلك فان القدس لم تصبح مسلمة تماما . ففى الربع الأخير من القرن العاشر ، اشار المقدس الجغرافى الذى ولد فى القدس الى ان اليد العليا فى موطنه للمسيحيين واليهود . وربما كان هذا هو الوضع السائد فى بيت لحم والناصرة . وفيما عدا هذه المدن الثلاث ، تحولت سوريا وفلسطين ، بعد أربعة قرون من السيادة الاسلامية الى بلاد اسلامية تقحدث العربية .

وبهذا اضاف الاسلام مطالبه فى الأرض المقدسة وأماكنها القدسية الى قائمة المطالبين بها . وكان حق الاسلام يقوم على أساس السيادة والملكية الفعلية ، بيد ان هذا الحق سرعان ما أصبح يقدم على أساس من العقيدة والنفسير الدينى .

ولم يزل هناك مطالب آخر بالأرض المقدسة ، وهو مطالب لا يملك قوات عسكرية ولا موارد امبراطورية . ومع ذلك فهو أكثر المطالبين اصرارا وثباتا فى دعواه ، ألا وهو اليهودى الذى يعبر ثلاث مرات يوميا عن حنينه الى الأرض المقدسة وعاصمتها وعن أمه فى العودة والخلص .

(٢) الحقيقة أن هذا التعميم فيه قدر كبير من المبالغة والمغالطة ، فإن الحالة الفردية الشاذة التى شهدتها عصر الحاكم بأمر الله الذى شملت أفعاله المسلمين السنيين ، كما عانى الناس العاديون من شذوذ أوامره ، لا يمكن التدليل بها على أن هذه هى الروح التى سادت فى العالم الاسلامى ضد غير المسلمين . بل ان الثابت أن العصر الفاطمى كان هو العصر الذهبى بالنسبة لليهود والمسيحيين .

انظر قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص ٢٢ - ص ٦٢ . (المترجم)

ولم تكن دعواه حقا مكتسبا بالتقدم ، كما لم تكن دعوى قابلة للتحويل أو النقل . فقد ربط الدين الذى صان الأمة المشتقة على مدى أكثر من ألف سنة تحقيق نبوة نهاية العالم ، بالنبوة القائلة بجمع الشتات والعودة الى الوطن . وعلى هذا الأساس نظر الى كل حادثة كبيرة فى التاريخ والى كل اضطراب أو ثورة على أنها بشير بالخلاص القومى . وفى فلسفة الحشر اليهودية التى شاعت فى العصور الوسطى كانت بيزنطة تشبه بأدوم الشريرة ، كما كان سقوط بيزنطة فى أعين اليهود بمثابة بشائر التحرر . وعندما خرجت بيزنطة سالمة من صراعها مع الفرس . كان ظهور الاسلام (٦٢١) ثم ثورة العباسيين (٧٥٠) ، وانتصارات الأتراك السلاجقة (١٠٧١) مؤشرات على قرب الخلاص . ولكن كل أمل براق كان ينتهى الى آمال محطمة وقلوب جريحة . ومع ذلك كان هناك شعور بأن العناية الالهية ستحقق وعدا لاسرائيل فى أية لحظة قريبة .

وفى ظل الحكم البيزنطى ، فيما بين اواخر القرن الرابع وبداية القرن السابع ، صارت فلسطين غير يهودية فى أساسها ، أما نتيجة اعتناق المسيحية ، وأما بسبب هجرة اليهود الى اراضى الشتات . واحتقلت بيزنطة بانتصار دينها باصدار تشريعات معادية لليهود والتحریم الرسمى ضد اليهود القاطنين فى المدينة المقدسة . ومن ثم لم يكن أمام الحاج اليهودى المتدين سوى ان يتأمل المدينة واكداس القمامة فى سافل الهيكل . وهكذا كان اليهودى يردد صلواته فوق جبل الزيتون ويمزق ثيابه (كما يفعل الانسان تدليلا على حزنه) ، كما كان يأمل فى أن يأتى زمان أفضل . وكان الغزو الفارسى لفلسطين سنة ٦١٤ هو ساعة الانتقام ، وشارك اليهود الناثرون فى الهجوم الذى خلف أورشليم حطاما . ولكن بيزنطة أعادت تثبيت أركان حكمها لمدة جيل آخر . وحرم على اليهودى دخول المدينة . وقد تمثل التعبير عن مدى كراهية اليهود عندما أصر صفرونيوس آخر بطريرك بيزنطى لأورشليم على أن يستمر المسلمون فى سياسة التحامل ويمنعوا اليهود من الاستقرار فى الأرض المقدسة .

وبصرف النظر من التحريم ، فقد استقر بعض اليهود بالقرب من المسجد الأقصى كخدام لبيت المسلمين المقدس . وعندما ثبت وجودهم بدأ حتى يهودى ينمو بقرب القصر الأموى . ومع زيادة عددهم نما حتى آخر أكثر اتساعا فيما بين بوابة دمشق وبوابة يهوشفاط ، وسرعان ما انتقلت الاكاديمية الفلسطينية ، وهى المقر المبجل لحكام اليهود ، من طبرية الى القدس على الرغم من ان المركز الديموجرافى للحياة اليهودية كان فى العاصمة الاسلامية الجديدة فى الرحلة على ساحل البحر ، وظل كذلك حتى قدوم الصليبيين .

وهكذا ، ظلت الأرض المقدسة ، الأرض الموعودة لثلاثة اديان ، هى أرض المطالب الدائمة . وكان الحكم الفعلى للاقاليم فى وقت بعينه خاضعا لظروف تاريخية معينة ، ولكن مكانها فى قلوب البشر كان نتيجة لعواطفهم السامية ، ومع نهاية القرن الحادى عشر اجتمعت مجموعة فريدة من العوامل السياسية والثقافية والدينية لكى تحرك احد المطالبين ، وهو العالم المسيحى الغربى ، لكى يترجم رابطته العاطفية بالأرض المقدسة الى سيطرة سياسية . وكانت وسيلة تحقيق هذه الغاية غير المتوقعة هى اجرا الحملات العسكرية فى التاريخ . وقد تبعها حروب متتالية استمرت قرنين من الزمان ، وعرفت باسم الحروب الصليبية .

الحملة الصليبية

كليرمونت في السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥

أوشكت زيارة البابا للمدينة الواقعة في إقليم برجنديا بمملكة فرنسا على الانتهاء . وكان البابا أوربان الثاني Urban II قد دعا إلى عقد مجمع كنسي لمناقشة سبل إصلاح الكنيسة الفرنسية التي قد تأثرت ، كغيرها ، بالتدخل العلماني في شئون الكنيسة وبالسيمونية أو المتاجرة في الرتب الكهنوتية . أما الموضوع الثاني ، والذي لم يكن ليقل أهمية ، فهو أن فيليب الثاني ملك فرنسا من آل كابيه كان يعيش حياة الخطيئة مع امرأة رجل آخر على الرغم من تحريم الكنيسة مما اعتبر بمثابة فضيحة من أكبر فضائح العالم المسيحي آنذاك . وخلف الكواليس كانت تداعب البابا فكرة جديدة في حملة صليبية لتحرير قبر المسيح من نير الاسلام .

هذه الفكرة كانت قد ظهرت منذ جيل مضى على يد البابا جريجوري السابع . إذ كان الضغط الاسلامي في شبه جزيرة ايبيريا ، والغزوات الخطيرة التي قام بها الأتراك السلاجقة - الذين كانوا قد استولوا على بغداد سنة ١٠٥٥ على املاك المسلمين في سوريا وفلسطين ، وعلى أملاك البيزنطيين في آسيا الصغرى ٠٠٠ كان كل هذا قد أدى إلى ادراك البابا للخطر الاسلامي الداهم ، فطلب مساعدة مسيحية لاسبانيا كما طالب بحملة صليبية لصد الأتراك الذين كانوا يهددون القسطنطينية . وفي سراحة من سزحات الخيال رأى جريجوري السابع نفسه قائدا لجيوش التحرير المتجهة صوب الشرق . وكان يرى انه يمكن ، في حالة قيادة زعيم العالم المسيحي الغربي لجيش مسيحي ينقذ القسطنطينية من الكفار ، أن تعلن البابوية سياستها على

اوريا الغربية المسيحية ، كما تتجسد مكانة البابا كمدافع عن العقيدة ، بدلا من الامبراطور الذي كان هو المسئول عن هذا الدور دائما . وعلى الرغم من أن هذه الاشارة المدوية كانت حجة ظاهرية ، فان مضمونها كان اكبر بكثير من مظهرها . فقد كان البابا يطمع في أن تقوم الكنيسة الشرقية بالترضية المناسبة للبابا اذا ما قام بقيادة جيش ينقذ عاصمتها من الخطر الاسلامي ، وتعود علاقة كنيسة القسطنطينية بالبابوية الى ما كانت عليه قبل أن تقطع كل منهما الأخرى سنة ١٠٥٤ . وبدا وكأن التئام الشمل بعد الشقاق الديني الكبير قد بات وشيكا ، لا سيما وأن الاختلافات العقائدية بين الشرق والغرب لم تكن كبيرة . بيد أن هذه الخطة قد ذهبت ادراج رياح العاصفة التي صحبت المواجهة بين البابوية والامبراطورية .

ومع ذلك وصلت فرقة من فرسان الغرب المدرعين الى القسطنطينية . وفي سنة ١٠٩٤ أرسل الامبراطور البيزنطي اليكسيوس الأول كومنينوس Alexius I Comnenus سفارة مثلت أمام البابا في بياكنزا (في ايطاليا) Piacenza عشية رحيله الى كليرمونت وأثناء رحلة البابا الى كليرمونت عبر جنوب فرنسا ، وهي المنطقة التي خبرت الحرب ضد الاسلام في شبه جزيرة ايبيريا ، نضجت فكرة انقاذ الشرق المسيحي ولكنها تأخرت في تطورها . ومن فكرة انقاذ الشرق المسيحي ، الذي لم يكن يتهدده خطر حقيقى آنذاك ، نبتت فكرة تحرير القبر المقدس من نير الاسلام . وتضمنت الخطة الجديدة عناصر قديمة ، واذ تحدد هذا الهدف تحول النداء البابوي الى دعوة لشن حرب صليبية . لقد حلت القدس محل القسطنطينية ولكن العدو ظل كما هو : الأتراك الذين كانوا يحكمون آسيا الصغرى ويهددون القسطنطينية فضلا عن سيادتهم على المدينة المقدسة .

كان التحول الى القدس يعنى ما هو اكثر من مجرد تغيير المقصد

الجغرافى للحملة الصليبية بل انه غير شكل هذه الحملة من مجرد فرقة من الفرسان المدرعين ترسل الى الشرق الى حملة جماهيرية صارت هي المحور الرئيسى الذى يدور حوله تاريخ اوربا والشرق الأدنى على مدى قرنين من الزمان . ولم يكن اسم القسطنطينية ، وانما اسماء بيت المقدس ، والناصره ، وبيت لحم هي التى خلقت حيننا مسيحانيا تفجر فى شكل حماسة دينية . ولم تكن أهداف البابوية الرئيسية - أى العلاقات مع الامبراطورية الرومانية المقدسة ، والامبراطورية البيزنطية والكنيسة الشرقية المنشقة - تعنى شيئاً بالنسبة للأفكار والعواطف التى كانت تجيش فى رؤوس الفرسان والفلاحين وفى صدورهم حين انضموا الى الحملة الصليبية . لقد كانت استجابة اوربا الغربية حماسية قوية للأفكار والشعارات التى طرحت فى ذلك الحين ، مثل تحرير القدس ، وتخليص قبر المخلص الذى تخيل البعض انه رهين الأسر الاسلامى . وقدم البابا وعده بالغفران لكل من يشارك فى الحملة الصليبية ، وهكذا لحقت مفاهيم الحج والتوبة بمشروع جديد : حملة صليبية ذات هدف دينى . وكانت التوبة وأخطار الطريق هي الكفارة التى تفرضها الكنيسة على الآثم التائب . وقد اعتبر أوربان الثانى أن الحملة الصليبية تتساوى مع الحج فى طلب الغفران والتكفير عن الذنوب . وهكذا صار الاشتراك فى الحملة الصليبية بمثابة رحلة حج تكفيرية واستشهادية فى آن واحد . وقد صار مقصدها هو بيت المقدس ، وهدفها الصلاة عند مقبرة المخلص المحررة . ولم يكن أحد يتنبأ بنتاج الدعوة الصادرة من كليرمونت بما فى ذلك أوربان الثانى نفسه . ومن ثم فقد بات من المتوقع والمتصور أن يتم تنظيم حملة من الفرسان المدربين جيداً . ولكن ما حدث بالفعل فاق أقصى ما كان يمكن لانسان أن يتصوره . فعلى مدى عامين بدا وكأن اوربا بأسرها تتحرك فى خروج ثان عظيم الى الأرض المقدسة . وليس بوسع المرء أن يحدد دافعا واحدا فى أمر يخص مئات الآلاف من البشر ، ومع ذلك فانه لا يمكن أن يتطرق الشك الى أن الدافع الدينى كان هو الدافع الرئيسى وراء الحركة

الصليبية (١) ، فقد انضم الفرسان والأمراء الى الحركة وفاء بالتزاماتهم في حكومة العالم المسيحي ، كما بحث سكان المدن والفلاحون عن خلاصهم في هذه الحركة . ومع ذلك لم يكن أحد منهم بغافل عن سحر الشرق وأعاجيبه ، وهو ما يعنى أن القدس السماوية قد اختلطت بالأرضية ، كما امتزجت المطامح الروحية والمادية للناس . فبعد صدور النداء بشهور قليلة وصل المد الى كل ركن في العالم المسيحي . وكانت القلة المشاركة في مجمع كليرمونت هم أول من نقل الخبر . وفي وقت وجيز صار التنظيم الكنسي - الذى كان أعظم هيئات عصره من حيث الكفاءة والدقة - هو الوسيلة الدعائية للهدف الجديد . فقد انتشرت دعوة كليرمونت من خلال الكنيسة والدير لتصل الى كل قلعة وقرية ، فأثارت الخيال وباتت موضوعا للحديث وخلقت مناخا للرأى العام تحول فيما بعد الى عامل رئيسى في تاريخ الحركة الصليبية . وأخذ النقاش يدور بين أرياب القلاع وأقصادهم واتباعهم . وبدأ الأمراء يفتشون عن وسائل تمويل الحملة . ومن قم المجتمع هذه تسربت الأنباء الى مساكن الفلاحين المتواضعة ، والى المساكن المزدهمة فى المدن النامية . لقد داعبت خيال التابع الاقطاعى الشاب والعازب أحلام عن أعاجيب الشرق والثراء والقصور وجمال الحريم . وتطلع أبناء الأسر النبيلة من الشباب ، الذين يمثلون الدماء الجديدة الى الشرق باعتباره الأرض الموعودة التى يلتقون على ترابها مع اقدارهم . ومع ذلك كانت نزوة المغامرة ، والامل فى المكافاة المادية

(١) الحقيقة أننا لا نستطيع أن نوافق المؤلف على رأيه هذا . حقيقة أنه يبدو للوهلة الأولى أن الدافع الدينى كان هو العامل الأساسى ولكن البحث المتأنى فى احوال الغرب الأوربى آنذاك يكشف عن الخلفية الحقيقية للحركة الصليبية والتى كانت مزيجاً من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية ، والدوافع الشخصية . وفى تصورنا أنه يكون من الأوفق أن نقول أن هذه العوامل والدوافع قد عبرت عن نفسها تحت رداء الدين الذى تسربل به ذلك العصر - انظر مقدمتنا لهذه الترجمة .

(المترجمان)

تحتل مكانة ثانوية لدى النبلاء والأشراف ، فقد كان رجال العصور الوسطى رجالا متدينين أساسا ، وكثيرا ما كانوا من السذاجة بحيث يعتقدون فى الخرافات . وكانت الرواية المقدسة تشكل جزءا لا يتجزأ من تربيتهم بصرف النظر عن معرفتهم الخاصة بعقائد الدين . ولم يكن العشاء الربانى والاعتراف والقديسون ومآثرهم والأعياد الكبيرة المبهجة فى التقويم المسيحى مجرد طقوس دينية ، وانما كانت جزءا من أسلوب حياتهم . ولم تكن الاستجابة لنداء تحرير قبر المخلص - الذى دعمته القصص المتداولة ، والتى لا أساس لها من الصحة ، عن تدنيس الأماكن المقدسة - تعتبر فقط واجبا على المسيحى النبيل ، بل كانت أيضا جزءا من التزاماته الفروسية وواجب التابع الاقطاعى فى الدفاع عن سيده وتحريره من أسيرة الفظيع فى نير الكافر الدنس . وهكذا أمتزجت القوى التى تشكل أساس ذلك العصر الدينى ، بالأفكار النامية للفروسية ، وهو ما أدى الى استجابة نبلاء الغرب لقوسلات البابا من أجل شن حملة صليبية .

لقد كانت استجابة نبلاء الغرب متوقعة الى حد ما ، ولكن أحدا لم يكن ليتنبأ برد فعل الجماهير . فقد اجتمع مؤتمر كليرمونت فى نهاية نوفمبر ، وحين كان الفلاحون يستعدون لفصل الشتاء . ومع ربيع سنة ١٠٩٦ كان الريف فى حال من الهيجان فلم يحصد الفلاحون محصولهم لكى يعولهم فى العام التالى ، ولكنهم جمعوا محاصيلهم من أجل الرحلة الى الشرق . وبعد شهور قلائل حملت أسر الفلاحين التى تفوق الحصر فى آلاف الضياع ممتلكاتها الحقيمة ، ومعها النساء والأطفال ، على عربات ثقيلة تجرها الثيران أو الخيول وشقوا طريقهم صوب الشرق . وربما كانت القصة القائلة بأن الآلاف استجابوا لنداء أوربان الثانى بقولهم « انها ارادة الرب » قصة غير حقيقية ، ولكن الأمر بالنسبة لفلاحى أوربا كان أشبه بأمر الهى مباشر ، ورأوا فيه المعجزة الأولى فى سلسلة الأحداث الدالة على قدوم المسيح الثانى . ولم يكن فى استطاعة كتاب

الحواليات الكنسية العارفين بالشعب أن ينسبوا هذه الحال الدينية المفاجئة الى شيء سوى معجزة ، والا فما الذى حرك الجماهير المادية البليدة الجاهلة ؟

وليس ثمة شك فى أن كثيرا من الفلاحين الذين حملوا عائلاتهم على عربات قد فكروا فى تحرير أنفسهم من رق الأرض والعبودية الى جانب تحرير قبر المخلص ، فقد كان من المقبول ضمنا أن صاحب الضيعة الاقطاعية لا يستطيع أن يمنع اقنانه من ترك الأرض ، اذ بات من المقرر كقاعدة ثابتة أن جيش التحرير سيكون نفرا من الرجال الأحرار . ولم تكن كلمة فرنجة *Franci* تعنى الفرنسيين فقط ، أو الأوربيين عامة فيما بعد ، ولكنها كانت تدل أيضا على الرجال الأحرار . وفى الأرض سوف يبقى المحاربون أحرارا بعد أن يفتحوا البلاد ، وسوف يمتلك المهاجر مزرعة خاصة وربما يمتلك اقطاعية كاملة يعمل فيها الفلاحون المسلمون عبيدا له . ومع ذلك ، وعلى الرغم من أنه كان لكل فرد أمله الصغير وأطماعه الانسانية ، فانه كان يهتم أيضا بخلاصه وبحياته فى الخلود ، ولذا كانت الحركة الى الشرق تجاه المذبح والشمس المشرقة التى هى الرموز الخالدة للأمل والخلاص .

وهكذا دخلت أوربا مع مطلع القرن الحادى عشر مرحلة احياء وبقظة دينية . وقد اثار الألف الأخير المتوقع مع بداية الألف الثانية وبعد اربعة وثلاثين عاما (١٠٣٤) ، أى بعد ألف سنة من صلب المسيح ، موجة من التوبة فى وسط أوربا وغربها . وتعمق الشعور بالخطيئة والاحساس بالذنب . وقد أضفت الحركة الاصلاحية التى تزعمها بيركلونى والأديرة التابعة له ، والتى شملت الكنيسة نفسها ، بعدا جديدا على المناخ الدينى السائد ، فالحركات التى تستلهم الدين صارت واقعا محسوسا فى حياة الغرب السياسية مثل حركة « سلام الرب » ، « وهدنة الرب » التى كانت تمنع اراقة الدماء ، وتحصر القتال فى نطاق أيام معدودة من

الأسبوع تحت تهديد التحريم والمقاومة الجماعية . وقد دعمت معاناة جماهير العامة حركة السلام ضد البارونات التواقين للنهب والمغامرة . وفى الوقت نفسه أدت التجربة الأليمة مع بداية القرن الى أن يبحث الناس عن وسائل يتحرون فيها من عبء الخطيئة، ومن هنا كثرت زيارات الأماكن المقدسة ، كما اكتسبت حياة الرهبنة جانبية كبرى . وتم احياء الرهبنة مع بداية القرن الحادى عشر حين ظهرت أعداد كبيرة من نظم الرهبنة فى ايطاليا وانتشرت عبر جبال الألب . وكان أكثر هذه الظواهر وضوحا هى الحركات الباكورة التى أخذت تدعو الى العودة لحياة الفقر التى عاشها المجتمع المسيحى الباكر . وكانت هذه الحركات تشكل خطرا على نظم الحكم التى كانت قائمة آنذاك ، وأدانتها الكنيسة باعتبارها حركات هرطقية منشقة . الا أنه الادانة لم تشمل الجميع ، فقد كان الوعاظ الجوالون ينادون هنا وهناك بالحياة الرسولية ، أى بالعودة الى احتذاء خطى الرسل . وحظى الفقر الذى عاشه الحواريون بالمديح ، بل واعتبر من الفضيلة ، كما كان تقليد حياة الحواريين فى أسلوب حياتهم البسيط بمثابة تكفير عن الماضى وحماية للمستقبل .

وسرعان ما تحولت الدعوة الى حركة صليبية (والتى أدت اليها أسباب عديدة) ، أى الى فعل تكفيرى جماعى ، وكفارة عن رغبات وويلات ذلك الجيل . وتكشف الطريق الى الشرق بفعل عوامل كثيرة منها : التحرر من ريقة الشعور القاهر بالاثم والخوف من عقاب الجحيم فى الآخرة ، وفرصة القتال برفقة الاخوة وموافقتهم ومباركة الكنيسة ، وفرصة الوفاء بالتزامات الفرد كمسيحى وكفارس ، فضلا عن الوصول الى مدينة القدس الأرضية التى كانت تبدو وكأنها تنادى أبناءها الحقيقيين ليخلصوها من الكفرة انتصار دنيوى مصحوب بوعد بالثواب السماوى .

وماذا بعد الغزو ؟ من الغريب أن أحدا لم يطرح هذا السؤال . وإذا كانت هناك أفكار واضحة لدى أوريان الثانى أو ادھمار اسقف لى بوى

Le Puy الذى عينه قائدا للحملة الصليبية ، فهذه الأفكار لم يعلن عنها شيء حتى وصلت الجيوش الصليبية الى آسيا الصغرى .
 أما بالنسبة للجماهير الفقيرة من الفلاحين وسكان المدن ورجال الدين والرهبان والفرسان ، فان هدفهم اقتصر على مجرد الوصول الى بيت المقدس . ولم تكن مجرد صدفة ان العامة المشتركين فى الحملة الصليبية اظهروا علامات الثقة فى النفس ، وربما الكبرياء . فلو ان يوم الحساب قريب ، ألن يكون الفقراء هم أول من يدخل القدس السماوية حسب تعاليم الكتاب المقدس ؟ ومن ثم صار الفقراء طبقة متميزة ، وقد ارتبطوا ببعضهم فى شركة غريبة تضم الذين لا يملكون ، وهم جماعة أحسوا على الفور انهم جماعة مختارة للخلاص .

وهكذا تحركت فى ربيع سنة ١٠٩٦ - أى بعد نصف عام فقط من خطبة كليرمونت صانعة التاريخ طلائع الفلاحين التى سبقت حملة الفرسان الصليبية الكبرى . فانضمت أسر الفلاحين الى بعضها البعض ، وتزايدت اعداد الجماعات المتجهة صوب حوض الراين بحيث صارت فرقا وجيوشا . واختار البعض لأنفسهم قادة من بين نظرائهم ، على حين انضوى البعض الآخر تحت لواء أحد الفرسان أو أحد أبناء العائلات النبيلة ، وتحرك البعض دونما قيادة . وقد حدث ان سارت بعض المجموعات وراء أوزة أو ماعز ، شك فى أن الحركة المقدسة تلهمها قوى غيبية . أما الذين ساورتهم الشكوك حول ذلك ، فقد تعين عليهم أن يسمعوا الحكايات التى كانت تروى عن الأصوات والرؤى التى تجلت للمختارين والمتنبئين الذين عاشوا لحظات مجدهم فى تلك الفترة .

وسرعان ما تعرضت مسيرة الكنيسة المقاتلة التى تصاحبها التراتيل المقدسة ، والتى بدأت كتعبير عن شعور دينى ، الى الاحداث التى شوهت صورتها . إذ ارتكبت واحدة من أكبر الفظائع فى التاريخ : تلك المذابح الدموية التى أجهزت تماما على الجماعات اليهودية فى حوض الراين ، وهى جماعات يعود تاريخ بعضها الى عصر الامبراطورية الرومانية ، أى

قبل أن تطلأ قدم أى جرمانى همجى هذه الأرض الكلتية • وكان البعض الآخر أحدث فى الوجود على حين كانت بعض هذه الجماعات اليهودية قد قامت بناء على طلب ودعوة الاساقفة المحليين الذين أرادوا تعمير المدن الناشئة وتحويلها الى مراكز للتجارة والدخل • وفى اطار هذه الجماعات ازدهرت مدرسة حكماء فرنسا واللورين التى أنجزت أول المؤلفات الكبيرة فى تفسير الكتاب المقدس والتلمود فى شمال أوربا فى القرن الحادى عشر • ثم حدثت الكارثة التى توازى الهولوكست فى عصرنا الحالى • ذلك أن جماهير الصليبيين العامة ، التى انتابتها حالة مجنونة من الحماسة المسيحانية ، أخذت تخير اليهود بين الردة أو الموت • واختارت الجماعات اليهودية الاستشهاد • ولا يمكن قراءة تفاصيل المذابح دون أن يشعر المرء بأشمئزاز ، حتى بالنسبة لذلك العصر الذى اتسم بالنظافة • وقد عبرت كراهية اليهود الدفينة فى كل البلاد المسيحية عن نفسها فى المذابح التى أصبحت ظاهرة ترتبط ارتباطا عضويا بكل حملة صليبية على طول مائتى سنة هى عمر الحركة الصليبية • وقد تلاشت مجتمعات يهودية بأسرها ، كما لقى آلاف اليهود حتفهم لأنهم رفضوا التعميد المسيحى • وبعد جيلين ، أى خلال الحملة الصليبية الثانية ظهر طقس جديد مثير للرعب والرهبة هو طقس الاستشهاد • فبدلا من قبول التعميد الاجبارى كان الرجال يقطعون رقاب زوجاتهم وأطفالهم وهم يتلون الصلوات الخاصة بذبح الحيوانات ، ثم ينتحرون وقد وجد الصليبيون الذين تغلغلوا الى مخابىء اليهود الساحات الصامئة التى اكتظت بجثث أولئك الذين استشهدوا على ايمانهم • وخلال شهور قليلة اختفت من الوجود مجتمعات يهودية مزدهرة ، كما دمرت مراكز التعليم والثقافة فى سباير وورس وكولونيا ، وبرلين • فضلا عن تعرض أحوال هذه الجماعات الاجتماعية للخطر ، ودخل اليهود فى قرون الظلمة والاضطهاد الطويلة التى أستمزت فى بعض المناطق حتى بداية القرن العشرين •

وقد حاول بعض الاساقفة ، فى أماكن متفرقة ، انقاذ اليهود ، فقد

كانت سياسة الكنيسة الرسمية تحرم التعميد الجبرى وارتكاب المذابح ضد اليهود الذين كان من الضرورى الاحتفاظ بهم كدليل وشهادة على الايمان المسيحى ، وكانت حجة الكنيسة انه يجب ان يستمر احتقار اليهود واذلالهم كدليل قائم على انتصار الكنيسة المظفرة . بيد ان تدخل الاساقفة لم يكن ذا تأثير يذكر ، اذ كانت الجماهير الثائرة تجد مخابىء اليهود (التى كانت حصونا فى اغلب الأحوال) وتعصف بها وتقتل اليهود . وقد اعلن انه يجب تطهير البيت من الداخل قبل قتال الكفار بالخارج . وهكذا اضيفت أسماء قادة من أمثال فولكمار Volkmar ، وجوتشوك Gottschalk واميوخو Emicho الى قائمة العار الطويلة فى تاريخ امة الشهداء ، لأن هذه الأسماء ليس لها ذكر فى تاريخ الغرب (٤) .

واتجهت الجماهير التى عبرت الراين جنوبا صوب نهر الدانوب ، ثم واصلت سيرها نحو الشرق . واذ كانت هذه الجماهير تفتقر الى

(٤) لا شك أن المذابح التى تعرض لها يهود أوربا أثناء الحركة الصليبية دليل على مدى وحشية مرتكبيها ، ولكن يبدو أن المؤلف يتجاهل حقيقة أن اليهود يتحملون جزءا من مسئولية ما حدث لهم . فقد كانت الجماعات اليهودية تسيطر على شئون المال والتجارة فى أوربا العصور الوسطى . وكان طبيعيا أن يلجأ اليهم كثيرون من أجل الحصول على القروض . وفى أثناء فترة الاستعداد للحروب الصليبية لجأ فرسان الغرب الى المرابين اليهود للحصول على الأموال اللازمة . وكان للديون الثقيلة التى كبلوهم بها أثرا فى انكاء نار العداوة الكامنة فى نفوس المسيحيين ضد اليهود . ومن ناحية أخرى ، اتخذ يهود أوربا موقفا معاديا من الحركة الصليبية منذ البداية مما زاد من مشاعر السخط والكراهية ضدهم

انظر : Runciman, A hist of the Crusades, Harper Torchbook
New York 1964, vol. I, pp. 134 - 141.

وكذلك : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧١ ، ج ١ ، ص ١٤١ - ص ١٤٤ . (المترجم)

التنظيم وتسيطر عليها مشاعر الثورة ، ولأنها كانت نهبا لمشاعر الخوف والشكوك ، فإن المؤن التي كان الأفراد والجماعات يحملونها سرعان ما نفدت ، وبدأت أعمال النهب . ففي فرنسا وألمانيا وبوهيميا أيضا كان السكان المحليون يمدون جماهير الحملة الشعبية بالمؤن والأغذية . ولكن الجماعات في مسيرها عبر أراضي المجر والبلقان بدأت تسلك سلوك الجيوش الغازية التي تخترق أرض الأعداء . ونظم أهل المجر المقاومة المسلحة ، وخاضوا المعارك ضد الجماعات الصليبية التي تحولت إلى السلب والنهب . وساء الموقف عندما دخلت هذه الجحافل الفوضوية أراضي البلقان الخاضعة للإمبراطورية البيزنطية . وكان للغة المجهولة والكنيسة المختلفة والعادات الغربية أثرها في تحويل لقاء الشرق والغرب إلى موقعة عسكرية . ولقمع هذه العصابات أرسل البيزنطيون القوات التي غالبا ما كانت من الأتراك العاملين في خدمة بيزنطة لمنع النهب ، وكثيرا ما كانوا يمدون الجموع الصليبية بالمؤن والأغذية ليتجنبوا السلب والنهب . بيد أن الطريق إلى القسطنطينية بات مرصعا بالقرى المحترقة والمدن المسلووبة واکوام الجثث . لقد عانت بيزنطة من تطرف الجموع القادمة من الغرب المسيحي ، وهي الجموع التي كان من المفروض أنها قدمت لنجدها .

وتضافر الجوع والمرض مع المقاومة المحلية للقضاء على أعداد كبيرة من الجموع الصليبية الشعبية . ولم تصل إلى القسطنطينية من هذه الجموع الفقيرة التي تحركت من أوربا سوى شرانم هزيلة . وكانت مجموعة منها تحت قيادة بطرس الناسك أو بطرس الأمياني تكفي Peter of Amiens الذي جعلت منه الأساطير المتأخرة بطلا صليبيا كبيرا . وعلى الرغم من تأثيره الفائق على جماهير الصليبيين العنيدة ، فإنه لم يستطع أن يقيهم في العاصمة فان اليكسيوس الأول (١٠٤١ - ١٠٤٥) عالم الصليبيين

كومنينوس وأتباعه لم يتحملوهم ، فنقلهم الامبراطور بسرعة عبر البسفور حيث واجهوا المسلمين فى نهاية المطاف . ولأنهم غير منظمين وينقصهم الاستعداد ، فقد بدد الأتراك شملهم ومزقوهم شر ممزق حول نيقية القديمة وألحقوا بهم الخسائر الفادحة . ولم يتقدم سوى تدخل الامبراطور الذى انقذ بقاياهم وأعادهم سالمين الى العاصمة . ومع خريف سنة ١٠٩٦ كانت حملة الفلاحين الصليبية قد لاقت نهايتها المحقومة .

وبينما كانت الحملة الصليبية الشعبية تتخبط فى معرات البلقان لتنتهى نهاية مزرية خارج أسوار القسطنطينية ، كانت حملة الفرسان الصليبية الكبيرة تحشد قواتها المضاربة . وبدأت جيوش أوروبا الغربية المنظمة جيدا والمدرية تماما تتحرك فى منتصف صيف سنة ١٠٩٦ . وانضم حكام انجلترا الفرنسيون الى أخوتهم وأقاربهم عبر القتال الانجليزى فى فرنسا ، على حين لحق فرسان اقليم الفلاندرز بالجيوش القادمة من شمال ووسط فرنسا . واستعد فرسان شمال ايطاليا للانضمام للحملة الصليبية . أما فى جنوب شبه الجزيرة الايطالية فقد كان النورمان مايزالون مشتبكين فى صراع ضد المسلمين والبيزنطيين ليقيموا لأنفسهم امارة على جانبى مضيق مسينا . وقد ربطوا مصيرهم بالصليبيين . الا ان اسبانيا المشغولة بقتال مسلمى الأندلس ، والمانيا التى استغرقها النزاع على التقليد العلمانى (بين البابا والامبراطور الالماني) لم تستجيبا لنداء البابا . وقد تحرك الاسكندنافيون بعد فترة وجيزة واشتركت جماعات صغيرة من السلاف فى بوهيميا وبولندا والمجر فى الحملات الصليبية التالية .

وهكذا تم تكوين اربعة جيوش كبيرة اعتمد تنظيمها على التقسيمات الجغرافية والولاء المحلى والجنسى واللغوى للمشاركين فيها . فقاد روبرت دوق نورماندى جيوش شمال وغرب فرنسا التى انضم اليها اتباع اخيه هنرى الأول ملك انجلترا ، وقاد جودفرى البولونى جيش الفلاندرز واللورين

وشمال غرب فرنسا ، على حين قاد هوف الفيرموندوى ، أخو ملك فرنسا فيليب الأول فرسان وسط فرنسا ، موطن آل كابيه ، وتولى ريموند دى سان جيل كونت تولوز وماركيز البروفنسال قيادة جيوش جنوب فرنسا والبروفنسال ولانجدوك . وأخيرا تولى بوهيموند الأورقتى وابن أخيه الشهير تنكرد قيادة النورمان الايطاليين .

وتم تعيين أدهمار دى مونتيل Adhemar de Monteuid اسقف لو بى Le Puy كممثل أو مندوب بابوى . وباعتباره صاحب أعلى درجة كهنوتية ، فقد صار هو الوسيط والمنظم بين قادة الجيوش الصليبية . وقد لحق بالجيوش الكبيرة التى تكونت أساسا من الفلاحين الذين كانت حركاتهم تتم عادة تحت قيادة رؤسائهم المحليين التقليديين (أى ساداتهم من النبلاء) . وحدثت بعض التجاوزات هنا وهناك ، ولكن تحرك الجيوش بشكل عام تم على درجة مقبولة نسبيا من النظام . وسارت الفيالق الفرنسية على الطريق البرى صوب الشرق عبر أراضى وحوض الدانوب ، على حين عبرت قوات النورمان الايطاليين وبعض القوات الفرنسية البحر الأدرياتي وتحركت خلال طريق فيا اجناتيا Via Egnatia الرومانى القديم والذي يمر عبر البلقان .

كانت القسطنطينية هى نقطة التجمع حيث التقت الجيوش الصليبية معا فى ربيع سنة ١٠٩٧ . وكان هذا هو لقاءهم الأول مع الشرق :
فها هو الامبراطورية المسيحية الشرقية على البوسفور ، ولم يكن بمقدور احد منهم أن يصل بخياله الى تصور منظر العاصمة العظيمة . ونظرا لأن الصليبيين قدموا من أوروبا الخالية من المدن ، حيث كان عدد التجمعات السكانية الكبرى يتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف نسمة ، فقد اندمش الصليبيون لجمال القسطنطينية بأسوارها التى تبلغ الميل طولا ، وقبابها الذهبية التى تسمو وسط السحب ، فضلا عن قصورها وكنائسها وأسواقها

ومينائها المزدهر الى جانب الآثار التي تحكى قصة مجدها الكلاسيكى .
على ان اكثر ما اثار دهشتهم هى جماهير السكان الغفيرة . فقد كانت
القسطنطينية بوابة الشرق ومدخلا عظيما الى هذا الشرق الساحر
الغامض . وكانت تلك ايضا هى لحظة الصدام الأول مع دعاوى بيزنطة .

وقد اخذ الامبراطور اليكسيوس الأول كومنينوس بوصول منقذيه .
لقد كان حاكما قويا وحاول قدر جهده أن يمنع هزيمة الجيش البيزنطى
على يد الأتراك السلاجقة فى منزىكرت منذ جيل مضى (١٠٧٠) .
ولكن منقذيه لم يكونوا من فرق الفرسان فقط كما كان يتوقع ، وانما كانوا
شراذم الفلاحين الصليبيين المشاغبين . وهو ما جعله يتوقع ما هو أسوأ .
وهكذا كان على اليكسيوس أن يواجه احتمال رؤية امبراطوريته تترشح
تحت وطأة الجيوش الأوربية القوية الضخمة . ومن ثم حاول الامبراطور
التوصل الى نوع من الاتفاق مع القادة الصليبيين ، فقد كان من المستحيل
أن يعاملهم كمرتزقة يدفع لهم الرواتب لقاء عملهم فى خدمته . كما كان
من الصعب أن يعتبرهم حلفاء . ومن حسن الطالع أن الجيوش الصليبية
لم تصل معا فى وقت واحد ، مما أتاح للامبراطور فرصة التعامل مع
القادة . كل على حدة . فضلا عن أن ريموند السانجيلى وبوهيموند
الأترانتى (وهو حليف جبار كان قد غزا الأملاك البيزنطية فى البلقان
منذ مسغوات قليلة) كانا يتطلعسان الى نوع من التفويض الامبراطورى
لتدعيم موقف كل منهما بين القادة المسلمين . وقد نجح الامبراطور فى
أن يفتزع من كليهما وعدا بالحفاظ على حقوق امبراطوريته فى غزواتهما
القائمية التى يتم فى المقاطعات البيزنطية المشاةقة مستخدما الميسل
والتهديدات والرشوة للوصول الى هدفه . وفى النهاية قطع معظم القادة
الصليبيين على انفسهم عهدا امام الامبراطور ، مقابل امدادهم بالادلاء
والأموال والمقنن . ولم يلبث الامبراطور انقلهم على وجه السرعة عبر المضائق
الى الأراضي الصربية

وهناك ، خارج القسطنطينية بعدة أميال الفى الصليبيون انفسهم فى ارض العدو للمرة الأولى . ذلك أنه بعد انتصار الأتراك السلجقة فى مانزكرت أصبحت آسيا الصغرى بأسرها فى قبضتهم . الا أن السيادة التركية الجديدة على هذه المناطق لم تغير التركيب السكانى الذى ظل بيزنطيا فى غالبية ، على حين ظلت الحامية السلجوقية فى الحصون وقلاع المدن فقط . وإذا كان ثمة شعار للتحرير قد طرح من قبل ، فإن الطريق الى تحقيقه على يد الصليبيين كان يبدأ من هذه المنطقة .

وفى البداية بدا وكأن الأمور سوف تسير على هوى الجيوش الصليبية . فقد تم حصار مدينة نيقية وتسليمها الى بيزنطة وفقا لما طلبه أهلها . ثم تحركت الجيوش الصليبية تجاه الجنوب ، وأحرزت انتصارا فى معركة خوروليوم الخالدة سنة ١٠٩٧ . وتوقفت كل المقاومة المنظمة عبر آسيا الصغرى . ومع ذلك كانت الجيوش تتعرضت للهجمات الخاطفة من جانب الأتراك بشكل متواصل ، إذ كانت وحدات الفرسان رماة السهام تظهر فجأة وكأنما انشقت عنهم الأرض ، ويمطرون الصليبيين بوابل من سهامهم ، ثم يختفون فجأة كما ظهروا . وكما كانت هذه الهجمات المفاجئة مؤلمة وموجعة بالنسبة للصليبيين ، ولكنها لم توقف تقدم الجيوش . أما المناخ ، فقد كان هو عدو الصليبيين الرئيسى ، فقد كانوا يعانون من حرارة الجو التى اشتهرت بها مناطق وسط آسيا . كما عانوا من نقص الطعام والماء عندما كانت تنفذ المؤن التى أمدتهم بها الامبراطور البيزنطى بصورة كريمة . ولكن الجيوش أخذت تناضل وهى تشق طريقها باتجاه قلب آسيا الصغرى ، ثم واصلت السير صوب الجنوب حتى معمرات جبال طوروس الضخمة . واحتل الصليبيون ، فى طريقهم ، قونية عاصمة الأتراك فى آسيا الصغرى .

وبعد وصول الصليبيين الى جبال طوروس قابلهم المسيحيون فى

المنطقة التي عرفت باسم أرمينيا الصغرى التي هاجر سكانها اليها من أرمينيا الكبرى حول بحيرة فان Van ، وخلقوا كيانا سياسيا جديدا في هذه المنطقة . وهناك تلقى الصليبيون النداء الأول من السكان المسيحيين لمساعدتهم . فقد خلقت تقلبات الحرب والغزو منطقة من المقاطعات الصغيرة تبدأ من البحر في الغرب حتى أعالي النهرين في الشرق . وكان غالبية سكان هذه المنطقة من المسيحيين الأرمن ، وكان بعضهم يخضع لحكم القادة البيزنطيين ، على حين كان البعض الآخر يدين بالطاعة للبيزنطيين الخائنين ، أو الأرمن الذين أعلنوا ولاءهم أو طاعتهم أو كليهما للزعماء الأتراك ، أو لحكام مقاطعاتهم . ومن هذه الجماعات المسيحية في الرها وما حولها جاء النداء بطلب مساعدة الصليبيين وتحرك لنجدتهم بلدوين شقيق جودفري . وقد رحب به حاكم الرها وتبناه ، ولكن بلدوين دبر تمردا ضد الشخص الذي أحسن اليه ، ثم استولى على المدينة ، وأقام أول مقاطعة صليبية في الشرق ، وهي إمارة الرها . وهكذا أقيم شعار بيت دوق اللورين بين نهري دجلة والفرات ، وبذلك أسست أوريا أولى مستعمراتها فيما وراء البحار .

وفي الوقت نفسه عبر الجيش الصليبي ممرات جبال طوروس ودخل شمال سوريا . وكانت مراكز الحكم الاسلامي في انطاكية ودمشق . فمئذ ان قام الأتراك السلاجقة بغزو انطاكية سنة ١٠٨٥ انقسمت سوريا الى امارات صغيرة كانت تدين بالتبعية الاسمية للخلافة العباسية في بغداد ، ومسلطة السلطان السلجوقي القابع بعيدا في فارس . وفي الحقيقة ان القتال والتحارب كان هو النغمة السائدة في العلاقات بين الأمراء .

وفرض الصليبيون أول حصار طويل منظم تمارسه الحملة الصليبية الأولى في ١٠٩٧ - ١٠٩٨ . وعلى الرغم من بسالة الدفاع عن المدينة ، فإنها سقطت بسبب خيانة الأرمن . وكان سقوط انطاكية بمثابة طوق

النجاة الذى أنقذ الصليبيين ، اذ كان هناك جيش سلجوقى ضخم قد تحرك من الموصل لنجدة المدينة ، وكان على بعد سيرة أيام منها . فلو ان المدينة لم تكن قد سقطت بعد ، لشهدت جبال المنطقة نهاية الجيوش الصليبية المرهقة الجائعة ، وتلقفتها سيوف سكان المدينة المسلمة وقوات الانقاذ .

وحين فشل قريوغا فى انقاذ انطاكية استقر الجيش لحصار المدينة التى اكتظت بالجثث وعضها الجوع بعد ان تحصن الصليبيون بها . وبدأ انهم فى حاجة الى معجزة تفتح امامهم سبيل النجاة ، وقد حدثت المعجزة . فقد خرج أحد رجال الدين البروفنساليين المغمورين بحكاية عن رؤيا مقدسة ، وأعلن أن الحرية التى كانت قد اخترقت جسد المسيح منذ احد عشر قرنا مخبوءة فى انطاكية . وتم العثور على الحرية بسهولة لأن الرؤيا حددت موقعها بالضبط . وقد أدت هذه الآية السماوية الى رفع معنويات الجيش الذى عبر عن شجاعته واقدامه فى هجوم استمر يوما كاملا ضد قوات الحصار الاسلامية . وتفرق الجيش التركى المهزوم واختفى . ولم يكن هناك جيش اسلامى آخر يمكنه سد الطريق الى القدس ، وقد تكفل الطمع الانسانى بهذه المهمة .

فقد تسبب عناء الطريق الطويل والأمراض والحاجة ، ومتاعب فترة الحصار الثنائى لمدينة انطاكية ، فى الفساد الاخلاقى ، أو ما يمكن أن نصفه بالافلاس الايديولوجى للحركة الصليبية . فقد انطلق الطمع والجشع المكبوت من أغلال الايديولوجية والواقع المر الذى كان يخفف من حدته ، واختار لحظة انطلاقه حين توقفت الحرب ، وتجسد فى بؤرة شريرة من الدسائس والصراعات والمؤامرات التى امتدت خيوطها بين القادة الصليبيين . فقد تحدى ريموند السانجيلي ، بوهيموند النورمانى صانع النصر فى انطاكية وأدعى أن المدينة من حقه . ولكن قادة الجيوش الصليبية قرروا ترك انطاكية للنورمانى وتجاهل الاتفاق المعقود مع الامبراطور البيزنطى الذى

كان يطالب بالعاصمة لنفسه . وفى خضم هذا الصراع تفرق الجيش الصليبي، وأخذ القادة والرؤساء والنرسان ذور الرتب الأدنى يغيرون على المناطق الريفية المجاورة لاتطاكية ، كل منهم يحاول أن يحصل لنفسه على بعض الأملاك . ولما كانت المقاومة المحلية ضعيفة ، فان القرى والمدن والقلاع لم تلبث أن خضعت للصليبيين . ووجد الغربيون المساكن السورية مريحة والطعام لذيذا ، وبدا أن اقامتهم فى شمال سوريا سوف تدوم . ويغلب على المرء انطباع بأن انطاكية حلت محل القدس ، وأن نهر العاصي (الأورونط) حل محل الأردن . وعند هذه المرحلة تفجرت ثورة غير متوقعة وتحدث الزعماء . فقد طالب الفقراء الذين كانوا مايزالون يحملون شعلة الحركة ، بعودة الزعماء الى الالتزام ، وأعلن متحدثهم فى جراءة أن هدف الحملة الصليبية لم يكن الحصول على املاك للقادة ، وأن مقصدها لم يكن انطاكية وانما بيت المقدس . هذه الثورة قوبلت بالسخرية والدهشة فى بداية الأمر ، ولكن هذه الدهشة لم تلبث أن تحولت الى صدمة عندما هدد زعماء التمرد بحرق انطاكية ، وهدم اسوارها اذا لم يتحرك القادة الى القدس فى التو .

وفى هذه المرة كان رد الفعل مساويا للتهديد ، اذ اقسم القادة الصليبيون قسما جادا بالا ينسوا القدس . وبعد التكفير والتوبة تحرك الجيش الصليبي الى جنوب سوريا ولبنان ولم تبذل المراكز الاسلامية شرق نهر العاصي وحلب وحماة وحمص أى جهد لوقف تقدم الجيوش الصليبية . بل ان أمراء المدن سهلوا حركة الجيش وأمدوه بالمؤن حتى يتخلصوا من الغزاة . والحقيقة أن الصليبيين فى طريقهم الى القدس لم يتوقفوا لكى يستولوا على المدن والقلاع ، باستثناء مدينة طرابلس اللبنانية التى فرض عليها حصار فاشل وتركت تحت رقابة حامية صغيرة . وفى ربيع سنة ١٠٩٩ مر الجيش ببعض المدن المشهورة ذات الأسماء التى تذكر بالعالم القديم والعالم الهيلينستى ، وهى مدن بيروت ، وحيدا ،

وصور ثم وصل أخيرا الى فلسطين ، ثم سار الجيش بحذاء ساحل الجليل حتى وصل الى خليج عكا ، ودخل سهل شارون الخصيب المشهور في الكتاب المقدس ، وواصل السير الى قيصرية • وقبل الوصول الى ميناء يافا اتجه الى الداخل تجاه الرملة واللد المجاورة حيث استراح الجيش اياما قليلة ، وهناك رسم اول اسقف في الأرض المقدسة ، وهو اسقف سان جورج (اللد) كنوع من التقرب ببواكير الثمار الى اله الجيوش في أرضه الموعودة •

وكان على الصليبيين أن يكونوا أكثر امتنانا لما حققوه ، فقد هجر المسلمون الذين أخذتهم المفاجأة ميناء يافا والرملة دون قتال • وبعد احتلال القدس ضمن الصليبيون لأنفسهم ملجأ وملاذا في هاتين المدينتين الواقعتين في منتصف الطريق ، كما ضمنوا منفذا مباشرا الى البحر • فقد اعتمد مستقبل الصليبيين تماما على التعزيزات والامدادات التي قدمت اليهم من أوروبا عبر البحار •

وبعد ثلاثة أيام من الراحة ترك الجيش حامية في الرملة ، ثم اشتبك في القتال في منطقة جبال يهوذا • وفي ٧ يونيو ١٠٩٩ وصل الصليبيون الى قمة تل يشرف على القدس • وهو المدفن المتعارف عليه للنبي صموئيل • وأخيرا صافحت عيونهم المدينة المقدسة • وثم تعميد التل باسم « تل الفرع » • وركع أفراد الجيش في صلاة تأملية خاشعة وهم يشاهدون المدينة بقبابها ومآذنها ومنازلها ذات الاسقف المسطحة وأسواقها ذات الاسقف الدائرية • وكان من الصعب تمييز قبة كنيسة القيامة • وعلى خط الأفق خلف المدينة يقع جبل الزيتون والموضع الذي شهد صعود المسيح • كانت الحملة الصليبية تقترب من نهايتها ووصل وفد مسيحي من بيت لحم ليطلب الحماية للمسيحيين الذين بات وجودهم تحت تهديد مشاعر التعصب والرغبة في الانتقام التي تملك المسلمين • وحين أسدل الليل ستاره امتطى تنكرد صهوة جواده باتجاه المدينة ، وفي صباح اليوم التالي كان

هناك علم نورمانى يرفوف فوق كنيسة الميلاد قبل أن تطلا قدم اى غريبى
تراب مدينة القدس المباركة .

كان الفصل الأخير فى قصة الحملة الصليبية هو حصار القدس
الذى استمر طوال خمسة أسابيع (٧ يونيو ١٠٩٩ - يوليو ١٠٩٩) .
وكانت المدينة قد هيات نفسها لحصار طويل نظراً لأن الوديان العميقة
تحيط بها من كل جانب ، ماعدا الجانب الشمالى . وأقام الصليبيون
معسكراتهم حول الأسوار الشمالية والغربية والجنوبية للمدينة ، ولكنهم
قفلوا فى اغلاق المدينة من جهة الشرق (بين ساحة الهيكل وجبل
الزيتون) . وتصوروا أن الحصار سوف يكون عادياً ، ولكنهم سرعان
ما اكتشفوا أن قواتهم لن تتمكن من تنفيذ مهمتها بسهولة .

ولم يكن هناك ما يلائم هذا الفصل الأخير فى ملحمة الحملة الأولى
أكثر من اشاعة حدوث بعض الرؤى المقدسة ، واشتراك القديس جورج
فى المعارك . وهنا كان قادة الحملة الصليبية الذين كانوا ابطالا فى مئات
المعارك ، ورفاقهم من المقاتلين المحنكين ، يبحثون عن النصيحة والمشورة
لدى راهب عاش فى أحد كهوف جبل الزيتون عن كيفية الاستيلاء على
المدينة . فلم يكن هناك جدوى من الغارات الفاشلة على الأسوار ،
ومواكب المشاة المحيطة بها ، أو توقع سقوطها على نحو ما سقطت أسوار
أريحا . لقد انقضت الأسابيع الخمسة قبل أن تكون آلات الحصار جاهزة
للعمل ولشن هجوم شامل يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ .
ففى وقت الظهيرة ، ساعة الصليب فى التراث المسيحى ، نجح برج
المحصنة بقيادة جودفرى فى الاقتراب من الطرف الشرقى للمسور
الشمالى ، وثم مد جسر على شرفات الحصن ، ودخل الجيش المدينة من
الحى اليهودى . وفى الوقت نفسه دخل ريموند السانجيلى المدينة من
الركن الجنوبى الغربى (جبل صهيون) وتلقى شروط استسلام قائد القلعة
المصرى بينما تحرك تنكرد صوب صخرة القبة مباشرة .

وأعقب سقوط القدس مذبحة فظيعة راح ضحيتها المدافعون عن المدينة وسكانها من المسلمين واليهود . وأبيحت المدينة لأعمال السلب والنهب على مدى ثلاثة أيام متوالية . وفاض الدم فى الشوارع ، وظلت اكوام الجثث مصدر ازعاج فى الشوارع فترة طويلة . وفى هذا الجو الموحش الذى يلفه الصمت الرهيب وتغلغه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والأجساد العفنة اجتمع الصليبيون فى كنيسة القيامة ، وتردبت عبارة *Te Deum laudamus* أى « نحمدك يا الله » فى الكنيسة القديمة وهكذا انتهت الحملة الصليبية الأولى وتألفت المملكة الصليبية .

الصليب والهلال

كانت القدس مدينة مسيحية • وبعد أن ظلت خاضعة للسيادة الإسلامية طوال أربعة قرون حل الصليب محل الهلال • وتحولت المساجد والمعابد إلى كنائس وأزيل المحراب ، وأقيم المذبح باتجاه شروق الشمس • ومنع المسلمون واليهود من الإقامة في المدينة المقدسة • إذ أن الغزاة المنتصرين اعتبروا أن سكنى أولئك الذين رفضوا المسيح ، في المكان الذي شهد معاناته وصلبه ، تدنيس للمدينة المقدسة وانتهاك لحرمتها •

ومع غروب شمس القرن الحادى عشر قامت فى الأرض المقدسة عاصمة مسيحية كما أقيمت عدة مستعمرات فرنجية صغيرة فى الرها وبلاد النهرين وانطاكية وسوريا فضلا عن بعض مدن الشاطئ اللبناني • وكان من الضرورى أن يتم ربط هذه المراكز القليلة المتباعدة ببعضها البعض حتى يمكن بناء دولة محكمة البنيان تتميز بوحدة أراضيها • وكانت المهمة تبدو شاقة وعسيرة ورهيبة ، بيد اننا اذا ما رجعنا بذاكرتنا الى الماضى القريب ، ابان الحملة الصليبية الاولى ، والدروب الشاقة التى كان عليها أن تسير فيها صوب نصرها النهائى ، بدت هذه المهمة هينة وسهلة • لقد كانت عبارة Dieu le Vent « انها ارادة الرب » ، هى صيحة القتال لدى الصليبيين ، وكان الصليبيون يؤمنون بأن الرب قد اظهر رغبته فى تطهير معقله ، وأن القديسين قد ساهموا فى المعركة ، وجلبوا النصر لجيوش المؤمنين الحقيقيين ، ومن ثم كان هناك أمل فى المستقبل •

أما قيام المملكة الصليبية لكى تبقى على تراب الأرض المقدسة ،

فقد كان بمثابة حقيقة مرة غير متوقعة كان على المسلمين أن يواجهوها مع أقول القرن الحادى عشر . وفي بطن عنيد تحولت حياة الصليبيين الحذرة على بعض المدن القليلة المتناثرة الى سيادة على أقاليم متصلة ، أخذت فى التوسع والامتداد دون أدنى مقاومة . لقد تلقى العالم الإسلامى ضربة مفاجئة أثارت الذعر فى جنباته ، وتسببت فى شلل الامارات السورية التى كان يحكمها الأتراك السلاجقة فى حلب وشيزر وحماة وحمص ودمشق وغيرها من الممالك الاقليمية التى كانت جميعها تدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد . وكانت الحروب التى جرت فى العقد السابق على الحروب الصليبية ميراثا من المرارة والحقد والشك بين هذه الامارات الاسلامية . كما كانت الهوة الفاصلة بشكل مستمر بين امارات الشمال المتحاربة ، والجنوب الإسلامى ، عميقة لدرجة امتنع معها العمل المشترك بينها لفترة من الزمان . وكانت مصر القوة العظمى فى العالم الإسلامى تحت حكم الخليفة الفاطمى الشيعى هى المنافس القوى لسوريا وبغداد على المستوى الدينى والاقتصادى والسياسى . ولم يكن الانشقاق الكائن بين أهل السنة فى بغداد والشيعية فى مصر مجرد اختلاف فى المبادئ الدينية . ذلك أن كل خلافة منهما كانت تدعى لنفسها الشرعية الكاملة ، على حين اتهمت فريق الآخر باغتصاب السلطة والخروج على الدين . فضلا عن أن المصالح المتعارضة فى كل من سوريا والعراق وفارس ، حيث يحكم السلطان السلجوقى ، كانت تمنع تعبئة موارد العالم الإسلامى الهائلة فى المجال الاقتصادى والبشرى لصالح الحرب ضد الصليبيين .

هذه القوضى السياسية هى التى شجعت الصليبيين على المضي قمتا ، ومكثتهم من الوصول الى بيت المقدس . وظل الحال على ما هو عليه طوال جيلين تمكن الصليبيون اثناءهما من تدعيم فتوحاتهم . وهكذا شتت الصليبيون دولة عاشت قرنين من الزمان فى مواجهة القوى الإسلامية .

كانت الغزوات الأولى بعد الاستيلاء على بيت المقدس تستهدف شاطئ البحر المتوسط ذا الأهمية الحيوية . إذ لم يكن الشاطئ مجرد جبهة أخرى للتوسع ، وإنما كان ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها لاستمرار المنشآت الصليبية التي لم تكن قد تمت بعد ، والتي اعتمد وجودها على فيض الامدادات القادمة من أوروبا لتجلب موجات جديدة من المقاتلين والمهاجرين المستعدين للسير على درب الحملة الصليبية الأولى المظفرة .

وفي الفترة ما بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٠٢ تمت عدة محاولات فاشلة لاستخدام الطريق البري الذي استخدمته الحملة الأولى . ثم هجر هذا الطريق حتى قدوم الحملة الثانية ، ثم هجر ثانية حتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة . واذ اغلق سلاجقة الروم طريق آسيا الصغرى البري لم يبق للصليبيين سوى الطريق البحري . وفي بداية الأمر لم يكن بأيدي الصليبيين سوى مينائين هما : سان سيمون ميناء انطاكية ، وميناء يافا الزلق الذي كان المسلمون قد هجروه عندما اخذ الصليبيون يشقون طريقهم صوب الرملة والقدس . الا أن الطريق الساحلي كان يمتد على مدى خمسمائة ميل فيما بين الاسكندرونه وغزة ، ومن ثم كانت الصعوبات التي تجشمها الصليبيون هائلة وعديدة . كما انهم لم يكونوا بقادرين على قطع الامدادات عن المدن التي كانت تتلقى مؤناتها بشكل مستمر عن طريق ميناء صور ، أو اساطيل مصر التي كانت هذه المدن تدين لها بالولاء الاسمي . فضلا عن أن الصليبيين لم يكونوا يمتلكون اسطولا ، كما لم تكن لديهم أية خبرة بحرية . وهو ما جعل من اساطيل الجمهوريات الايطالية الفتية القوة عاملا مساعدا في غزو سوريا وفلسطين . وبدأت جنوا ، وتلتها بيزا والبندقية في توجيه اساطيلها الى الأرض المقدسة . وعلى مدى عقد كامل من الزمان شهد البحر الادرياتي والبحر الليجوري رحيل الاساطيل الايطالية صوب الشرق قرب عيد القيامة حيث كانت تصل الى مياه الشرق في ابريل أو مايو . وأخذت البحريات الايطالية - دونما تخطيط في البداية ، ثم بالتنسيق مع الصليبيين فيما بعد - في حصار

المدن البحرية الاسلامية من البحر على حين يداهمها الصليبيون من البر .
 وكان مصير المدن الساحلية واحدا ، سواء منها ما أخذت على حين غرة
 أو التي استسلمت بسهولة . فقد تعرضت جميع هذه المدن للغزو
 واستولى عليها ونهبت وقضى على سكانها ، بشكل يتناقض أحيانا مع
 المعاهدات التي نظمت الاستسلام . وعلى مدى عقد كامل ظل
 الصليبيون يكيلون ضربات موجعة وعنيفة للساحل الحصين ، وفي نهاية
 هذه الفترة (سنة ١١١١) كان الساحل السوري اللبناني الفلسطيني
 بأسره قد وقع بأيدي الصليبيين فيما عدا ميناء صور المحصن الذي ظل
 يقاوم حتى سنة ١١٢٣ ، ومدينة عسقلان التي ظلت خاضعة لمصر حتى
 سنة ١١٥٤ . لقد ثبت غزو الساحل الحدود الغربية الطبيعية للمملكة
 الصليبية (١) .

وعلى الرغم من أن فتح المدن الساحلية قد تم في زمن وجيز ، فإنه
 استلزم جهدا خارقا من القوات الصليبية الضعيفة نسبيا . ومع هذا كان
 غزو المناطق الداخلية أيسر نسبيا ، إذ أن هذه المناطق لم تكن ذات تحصين
 قوى ، وقليل من مدنها كان لها أسوار . كذلك كانت القلاع محدودة لأن
 الحكام الدمشقيين لم يكونوا يعتبرون المنطقة أرض حدود . وهكذا اتجه
 الصليبيون بعد فتح بيت المقدس مباشرة صوب شمال يهوذا والسامرة (٢)

(١) هنا يتحدث مؤلف الكتاب عن فكرة الحدود الطبيعية على نحو
 يذكرنا بقضية الحدود الطبيعية ومفهوم الأمن الإسرائيلي ، وهو الأمر
 الذي يدعو إلى دراسة مدى التشابه بين الحركة الصليبية والحركة
 الصهيونية .

(الترجمة)

(٢) يستخدم المؤلف الأسماء العبرية الواردة في الكتاب المقدس
 للدلالة على المناطق التي شهدت أحداث الحروب الصليبية دونما مبرر
 معقول ، لاسيما وأن أسماء هذه المناطق في تلك الفترة التاريخية كانت
 هي الأسماء المعروفة حاليا . وعلى أية حال فإن هذا الأمر متكرر في
 الكتاب .

(الترجمة)

حيث استولوا عليها دون مقاومة تذكر ، ثم اتجهوا شمالا حيث استولى
 تنكرد Tancred على جبل طابور والناصرية وطبرية وفرض الحكم
 والسيادة الصليبية على الجليل . وبالإستيلاء على طبرية استقرت
 الغزوات الصليبية عبر بحر الجليل ونهر الأردن خلال مرتفعات الجولان ،
 ومنها تجاه دمشق عاصمة سوريا . وكانت القوات الصليبية من القلة
 بحيث لا تمثل خطرا حقيقيا على مدينة كبرى . لقد كانت هذه القوات
 قليلة بشكل يدعو الى السخرية ، وبحيث لايمكنها أن تفرض حصارا .
 ففي عدد من الغزوات الرئيسية كانت القوة لا تزيد عن ثمانين فارسا .
 ومع ذلك فإن الغارات المتواصلة على المناطق الريفية غير الحصينة ،
 والإستيلاء على المواشي ومناطق الرعى ، فضلا عن تدمير المحاصيل
 وهروب السكان ، قد حمل العاصمة بأعباء ثقيلة منها عبء اللاجئين ،
 نقص المواد الغذائية وارتفاع الأسعار .

وهكذا بدأت هذه الجماعات الغازية تحفر بغاراتها المتواصلة على
 الساحل الجنوبي خريطة المستقبل للملكة الصليبية . ومع بداية العقد
 الثاني بلور الصليبيون استراتيجية أمن عسكرية وسياسية يمكن تلخيصها
 في عبارة « الحدود الطبيعية » فقد كان الحد الشمالي المسام يمقد فيما بين
 بيروت التي سقطت سنة ١١١٠ وجبله (بيبلس Byblos القديمة)
 في مقاطعة طرابلس (لبنان الحديث تقريبا) . وفي الشمال الشرقي كان
 الصليبيون يسيطرون على منابع نهر الأردن ، وعلى مدينة بانياس وقلعتها
 التي كانت هي الحصن الوحيد في المنطقة . أما الحدود الشرقية فكانت
 تمثل أكثر من مشكلة ، ففي الشمال كانت الحدود الشرقية تجابه دمشق
 ولم يتمكن الصليبيون من تعبئة القوة الكافية للإستيلاء على المدينة أو حتى
 توطيد أنفسهم في تحصينات على الجولان . كما أن الدمشقيين من ناحيتهم
 كانوا يشاهدون التدبير المنظم لإزاعهم ومراعيهم دون أن يتمكنوا من منعه
 أو حتى مقاومته على نحو فعال ، إذ كان من المستحيل عمليا بناء الحصون
 نظرا لقرب قواعد الصليبيين .

وكانت نتيجة هذا المأزق أمرا غير متوقع . فمئذ عام ١١٠٨ تقريبا اتفق الصليبيون والدمشقيون على نوع من الحكم المشترك لمرتفعات الجولان ، ولم تقم هناك حدود فعلية ، بيد أن الفريقين اتفقا على نزع سلاح المنطقة بأسرها ، وعدم بناء التحصينات ، كما اتفقوا على قسمة عائلتها فيما بينهم ، بحيث تأخذ سوريا ثلث عائد الأراضي الزراعية ، ويأخذ الصليبيون الثلث الثاني ، على حين يكون الثلث الأخير من نصيب الفلاحين القائمين بالعمل الفعلي في الحقول . وكانت هذه المقاطعة تمتد جنوبا حتى قرب نهر اليرموك ، أو إلى الحد الجنوبي الذي كانت سوريا تستطيع أن تتدخل عنده بشكل مؤثر وفعال . وعبر اليرموك استولى الصليبيون على الأراضي التي كانت تحت السيادة الاسمية لدمشق . ومع بداية سنة ١١١٥ كان الصليبيون قد تغلغلوا في أرض جلعاد وعمون القديمة (شرق الأردن) ، وعلى الرغم من جذب هذه المنطقة الأهلة بالسكان ، وخلوها من المراعى ، فقد لعبت دورا هاما في استراتيجية الشرق الأدنى واقتصاده . ذلك أن موقعها الجغرافى السياسى ، عند مفترق الطريق المؤدية الى العراق وسوريا والحجاز ونهاية طريق سيناء المصرية جعل من الطريق الصحراوى فى المنطقة طريقا رئيسيا وعاما .

وسرعان ما أعلنت الحصون الاسلامية المتناثرة ، والبعيدة عن القدرة الفعالة لكل من سوريا ومصر ، خضوعها . وهنا أقام الصليبيون حدودهم ولم يقيموها عند مياه نهر الأردن الضحلة . ذلك أنهم أقاموا خطا من التحصينات يبدأ من وادى نهر اليرموك فيما بين عمان والعقبة ، وصارت القلعتان الضخمتان ، الكرك والشوبك (التى سميت مونتريال) وعدد من القلاع الصغيرة ، مقار الحاميات الصليبية . وعلى الرغم من أن عشر قلاع لا يمكن أن تؤمن مساحة من الأرض تمتد على طول حوالي مائتين وخمسين ميلا ، فإن مواقع هذه القلاع عوضتها من حيث الكيف

(م ٥ - عالم الصليبيين)

عما كانت تفتقر اليه من حيث الكم . فقد كانت قلاع منطقة شرق الأردن والتي كانت تقام عادة على اطلال القلاع القديمة ، قد نسقت على طول الممر الوحيد الممتد من الشمال الى الجنوب في منطقة شرق الأردن . وكانت الجيوش او القوافل المتجهة من دمشق او مصر او بغداد الى الحجاز تضطر الى اتخاذ هذا الطريق الرئيسى ، فضلا عن ان المواقع الحصينة كانت تستخدم كاماكن للتزود بالمياه . وكان هذا الطريق بعينه هو طريق الحج المؤدى الى مكة والمدينة ، وكان يعرف باسم «درب الحج» . وقد ادى توطد الوجود الصليبي في منطقة شرق الأردن الى سيطرتهم على واحد من اهم الشرايين التجارية والعسكرية بالنسبة للمسلمين . فضلا عن ان الاهمية الاستراتيجية لهذا الدرب قد تزايدت حين اتحدت مصر وسوريا ، وانقطعت حلقة الوصل بين اراضيها بسبب وجود الاسفين الصليبي في شرق الأردن .

ولقد صارت سياسة اختيار الحدود الطبيعية (الصحراء) للفصل بين اراضى الصليب وارضى الهلال موضوعا رئيسيا في حياة الجزء الغربى من المملكة الصليبية . وكانت السيادة الصليبية الفعالة تمتد حتى يافا على الساحل حيث الميناء الطبيعى الذى يخدم مدينة بيت المقدس ، وعند مدينة عسقلان كانت تتوقف هذه السيادة . وقد سقطت هذه المدينة القديمة الشهيرة (يافا) بعد احتلال القدس مباشرة ، ولكن الصليبيين اهدروا الفرصة المتاحة لهم ، فلم تسقط عسقلان الا بعد خمسة وخمسين عاما ، وبعد جيلين من المحاولات المستميتة . فقد كانت هناك حامية مصرية تقوى الدفاع عن المدينة التى لم يكن القادة المصريون او الصليبيون بغافلين عن اهميتها . فبالنسبة للقيادة المصرية كانت عسقلان نقطة عسكرية امامية ، ومركزا متقدما يسمح بتركيز الامدادات والقوات في قاعدة ممتازة عبر الصحراء ، ومن هناك يسهل الهجوم على حبرون (الخليل) وبيت لحم والرملة ويافا ، كما يسهل فصل القدس عن الساحل . والحقيقة

انه خلال العقد الأول من حكم الصليبيين هاجم المصريون المواقع الصليبية عدة مرات وتقدموا داخل سهل الرملة واللد ، ولكنهم لم يحرزوا نجاحا كاملا ، كما أن هجومهم على يافا باء بالفشل نظرا للقصور في التعاون والتوقيت بين حامية عسقلان والبحرية المصرية . وفى سبيل الحفاظ على عسقلان ، وضمان وصول القوات الجديدة المقاتلة كان المصريون يغيرون حامية المدينة أربع مرات سنويا . وعندما خرب الصليبيون الريف الزراعى اضطر المصريون الى تقييد كل مولود فى المدينة فى بيان الرواتب العسكرية الخاصة بهم .

وحتى قبل أن تسقط عسقلان كان الصليبيون يتغلغلون فى أعماق الصحراء ودمروا واحة العريش أكثر من مرة ، بل وتقدمت بعض الحملات حتى الفرع الشرقى لنهر النيل ، ولكنها لم تحقق نتائج ملموسة . وحتى الآن يطلق اسم بلدوين الأول الملك الصليبي الباسل والذي حاول السيطرة على الطريق الصحراوى الى مصر ، على سبخة البردويل والبحيرة التى تحمل اسمه محرفا . وعند بداية القرن العشرين كان بدو شمال سيناء مايزالون يروون القصص عن العملاق الأشقر بردويل .

وعندما وصلت المملكة الصليبية الى قمة اتساعها ، وبلغت حدودها الطبيعية ، بدأ المسلمون يجابهون التحدى الصليبي . وقد أثبتت السنوات الخمسون التى تلت قيام المملكة الصليبية أن الامارات الصليبية كانت عاجزة تماما عن التعاون فى خلق جبهة موحدة . كما أثبتت هذه السنوات أن مصر بكل مواردها الاقتصادية وقوتها البشرية لم تكن ندا للاوربيين . ومن وقت لآخر كانت الامارات السورية تعقد بعض الاتفاقيات مع مصر رغبة فى العمل المشترك ، ولكن هذا التحالف سرعان ما كان ينقسم بنفس السرعة التى ثم بها . والحقيقة أن الأمراء كانوا يشكون فى بعضهم البعض ، وقد منعهم هذا الشك من الاتحاد فى جبهة عامة ضد الصليبيين

وتمجرد أن أقيمت الحدود بين الهلال والصليب حول المنخفض الكبير الممتد من جبال طرسوس حتى البحر الميت تقريبا (باستثناء مملكة بيت المقدس التي ضمت شرق الأردن) برز الى الوجود نوع من توازن القوى .

ولم يبدأ رد الفعل الاسلامي من سوريا او مصر ، وانما من الموصل . وكان حكام الموصل يدينون بالولاء للسلطان السلجوقي في فارس ، اذ انهم كانوا نوابه في الشطر الغربي من الامبراطورية . وبهذه الصفة كانوا يسيطرون على الامارات السورية والعراقية ، بل وعلى الخليفة العباسي نفسه في بغداد . وحاولوا باسم الخليفة والسلطان ان يحصلوا على تعاون حكام سوريا المسلمين ، كما شنوا عدة حملات عسكرية ضد جيرانهم الصليبيين المباشرين في الرها وفي انطاكية . بيد ان نتائج هذه الحملات لم تكن مرضية . وكان السبب في ذلك ان الأمراء المسلمين انتابتهم الشكوك والوساوس ، عن حق ، في تدابير حكام الموصل وأتباعهم في ممتلكات الأمراء واستقلالهم . ومع ذلك تمكن قادة جيش الموصل بفضل تحالف عسكري كبير سنة ١١١٢ أن يكسبوا معركة ضد الصليبيين قرب بحر الجليل وتمكن المسلمون من حصار القوة العسكرية الكاملة للمملكة الصليبية ، بيد ان عدم القدرة على الاحتفاظ بجيش غير متجانس لفترة اطول من ذلك ، حرم المسلمين من احراز نصر ساحق . ومما زاد في وطأة هذا الفشل ان السكان حين راوا جيشا مسلما ضخما في الارض المقدسة ، ثاروا على الصليبيين ليقدموا مساعدتهم لما كان يمكن تسميته آنذاك جيش التحرير الاسلامي .

وعلى الرغم من هذا الفشل ، فان شيئا ما أخذ يتغير داخل المعسكر الاسلامي فمن ناحية اثار تدفق اللاجئين الى المقاطعات الاسلامية في اعقاب الغزو الصليبي مشاعر الاستياء ضد القيادة الاسلامية . وفي البداية علت اصوات الاستياء على منابر المساجد في صلاة الجمعة ، وسرعان ما حظيت الحركة بتأييد شعبي قوي لتصبح فكرة الجهاد ضد

الكفار بمثابة صرخة التجمع للقوات الاسلامية • لقد تقبل المسلمون فكرة وجود بيزنطة المسيحية والتعايش معها كحقيقة واقعة على حين ظلت فكرة الجهاد المتواصل لاقامة الدين الحق رهينة الكتب فقط ، وهو امر اشبه بالفكرة الحديثة عن الثورة الدائمة لاقامة النظام السياسى الوحيد العادل والصحيح • والآن انقشع الغبار عن فكرة الجهاد ، وسطرت الكتب التى تتناول واجب الجهاد ، كما دبجت الرسائل التى تداولها الجميع عن قدسية بيت المقدس •

وقد استغل زنكى ، وهو احد الحكام المسلمين الموهوبين ، هذا البعث الايديولوجى • فقد قامت المدارس والعلماء والدوائر المتدينة بخلق مناخ للرأى العام كان من المتعذر فى ظله أن يتجنب الأمراء السوريون المواجهة المباشرة للتحدى الذى فرضته المملكة الصليبية • وقد نجح زنكى تدريجيا فى التغلب على القوات المنعزلة فى كل من سوريا والعراق • وفى سنة ١١٤٤ شن زنكى هجوما ناجحا على الرها واستولى على عاصمة اول دولة صليبية قامت على تراب الشرق •

وكان سقوط الرها نذير شؤم وصدمة نفسية مؤلمة ، اذ انه كان يعنى ان مقاطعة انطاكية الواقعة الى الشمال الغربى من الرها ستكون محطاً للضغط المتواصل من جانب المسلمين على حدودها ، كما بات من المتوقع ان تزداد الغارات الاسلامية عليها بعد زوال خطر القوات الصليبية فى الرها • وفى سنة ١١٤٦ جبرت محاولة فاشلة من جانب الصليبيين لاسترداد المدينة • اذ تمكن واحد من النجوم الطالعة فى سماء السياسة الاسلامية من اعادة احتلال الرها ، وهو نور الدين محمود خليفة زنكى ووريثه • ولكن على الرغم من انتصاره الباهر ، لم يكن فى قدرة نور الدين محمود أن يشن هجوما شاملا على المملكة الصليبية • ذلك ان سيطرته على الامارات السورية والعراقية لم تكن قد استقرت بعد ، بل ان

الأمر ازداد سوءا بسبب المعارضة السورية الشرسة . فقد كانت العاصمة السورية قد توصلت الى حال من التعايش السلمى مع جيرانها الصليبيين ، مما أكد استقلالها السياسى ومركزها الاقتصادى . وبمرور الوقت وجدت دمشق فى الصليبيين جارا يوثق به وحليفا فى بعض المناسبات يعتمد عليه أكثر من الجيران المسلمين . وعلى هذا لم تكن المملكة الحاكمة فى دمشق ، والتي ربطت نفسها بمصالح اقليمية أكثر من ارتباطها بالسياسة السلجوقية ، راغبة فى أن تتحرر على أيدي قوات زنكى ، أو نور الدين لتجد نفسها وقد انضمت الى املاك أسرة زنكى . لقد فضلت دمشق أن تحتفظ باستقلالها . وعلى مدى جيلين وجدت الأسرة الحاكمة فى دمشق تأييدا من المواطنين لسياستها . وكان من الطبيعى إذن أن تصير دمشق بؤرة المعارضة المضادة لزنكى . وفى هذه الظروف مد الصليبيون يدالعون أكثر من مرة لدمشق عندما كان يهددها زنكى أو نور الدين . ولم يكن الأخير بقادر على أن يغزو المملكة اللاتينية ومن وراء ظهره دمشق التى لا يثق بها ، كما أن قرب الصليبيين كان يحول دون فرض أى حصار على العاصمة السورية .

ومن الغريب أن الصليبيين هم الذين قاموا بتقويض هذا الترتيب الذى كان يناسبهم تماما . فقد كان سقوط الرها يمثل التحدى الأكبر لأوريا المسيحية . وكان من الغريب ، بل ومن الظلم ، أن تهزم دولة مسيحية على أيدي الكفار ، وأن يضيع الايمان الحقيقى (المسيحية) فى المواجهة . وانطلاقا من هذه الرؤية تحركت أوريا يدفعها شعور بالعار ، والرغبة فى الانتقام وتصحيح الخطأ . وكان بطل هذه القضية هو البابا ايوجينيس الثالث Eugenius III . ولكن الرجل الذى وضع الجيوش على الطريق الى الشرق حقا كان هو برنار الكليرفوى Bernard de Clairvaux . فقد جمعت الجيوش فى فرنسا والمانيا تحت قيادة ملكيهما لويس السابع وكونراد الثالث استجابة لدعوته .

وفى سنة ١١٤٨ وضلت الحملة الصليبية الثانية الى الأرض المقدسة .
 وكان الجميع يتوقعون أن يقوم الفرسان الأوربيون والجيش الصليبية
 بشن هجومهم على الرها بغية استردادها ، عاصمة وقليةا . ولو أن
 الهجوم كان قد بدأ من انطاكية فعلا لتوقف تيار نور الدين الصاعد .

ولكن ما حدث بالفعل كان أسوأ ما يمكن للمرء أن يتوقعه ، فقد قرر
 الملوك الأوربيون والصليبيون الهجوم ٠٠٠ ولكن على دمشق ! وكانت هذه
 الخطوة من الغرابة لدرجة أن المؤرخين حتى يومنا هذا يناقشون الأسباب
 التى أتت بجيش الحملة الصليبية الثانية الى اسوار دمشق . وعند هذا
 باقت الأحداث أكثر اضطرابا وغموضا ، ذلك أن الجيش المحاصرة قد
 أجبرت على التقهقر بشكل مخز وأنسحبت بعد أربعة أيام من القتال كانت
 قد أحرزت أثناءها نصرا أوليا . واتهم القادة الأوربيون الصليبيين صراحة
 بقبول رشوة دمشق لاحتباط الحصار وانتهت الحملة الصليبية الثانية
 بالفشل على حين بقيت الرها مدينة اسلامية . هذا التخبط السياسى هو
 الذى دفع بدمشق الى الارتقاء بين ذراعى نور الدين محمود المفتوحتين
 فى سنة ١١٥٤ . وزاد من حرج الفشل الصليبي ووطاته موجة النقد
 الأوربية التى حالت دون شن هجوم صليبي جديد على الرغم من جهود
 برنار الكيرفوى وسوجير السان دونى Suger de St. Denis .

وفى الشمال الاسلامى كان الصليبيون يواجهون قوة متحدة
 متماسكة أكثر من ذى قبل . وقد دفعهم هذا الى عقد علاقة مباشرة مع
 بيزنطة التى كانت تبدو حتى ذلك الحين كمنافس أكثر من كونها حليفا .
 وكان الطرفان على استعداد للاتفاق واعترف الصليبيون بالسيادة البيزنطية
 على انطاكية ، وقبلوا لفترة قصيرة وجود بطريرك بيزنطى للمدينة . كما
 جدد الامبراطور مانويل كومنينوس الأول Manuel I Comnenus
 الأبنية الكنسية فى الملكة وقام على زخرفتها وتزيينها . ولم تكن الأسرة

البيزنطية هي الوحيدة التي تم تزيينها وتجديدها ، اذ غطى صحن وجناح كنيسة الميلاد في بيت لحم بالفسيفساء اللامع البراق ، كما امتد اهتمام الامبراطور الى داخل كنيسة القيامة ، وبدت الكتابات اليونانية واللاتينية المنقوشة وكأنها تدخل بنا في روح تحالف مسكونى بين أكثر الممالك ارثوذكسية واشدها كاثوليكية .

وفي الشمال اجبرت الجبهة الاسلامية الصامدة الفرنجة على الاتجاه جنوبا . وكان الوقت مناسباً لذلك . فقد كانت مصر آنذاك بمثابة الرجل المريض على ضفاف النيل اذ كانت الخلافة الفاطمية عارية الا من بعض ظلال قوتها السابقة ، فقد توالى تغير الوزراء الحاكمين لمصر في ايقاع سريع من الانقلابات والفتن وارتقاء كرسى الحكم عن طريق الاغتيال . وكان تقدم الصليبيين في سنة ١١٥٠ الى غزة الواقعة على طرف الصحراء يشير الى الاتجاه الصليبي الى مصر . ثم حدث ايضا الهجوم الصليبي على العريش سنة ١١٦١ وبدأت مصر في أعقابها تدفع اتاوة سنوية للصليبيين . وأخيرا حانت فرصة التدخل في سنة ١١٦٢ عندما لجأ أحد الوزراء المتنافسين في القاهرة الى أمالريك Amalric (أمورى) ملك بيت المقدس طالبا مساعدته . وخلال السنوات الست التالية غزا الصليبيون مصر خمس مرات . وكانت هناك فرصة طيبة لوقف الخطر المصرى كما حدث مع دمشق من سنوات قليلة مضت ، واذا لم يقبل الجار الجنوبي للصليبيين (أى مصر) ان يكون حليفا لهم ، فان حياده على الأقل سيؤدى الى موازنة الخطر الشمالى . وعلاوة على هذا كانت بيزنطة على استعداد للتعاون مع الصليبيين ، كما كان أسطولها على أهبة الاستعداد للتحرك صوب مصر . بيد ان هذا التحالف المسيحى لم يدم طويلا ، اذ كان الصليبيون يعتقدون انهم يستطيعون ان يحرزوا النصر وحدهم وان ينفروا بثماره .

وقد أدى التدخل الصليبي لصالح أحد الوزراء المتنافسين في مصر

بالوزير الآخر الى البحث عن يحميه ، فأرسل البعثات الدبلوماسية العاجلة الى نور الدين محمود الذي لم يكن راغباً في التدخل ، ولكن مساعده شيركوه قائد فرق الجيش السورية والعراقية اجتاز القلاع الصليبية في شرق الأردن من طريق جانبي وشق طريقه الى مصر . ودار القتال على الأرض المصرية بين الصليبيين والسوريين المسلمين ، وكانت غالب المعارك تنتهي بانتصار الصليبيين . بيد أن النصر النهائي لم يكن من نصيب أى من الجانبين . وقد رفرفت اعلام الصليبيين فوق القاهرة ، كما شوهدت تحت اسوار الاسكندرية ، ولكن القصة التي دارت على أرض مصر انتهت بفشل ذريع للصليبيين الذين اساءوا التصرف وازدادت مطالبهم المالية ، بل وفكروا أيضا في ضم مصر الى املكهم . وهو امر لم تكن الجماهير المصرية لتقبله . وفي الوقت الذي كان فيه القتال دائرا بين القادة على السلطة كانت جماهير المصريين في شغل عن القتال . وانتهى الوجود المسيحي في مصر ولقى شيركوه تأييدا شعبيا متزايدا ، واضطر الصليبيون الى الانسحاب وان ظل حكم مصر سرايا يجنبهم نحوه بين الحين والحين .

ولم تؤد هذه الحملات المجازفة الى تقلص الموارد العسكرية والمالية للمملكة اللاتينية فحسب ، وإنما أدى فشلها الى تغيير خريطة الشرق الأوسط . إذ أن شيركوه صار وزيرا لمصر . وبعد موته سنة ١١٦٩ خلفه ابن أخيه صلاح الدين الذائع الصيت . وبعد عامين عندما توفي الخليفة العاضد انتهت الخلافة الفاطمية عام (١١٧١) . وتم في مصر الاعتراف رسميا بالخليفة العباسي في بغداد . وعلى العكس من جميع التوقعات لم تتحد مصر وسوريا ضد الصليبيين . فخلال السنوات الأخيرة من حكم نور الدين محمود الذي توفي سنة ١١٧٤ كان التوتر قد تصاعد بين الحاكم السوري وصلاح الدين مساعده الذي يحكم مصر . وكان على هذه الوحدة بين مصر وسوريا أن تفتقر حتى يتم خضوع سوريا والعراق للجيش المصري تحت قيادة صلاح الدين .

كان صلاح الدين بطل التاريخ الاسلامى زعيما وقائدا عسكريا متوسط القيمة ، كما كان رجل دولة موهوبا ، كريما مع الصديق والعدو محبا للغير يبعث على الثقة . وكان صلاح الدين يجسد الاخلاق الاسلامية فى عيون المسلمين ، فهو الزعيم المثالى لحرب المقدسة ضد الكفار . ولكنه قبل ان يبدأ الهجوم على المملكة الصليبية وبعد ان نالته هزيمة مؤلمة فى احدى المعارك سنة ١١٧٧ . بدأ صلاح الدين فى غزو سوريا الاسلامية واحتل دمشق فى سهولة . ولم يعترف حاكم سوريا بالحاكم الجديد الا بعد عشر سنوات . وظلت حلب بمعونة الصليبيين فى انطاكية بعيدة عن متناول صلاح الدين حتى سنة ١١٨٣ . وعندئذ ، وبعد ان دعم صلاح الدين قوته بدأ استعداداته لمواجهة الشاملة مع الصليبيين .

وحاول الصليبيون مع القوى المعارضة فى مصر ان يحيكوا خيوط مؤامرة تطيح بصلاح الدين ولكنهم باءوا بفشل ذريع . كما انهم قاموا بعدد من الغارات الجريئة عبر سيناء ووصلوا الى بحيرات السويس ، على حين قاموا بشن غارات أخرى على تيماء فى شمال الحجاز . وكانت اجرا حملة هى تلك التى نظمها رينو دى شاتيلون Renaud de Chatillon زوج الملكة السابقة لانطاكية ، والذي كان أسيرا لمدة سبع عشرة سنة ، وصار زوجا للملكة الحاكمة آنذاك على شرق الأردن ، وهى السيدة ايشيف Eschive . وفى شرق الأردن راودته فكرة خطة جريئة لاقتحام البحر الأحمر وربما غزو مكة والمدينة على الرغم من أن هدفه النهائى كان هو التحكم فى حركة المرور الدولية بين آسيا ومصر عن طريق باب المنسب . وفى سنة ١١٨٢ بنى اسطولا فى قلعة الكرك الصحراوية ونقله مفككا لمسافة تقرب من مائة وخمسة وعشرين ميلا عبر الطريق الصحراوى الى خليج العقبة حيث تم تركيبه وانزاله الى مياه البحر الأحمر . وتم احتلال جزيرة فرعون الصغيرة المواجهة للعقبة ،

ثم اعقبت ذلك غارة متعرجة نهب الصليبيون اثناؤها بعض الموانئ المصرية والحجازية . ومضت أسابيع قبل أن ترد مصر المباغثة وعندما تمكن الأسطول المصرى من رصد موقع الصليبيين فى صحراء الحجاز ، كان الصليبيون قد توغلوا الى مسافة تقرب من المدينة .

وفى الوقت الذى كان فيه أحد بارونات الصليبيين ينظم سياسته الخارجية ، كانت الخلافات الداخلية تنهش بمخالبها الملكة الصليبية ، إذ تمزقت الملكة بين ريمون أمير طرابلس الذى كان يمثل طبقة النبلاء الصليبيين الأوائل وبين جاي دى لوزينان Guy de Luisignan الذى كان واحدا من القادمين الجدد ، واعتلى عرش الملكة باعتباره زوجها لسيبيل Sybille وريثة العرش . ونظرا لمعارضة الارستقراطية الصليبية لم يجد ملك بيت المقدس الشجاع ، وربما غير الحكيم ، الوقت اللازم لفرض سيادته قبل أن يخترق صلاح الدين مرتفعات الجولان عند طبرية عاصمة الجليل . وعلى الرغم من الخلاف التف الصليبيون حول ملكهم . ولكنهم بدلا من أن ينتظروا لملاقاة المسلمين فى موقعهم الاستراتيجى الممتاز فى الجليل اتبعوا نصيحة متهافئة وتحركوا باتجاه بحر الجليل لنجدة المدينة المحاصرة . وفى يوم ملتهب من أيام الصيف ، ٤ يوليو سنة ١١٨٧ ، وقع الصليبيون فى كمين فى سهل صغير مغلق فى قرون حطين . وتبدد الجيش الصليبي عن بكرة أبيه بين قتل وأسير . وكان عدد مقاتليه حوالى الف ومائتى فارس بما فى ذلك فرسان الرهبنات العسكرية ، وحوالى ألف من المشاة . وكانت هذه هى كل القوة العسكرية المتاحة للمملكة . وماتلا هزيمة الصليبيين فى حطين كان شيئا أشبه باستعراض عسكري أكثر منه حملة عسكرية . فقد أخذت المدن الصليبية تفتح أبوابها الواحدة بعد الأخرى ، كما سلمت القلاع والحصون تباعا استجابة لدعوة صلاح الدين الذى خير قاطنيتها بن الرحيل أو التوجه الى ما تبقى من أراضى المسيحية . وفى الثانى من أكتوبر سنة ١١٨٧ ، أى بعد ثمانية وثمانين عاما من السيادة المسيحية فتحت بيت المقدس

أبوابها لصالح الدين • وبعد شهور قليلة لم يكن قد تبقى بأيدي الصليبيين سوى صور وانطاكية وطرابلس في الشمال وبعض القلاع المتناثرة • وبدا واضحا أن الساعة الأخيرة في عمر المملكة الصليبية قد بدأت دقائقها •

وجاء رد الفعل الأوربي • فلم يكن ضياع القدس مجرد فقدان عاصمة ، وإنما كان فقداننا لأكبر رمز محسوس للدين وهو الضريح المقدس • لقد صار قبر المسيح في أيدي الكفار مرة أخرى • ومن ثم انطلقت الدعوة إلى خروج صليبي جديد في شتى أرجاء الغرب الأوربي ، وتزعم هذه الدعوة ملوك العالم المسيحي الغربي حيث تولى الامبراطور فردريك الأول ببروسا قيادة القوات الألمانية وهو في السبعين من عمره • كما قاد ريتشارد قلب الأسد ، ملك إنجلترا ، الفرسان الانجلو - نورمان والاكويطانيين ، على حين كان فيليب أوغسطس زعيم آل كابيه يقود قوات فرنسا • وتحرك أيضا إلى الشرق عدد كبير من المبع نبلاء أوربا • ومضى عامان قبل أن تصل بعض قوات هذه الحملة الصليبية إلى شواطئ الأرض المقدسة من عدة طرق مختلفة • فقد اتخذت الحملة الألمانية الطريق البري بمقتضى بعض المعاهدات مع حكام المجر وبيزنطة وقد تكبدت الحملة خسائر جسيمة عند عبورها إلى آسيا الصغرى ، وكان غرق الامبراطور المسن في مياه نهر كاليكاندوس Ca'ycandus في أرمينيا الصغرى أكبر خسارة تددت بهذه الحملة قبل وصولها إلى شمال سوريا ، وهكذا تدهورت معنويات الجيش الألماني بشكل تعذر معه على دوق سوابيا أن يصل ببقية الجيش الألماني إلى الأرض المقدسة • أما ريتشارد وفيليب أوغسطس فقد سلكا طريقين بحريين مختلفين وتقابلا في صقلية حيث أمضيا شتاء سنة ١١٩٠ - ١١٩١ وهناك اختلفا سوريا حول الصراعات المحلية ، وتبادل

الأثنان المنافسة التي كانا قد طرحاها جانبا بشكل رسمى يوم أن قررا المشاركة فى الحملة الصليبية ، ثم ابجرا سـويا سنة ١١٩١ . وكان ريتشارد هو الثانى فى الوصول ، لأنه استولى على جزيرة قبرس من حاكمها البيزنطى وهو فى الطريق الى عكا . وربما تكون السنتان ونصف السنة التى مضت فيما بين سقوط بيت المقدس ووصول فرق الحملة الصليبية الثالثة قد قضت على كل أمل فى استرداد القدس . الا ان كونراد مونتفرى Conrad of Montferrat ، الذى ابجر من القسطنطينية ، ونجا من الوقوع أسيرا فى عكا بأعجوبة ، ثم دخل ميناء صور التى كانت المدينة الوحيدة الباقية بأيدي الصليبيين . . . هذا الرجل وجد فى صور أولئك الذين نجوا من سيف صلاح الدين وأولئك الذين سمح لهم القائد المسلم بالعودة الى الأراضى المسيحية كشرط من شروط معاهدة التسليم . كانت مدينة صور بلا قائد ، فقام كونراد فى الحال باعادة تنظيم سبل الدفاع عن المدينة ، وقاوم فى شجاعة تهديدات صلاح الدين والحصار الذى فرضه على المدينة . وفى الوقت نفسه بدأ جاي دى لوزينان ملك القدس التعس ، والذى كان قد أسر فى حطين ثم فك أسره مقابل وعد شرف ، ينظم فلول القوات الصليبية الهزيلة ناكثا عهده مع صلاح الدين . واغلقت ابواب صور فى وجهه وفقا لأوامر مونتفرى ، ولكن فرقته الصغيرة تحركت فى جسارة الى سهل عكا حيث اتخذت مواقعها فى مواجهة المدينة فى سنة ١١٨٩ . وهكذا باتت صور وخليج عكا بمثابة رأس الجسر للحملة الثالثة .

ومع وصول دوق سـوابيا فى خريف سنة ١١٩٠ بدأت اعداد الجيوش الصليبية تتزايد . وتضخم عددها بوصول القوات الفرنسية فى ربيع سنة ١١٩١ ، ثم تلتها القوات الانجلو نورماندية بعد شهرين . وهكذا أصبحت عكا التى ضيق الصليبيون الخناق عليها على مدى عامين هى محور تاريخ الشرق الأدنى والتاريخ الأوربي . لقد حوصرت المدينة من

البحر ، كما أحاط بها الصليبيون من جهة البر . وضيق عليهم صلاح الدين الحصار بجيوشه التي كان يعسكر بها من شاطئ الى شاطئ فيما يشبه نصف الدائرة الضخمة . وعلى الرغم من جهود صلاح الدين للدخول الى المدينة المحاصرة بقوات جديدة وامدادات ، فان المدافعين عنها لم يتمكنوا من الصمود أمام الهجمات الصليبية . واستسلمت المدينة في يوليو ١١٩١ ، وصارت عكا هي الانتصار الأول للحملة الصليبية الثالثة ، أو حملة الاسترداد . ومن سوء الحظ أن فتح المدينة أعقبه في التو رحيل الجزء الأعظم من الجيش الى الوطن . ولم يبق من القادة سوى ريتشارد الذي ظل عاما كاملا احرز فيه انتصارا باهرا على صلاح الدين في أرسوف واستعاد المدن الساحلية حتى يافا في الجنوب . كما وصل الى منطقة قريبة من أسوار بيت المقدس بيد أنه لم يستطع أن يسترد المدينة ذاتها .

وعندها بدأ المعسكران الاسلامي والصليبي يحسان بوطاة النفقات الهائلة من ناحية القوى البشرية والموارد المالية ابان الحملة الصليبية الثالثة . كما ان ريتشارد لم يتمكن من البقاء في الأرض المقدسة تحت ضغوط الأخبار القادمة من انجلترا . كذلك كانت موارد صلاح الدين المالية والبشرية اخذة في الضعف ، كما تملكت فرق الجيش من طول فترة الحرب . وعلى هذا وقع الطرفان ، في سبتمبر ١١٩٢ معاهدة سلام ثبتت الحدود تقريبا على ما هي عليه . وهكذا ولدت مملكة القدس الثانية كقطاع ضيق من الأرض يلتصق بالساحل ويمتد من بيروت حتى يافا . وبقيت القدس ، هدف الحملة الصليبية الثالثة ، مدينة مسلمة . وكانت المنطقة الوحيدة التي اتسعت فيها المملكة عرضا فيما بين يافا والرملة على طول الطريق الرئيسي الى المدينة المقدسة البعيدة المثال .

وسرعان ما تحولت التوقعات الكبيرة التي كانت منتظرة من الحملة الصليبية الثالثة الى يأس واتهامات حادة للزعامة الصليبية . ذلك ان العاميين اللذين استغرقتهما الجهود الأوربية لم تكن لتقارن بالانجازات

الهزيمة التي حققتها الحملة • وعندئذ تحول النقد الانتقامي الى تحليل جاد ، وبدأت الشكوك تساور البعض حول الالهام الالهي الذي يزعمه الصليبيون ويدعون • وعلى الرغم من هذه الأزمة الايديولوجية ، فقد تم تنظيم عدد من الحملات الصغيرة قرب نهاية القرن الثاني عشر من أجل تدعيم موقف المملكة الصليبية وفي محاولة فاشلة لد السلطة السياسية فوق أراضي الشرق • وفي أثناء احدي هذه المحاولات تم ضم بيروت الى المملكة • ومن الناحية الموضوعية بدا الموقف مناسباً ، ذلك ان وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٥ أدت الى تفسخ امبراطوريته في الحال • لقد كان هو الرجل الذي يحفظها من التفسخ ، ولم يكن ثمة مبدأ متوارث أو تناسق داخلي يجمع أطراف هذه الامبراطورية • وانتهج الأيوبيون في كل من سوريا والعراق واليمن سياسات مستقلة ، على حين اعترفوا بالسيادة الاسمية لحاكم القاهرة • ومزقت الاحقاد والمنازعات القديمة الوحدة التي كان تحقيقها قد تم في مشقة • وفي هذه الظروف بدأت أوربا استعدادها لحملة جديدة بتحريض من البابوية والصليبيين وكانت الحملة الرابعة الشهيرة •

لقد استمرت تقلبات أحداث الحملة الصليبية الرابعة منذ بدايتها حتى نهايتها المأساوية خلف ضباب كثيف من الحيرة والشك • وكان الأب الروحي للحملة هو انوسنت الثاني الذي يعتبر أعظم بابوات العصور الوسطى ، كما كان قادة هذه الحملة ينتمون الى أكبر الأسرات الحاكمة في أوربا ، مثل تيلبلد الشمباني Theobald of Champagne وفيليب حاكم سوابيا وبونيفيس مونتيقري • وكان هدف هذه الحملة هو الغزو المباشر لمصر • وفي سنة ١٢٠١ ، وبعد عدة سنوات من الاستعداد • تجمع الصليبيون في ميناء البندقية • وبعد عام كان الصليبيون يفرضون حصارهم على • القسطنطينية العاصمة المسيحية !! وقد استمرت الاتهامات والاتهامات المضادة بعد احتلال القسطنطينية مباشرة ، ولم تخذ

حتى يومنا هذا • ويلقى المؤرخون باللوم على فظاظة الألمان ، واطماع
بارونات الشمال ، وعلى أحد المطالبين بعرش بيزنطة • ولكنهم أيضا يلقون
باللوم على البندقية أولا وقبل كل شيء •

والأحداث الرئيسية واضحة ، بيد أن الدوافع تترك مشكلة المسئولية
دونما حل • فقد تم التخطيط للحملة على أساس أنها سوف تسلك الطريق
البحري تجنباً للصعوبات التي واجهتها الحكومات السابقة عند عبور
آسيا الصغرى • وتم النقل على متن أسطول بندقى بنته الجمهورية البندقية
وتكفل الصليبيون بنفقات انشائه • وعندما توجهت مختلف الفرق
الصليبية الى البندقية فى خريف سنة ١٢٠١ ، بات واضحاً أن تكاليف
الانتقال تفوق طاقة الصليبيين • ومع ذلك نفذ البنادقة ما عرضوه من
خدمات ، بيد أن المكافأة اختلفت فى ماهيتها : فقد طلبوا الاستيلاء على
مدينة زارا Zara المجرية على البحر الأدرياتي (وكانت هذه شوكة
فى حلق البندقية ملكة البحر الأدرياتي) • ووافق الصليبيون وتم الاستيلاء
على زارا التى كانت مدينة مسيحية فى مملكة مسيحية • وتلا هذا التحرك
قرار مصيرى آخر • فمئذ سنوات كان اسحق انجلوس الثانى امبراطور
بيزنطة قد امضى عن عرشه على يد اليكسيوس الثالث ، وحاول اليكسيوس
الرابع انجلوس ابن الامبراطور المخلوع الحصول على مساعدة البلاط
الألماني فقابل الجيوش الصليبية فى زارا ، واقنع قادتها بغزو
القسطنطينية ، واعادته الى السلطة واعدا الصليبيين بأن يضع موارد
بيزنطة تحت تصرفهم اذا ما استعاد العرش الامبراطورى ، فضلاً عن
المكافأة السخية التى وعد بها الجيوش المحررة • وقد وجدت البندقية فى
هذه الفكرة فرصة عظيمة لتوطيد نفوذها فى بيزنطة ، وبذلك تتم لها
السيطرة على أعظم المراكز التجارية الرئيسية فى العالم • وقد وجد هذا
المدعى البيزنطى تأييداً بين الألمان حيث كانت زوجته ايرين أخت فيليب ملك
سوابيا • ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل هذه المصالح المكتسبة ، لم يكن

ممكنا اتخاذ هذا القرار المعادى لبيزنطة لولا حالة العداء الدائم بين الغرب والامبراطورية البيزنطية . وبدأ دخان هذه الكراهية فى الظهور خلال الحملة الصليبية الأولى ، وسرعان ما تأججت نيرانها فى عداوة صريحة ابان الحملة الصليبية الثالثة ، عندما وجه الصليبيون اتهامهم لبيزنطة ، بصراحة ، بمساعدة صلاح الدين .

وعلى الرغم من ان الفكرة الأساسية ربما كانت اولا اجبار بيزنطة على الدخول فى تحالف لمساعدة المملكة الصليبية ، فان الحملة نفسها غيرت من هدفها . فما أن حل الصليبيون بالقسطنطينية حتى تم ابعاد مفتصب العرش . وصار اليكسيوس الرابع انجلوس صنيعة الصليبيين حاكما على الامبراطورية فى يوليو سنة ١٢٠٢ . وعندما تهرب من وعوده بالمكافأة عصف الصليبيون بالمدينة فى ابريل سنة ١٢٠٤ واقتحموها ، وصار بلدوين أمير الفلاندرز هو أول امبراطور للامبراطورية الجديدة : الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية . وأصبح أحد البنادقة أول بطريك لاتينى لها . وتم تقسيم الامبراطورية مثل سائر الأسلاب والغنائم فيما بين المنتصرين ، وأسست البندقية امبراطوريتها البحرية فى بحر ايجه .

وهكذا وجد البناء الصليبي فى القسطنطينية ، وحكم آل لوزيفان مملكة قبرس المستقلة التى اعترفت بسيادة الامبراطورية الرومانية ، كما فعلت أرمينيا الصغرى (الذى تلقى حاكمها تاجه من سفراء الامبراطور) . ومن الناحية النظرية كان بوسع هذه الممالك أن تعمل كقواعد لمساعدة مملكة بيت المقدس المزعزعة الأركان . ولكن الأمور كانت تختلف تماما على المستوى العملى ، اذ كان لكل مملكة مشاكلها الخاصة بها . وافترض امر أوربا لهجومها على امبراطورية مسيحية . وأخذ الراغبون فى الرحيل (م ٦ - عالم الصليبيين)

يفضلون التوجه الى قبرس أو القسطنطينية الأكثر ثراء وأقل خطرا من الوجود الصليبي في الأرض المقدسة .

وفي الوقت نفسه تمتعت المملكة اللاتينية بالسلام على مدى ما يقرب من عشر سنوات . ويرجع هذا أساسا الى التوتر الذي ساد معسكر الحاكم الأيوبي لمصر ، وكانت هذه المهلة قصيرة من حيث أنه كان من الواضح أن قوات المملكة لم تكن ندا للمسلمين . وانعقد أمل المملكة الصليبية على مجيء حملة كبرى جديدة . وكان من الواضح أن تنظيم مثل هذه الحملة أمر صعب المنال .

وعلى الرغم من بعض النكبات ظلت فكرة الحملة الصليبية قائمة . فقد أخذ انوسنت الثالث يحرض على شن حملة جديدة غير عابئة بالفشل الذي حاق بالحملة الأخيرة . وعلى الرغم من النقد والاستياء توهجت شرارة مسيحية هنا وهناك ، وكان شاهدا عليها أغرب ظاهرة في العصور الوسطى : تلك هي حملة الأطفال الصليبية سنة ١٢١٢ . فقد عبرت فرق الصبيان بلادهم تحت قيادة شابين أحدهما الماني والآخر فرنسي الى شواطئ البحر المتوسط ، وفي ظنهم أنهم سيجدون أرضا يابسة يعبرون البحر من فوقها كما حدث قديما مع بني اسرائيل عبر البحر الأحمر . وقد نشأت الفكرة وتغذت على أساس أن ما منعت العناية الالهية عن الكبار الأثمين سوف تمنحه للأطفال رمز البراءة . وشق الأطفال طريقهم الى بلاد الاسلام حقا ، ولكن على متن سفن تجار الرقيق المسيحيين وتم بيعهم في أسواق النخاسة في شمال افريقيا .

أخيرا قامت الحملة الصليبية التي دعا اليها انوسنت الثالث ، وأعلن عنها سنة ١٢١٥ في مجمع اللاتيران الرابع ، بعد سنتين من موت البابا . وهذه الحملة الصليبية اليتيمة بعد انوسنت الثالث ، والتي تعرف عادة باسم الحملة الخامسة ، تفتح فصلا جديدا في التاريخ الصليبي .

ذلك أن أهم ما كان يميزها أن هدفها كان هو مصر . وكانت ثمة أسباب عديدة تحفز الصليبيين على الهبوط في دلتا النيل بدلا من نهر الأردن القريب ، أهمها سببان : الأول هو اهتمام المدن التجارية الإيطالية بالسيطرة على السوق الرئيسية في حوض البحر المتوسط ، والثاني هو المذهب السياسى والعسكرى الجديد للصليبيين . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التى يقصد فيها الصليبيون غزو مصر . ولكن بينما كانت حملات امالريك فى القرن الثانى عشر تهدف الى تحويل مصر الى تابع ، أو حتى ضمها الى املاك المملكة اللاتينية ، كان هدف الحملة الخامسة هو استرداد شرف وهيبة المملكة اللذين فقدتهما على تراب حطين .

كانت احدى النتائج الهامة للحملة الثالثة هي تلك السياسة التى اقتضت تدمير التحصينات أو « الازالة والمسـاواة بالأرض » ، وهى السياسة التى بدأها صلاح الدين واتبعها من بعده حكام دمشق . فقد أدرك صلاح الدين بحق أهمية التحصينات فى المدن والقلاع بالنسبة لسيطرة الصليبيين على الأراضى المقدسة . إذ أن هذه الحصونات كانت ركيزة لأمن المملكة ، فضلا عن تدعيمها لقدرة الصليبيين على حكم الاقليم وقت السلم . وكان الحكم الصليبي الفعال يمتد حتى نقطة الاعداد المباشر المتمركز داخل التحصينات الصليبية فاذا حدث أن اختفت هذه الاستحكامات أو المعازل الصليبية ، لم تعد هناك وسيلة لاعادة الحكم الصليبي سوى عن طريق الاسترداد الشامل الذى كان يعنى انفاقا ماليا ضخما واعدادا هائلا من القوى البشرية . وبالإضافة الى هذا وبعد الحملة الثالثة صار مثل هذا العمل عرضة للاحباط والاجهاض بواسطة الحاميات الاسلامية المجاورة منذ ان صارت اقاليم المملكة ملاصقة للشريط الساحلى الضيق . وبالتالي بدأ صلاح الدين سياسة التدمير المنظم لكل القلاع الصليبية وتحصينات المدن التى وقعت فى يديه . وحتى معاهدة الصلح التى وقعتها مع ريتشارد اشترطت تدمير عدد من التحصينات الصليبية .

وكان التدمير شاملا ، وقد أجهز حاكم دمشق على القلاع التى لم يدمرها صلاح الدين .

واستنتج الصليبيون من هذا النتيجة المنطقية التالية : وضوح استحالة الاسترداد الشامل نظراً لغدم وجود المال اللازم والقوى البشرية المناسبة ، بل والحماسة المطلوبة لبداية الغزو الشامل مرة أخرى ، وفى ظروف أصعب من تلك التى كانت متوفرة قبل مائة سنة . وكانت النتيجة هى توجيه الحملة الى مصر . ذلك أن الانتصار الكبير على مصر سوف يحقق خضوعها واجبارها على الدخول فى معاهدة سلام تشترط ترك المملكة عند حدودها القديمة . وكان تصور الصليبيين أنه بواسطة التحكم فى المملكة التى سوف تسحب حامياتها من الأرض المقدسة يمكن استعادة المملكة وإعادة تحصينها بفضل الجهود الموحدة للعالم المسيحى . ويمكن تمويل هذه التحصينات من التعويضات التى سوف تدفعها مصر .

كانت هذه هى خطة الحملة الصليبية الخامسة التى استغرقت حوالى أربع سنوات . وكانت هذه الحملة المانية من أكثر من وجه بالاشتراك مع دوق النمسا وملك المجر . واجتمع الكل فى عكا سنة ١٢١٧ ، ورسا الأسطول الصليبي فى دمياط وحاصرها سنة ١٢١٨ . وكان قائد الجيوش الصليبية هو حنا برين ملك القدس بالزواج ، وإن كان الكاردينال بلاجيوس ، نائب البابا ، قد تولى القيادة أثناء الحصار . وتم احتلال دمياط فى سنة ١٢١٩ . وصار القائد الجديد هو الذى يصدر الأوامر . وكان من الأمور المصيرية للحملة انها انتظرت فى دمياط مدة عام كامل لتقسيم الغنائم والأسلاب ، وايضا فى انتظار الامبراطور فردريك الثانى الذى أجبل رحيله الى الشرق أكثر من مرة . وعندما تحركت الجيوش الصليبية أخيرا صوب القاهرة وجدت نفسها قبالة الحصن الجديد الذى أطلق عليه فيما بعد اسم المنصورة ، ومن هذه المدينة قدم السلطان عرضه المتكرر باقرار السلام : ومؤداه أن يسترد الصليبيون المملكة باستثناء الأردن ، ودفع تعويضات مقابل الجلاء عن مصر . وكانت شروطه كريمة

ومع ذلك رفضها بلاجيوس على الرغم من موافقة حنا برين . وفرضت الحرب نفسها . وقطع الجيش الاسلامي الذي تلقى التعزيزات من سوريا الطريق بين الجيش الصليبي ومؤخرته في دمياط وأوقف تقدمه الى القاهرة في الجنوب . ووقعت فصائل الجيش الصليبي في الشراك ، واضطر الصليبيون الى التخلي عن أحلامهم في مصر ثمننا لحريتهم . وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة . وجاء هذا الفشل الجديد اضافة الى خيبة الأمل العامة ، وثارت الاتهامات حول الاهمال في المسئولية . وسرعان ما وجد الصليبيون أنفسهم محطاً لسخرية الرأي العام الأوربي . وكان النتائج القليلة الملموسة لهذه الحملة هي تحصين بعض المدن والقلاع ومن بينها قلعة الحج الضخمة التي كان الداوية يملكونها وقلعة مونتفورت التي كان التيوتون يحكمونها . وكانت هذه التحصينات قد بدأت على أيدي الحملة الخامسة قبل التحرك الى مصر .

وعلى الرغم من كل شيء تجمعت حملة جديدة ، فقد كان الامبراطور فردريك الثاني قد قطع على نفسه القسم الصليبي منذ سنة ١٢١٥ . وكان يؤجل حملته عاما بعد عام بدعوى وجود بعض المشاكل في مملكة صقلية وداخل الامبراطورية فضلا عن بعض المشكلات الصحية . وأخيرا قرر في سنة ١٢٢٨ أن يبدأ حملته . ذلك أن القسم الصليبي الذي كان قد قطعه على نفسه ، ووضعه كامبراطور في العالم المسيحي ، ولقبه كملك لبית المقدس بعد زواجه من ايزابيلا ابنة حنا برين ، جعلت من حملته أمرا حتميا . كما أن الظروف السياسية جعلت من هذه الحملة أقوى الحملات الصليبية . فالبابا جريجوري التاسع كان قد أصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور نظرا لمماطلته ومراوغته الواضحة بشكل أغضب البابا . وكان ذلك هو المنظر الأول في مشهد غريب : فيها هو الزعيم العلماني المحروم من الكنيسة يقود حربا صليبية . واعتبرت ذلك أحداثا غريبة أخرى . فقد كان فردريك الثاني صقليا أكثر منه أي شيء آخر .

ولم يكن الاسلام بالنسبة له مجرد كتاب مفلق ، كما ان المسلمين لم يكونوا مجرد قوم من الكفار الذين يستحقون الفناء فى نظره . ولذا اخذ فردريك يتفاوض مع الملك الكامل حاكم مصر مستغلا مشاكل السلطان فى كل من مصر وسوريا . ونجح فردريك الثانى الذى اثار جيشه الصغير سخرية معارضيه ، وجلب عليه قسوة الأصدقاء ، فى أن يحصل فى فبراير سنة ١٢٩٩ على موافقة السلطان على اتفاقية مشجعة : أولا تترك القدس للصليبيين دون ساحة معبدها ومساجدها ، كما يتخلى المسلمون لهم عن بيت لحم والناصره . ومنح الصليبيون ممرين ، احدهما بين الرملة وبيت المقدس ، والثانى من عكا الى الناصرة عبر الجليل . وربما توقع البعض ان هذا الاتفاق سوف يؤدى الى رآب صدع الخصومات القديمة ، او انهاءها الى الأبد . ولكن العكس هو الذى حدث فقد اثار هذا النجاح غضب البابوية . ونظمت حملة الامبراطور المحروم الى القدس بحيث لا تتصل به الجيوش والنظم العسكرية الصليبية . وعندما دخل الامبراطور المدينة فى نهاية المطاف سككت اجراس القدس بمجرد ان خضعت المدينة للتحريم البابوى .

ودخل الامبراطور كنيسة القيامة ، وتناول تاج بيت المقدس من فوق المذبح ووضعه على راسه ، ولم يشترك فى هذا الاحتفال سوى الفرسان التيوتون المخلصين . وعلى الرغم من التحريم والمنع لم يستطع الصليبيون فى الأرض المقدسة ، سواء منهم المقيمون بها او القادمون من اعالي البحار ، كبح جماح فرحهم بتحرير القدس .

وقد أدانت المعارضة عودة فردريك الثانى الى أوربا باعتبارها تخليا عن المملكة التى لن تكون قادرة على الدفاع عن مكتسباتها الجديدة . وعلى الرغم من أن الهابا قد ألغى قرار الحرمان السابق (والذى أعاد فرضه بعد عدة سنوات) ، فان المملكة قد تمزقت بسبب الحرب بين نواب الامبراطور فى الشرق ، وإبناء الأرستقراطية الصليبية حيث تم الاستيلاء

على التحصينات الامبراطورية في قبرص وفي ارجاء المملكة الصليبية بعد عشر سنوات من الصراع الداخلى ، وقد ادى خلق حكومة ثورية حاكمة الى ظهور طبقة اقطاعية • وبذلك دخلت المملكة الصليبية فى طور التحلل والانهيار •

وكان من حسن طالع الصليبيين ، أن العالم الاسلامى المجاور لم يحرز تقدما • فقد صارت دمشق هى محور المعارضة فى مصر ، كما ان امارة شرق الأردن كانت آخذة فى تغيير حلفائها • وكان الجميع على استعداد لقبول الصليبيين كحلفاء • ومن سوء الحظ أن المملكة اللاتينية كانت تفتقر الى الزعيم • فقد انشق الداوية والاسبتارية على أنفسهم واخذ فريق منهم يؤيد التحالف الدمشقى ، على حين كان الآخر يؤيد التحالف المصرى • وقد نجحت حملة يتوبولد الشـحـبـانى (١٢٣٩ – ١٢٤٠) ، والتي اعقبها حملة ريتشارد الكورنلى Richaraed of Cornell (١٢٤٠ – ١٢٤١) فى توسيع حدود المملكة وضم الجليل فى ظل ظروف الانقسام السائدة فى المعسكر الاسلامى • وكانت هناك بعض محاولات لتدعيم المملكة منها تشييد قلعة للداوية فى ضفد ، وتحصين عسقلان • بيد أن الأخطار الجديدة فى الداخل والخارج لم تلبث أن أجهزت على النجاح الدبلوماسى الذى كان قد تم احرازه من قبل •

لقد بدا التوتر والاستعداد للحرب بين مصر ودمشق وشرق الأردن من ناحية والمملكة الصليبية من ناحية أخرى فى الشريط الخصب المحدود حول شرقى البحر المتوسط كما لو كان نوعا من المراوغة التافهة اذا ما قورن بذلك الاضطراب المهول الذى غير وجه آسيا وحسم مصير شرق أوربا على مدى اجيال ، على الرغم من أهمية الحروب الصليبية بالنسبة نصائر المشاركون فيها • ففى قراقورم فى آسيا الوسطى ظهر نجم جديد هو جنكيزخان حاكم المغول • فبعد ان سيطرت هذه القوة الجديدة على القبائل المغولية اندفع المغول بخيولهم السريعة الصغيرة القوية ليقهروا

الصين في أقل من جيل ، ثم اندفعوا كجلمود صخر خطة السيل من عل يدمر كل شيء في طريقه ، فأخضعوا مناطق السهول الروسية في الغرب حتى سنة ١٢٤١ الى الحدود الألمانية البولندية . وفي الجنوب استولوا على فارس والعراق . وشادوا امبراطورية أوربية آسيوية اكبر من أية امبراطورية سابقة في التاريخ ، ولكن هذه الامبراطورية قامت على انقاض حضارات أخرى سابقة . وكانت موجات الغزو المغولي صوب شواطئ البحر المتوسط ، وكانت الدويلات الصليبية في ذلك الحين على اطراف امبراطورية المغول .

كانت قعقعة الحوافر المغولية تتصاعد وتقترب حين انضم الصليبيون الى تحالف دمشق ضد مصر التي أحست بخطر هذا التحالف القوي فطلبت مساعدة الخوارزميين الذين كانوا قد تحولوا الى مرتزقة يجوبون انحاء الشرق الأدنى بعد أن كانت لهم دولة قضى عليها الغزو المغولي واستولى على املاكها بالقرب من البحر الأسود . وقد أوقع المصريون والخوارزميون هزيمة مريرة بالصليبيين في معركة غزة . وكان السوريون قد نقضوا تحالفهم مع الصليبيين في اللحظة الأخيرة . وبعد ذلك مباشرة هاجم الخوارزمية مدينة القدس في سنة ١٢٤٤ . ولم تعد المدينة الى حوزة المسيحيين بعد ذلك ، كما أنها لم تشهد جيشاً مسيحياً الا بعد سبعة قرون حين احتل الانجليز المدينة المقدسة وانتزعوها من الأتراك العثمانيين بقيادة اللبني .

وقد اثار الخطر المغولي الزاحف مخاوف أوربا ، فأخذت تسعى للبحث عن حلفاء جيد . ومنذ عام ١٢٤٥ ، أي عندما أرسل البابا انوسنت الرابع مبعوثه جيوفاني بيانو كاربيني Giovanni of Piano Carpini الى البلاط المغولي ، وأعقبه بسقارة وليم روبروكيس William of Rubruquis (١٢٤٨ - ١٢٤٩) ، بدأت الشائعات تروج حول وجود مسيحيين بين القبائل المغولية . وكان لهذه الاشاعات ظل من

الحقيقة حيث تمكنت الدعاية الفسطورية في آسيا الصغرى أن تحول عددا من أبناء القبائل المغولية الى المسيحية . وكان من نتائج سقوط القدس والخطر المفصولى المائل أن بدأ التفكير فى حملة صليبية جديدة . وكانت آخر حرب صليبية كبرى هى تلك التى تولى قيادتها سان لويس او لويس التاسع ملك فرنسا . وكانت قبرس هى نقطة التجمع والمتمركز للحملة الصليبية الجديدة حيث أمدت الحملة بالكثير من المؤن والذخائر . وفى ربيع سنة ١٢٤٨ ابحرت الجيوش صوب مصر ، واحتلت دمياط مرة أخرى ، ثم تحرك الجيش باتجاه القاهرة . ولكن حدث ما سبق أن تعرضت له الحملة الخامسة ، إذ وقع الجيش الصليبي فى الفخ عند المنصورة حيث انتهت هجمة طائشة قام بها شقيق الملك الى كارثة ، فقد تم أسر الملك ، وجميع أفراد الجيش الصليبي . وفى مقابل الافراج عنهم اضطر الصليبيون الى الرحيل عن مصر ودفع فدية ضخمة تصل الى حوالى مليون قطعة ذهبية .

انتهت الحملة الصليبية . وقضى أولئك الذين عادوا الى عكا (مايو ١٢٥٠) السنوات الأربع التالية فى تحصين المدن الصليبية الساحلية وتقوية حصونها . فاضافت كل من صيدا وعكا وقيصرية ويافا قلعة وبرجا وسورا الى ما هو قائم بالفعل . الا أن أوربا صمت أذانها أمام كل النداءات بالمساعدة . ولم يتحرك جنوبا سوى حركة قام بها الشباب تدعى البوستورو Peter of Amiens ، الا أنها سرعان ما انتهت على أيدي السلطات العلمانية والكهنوتية ، لأنها اتخذت من الحرب الصليبية شعارا لها كما دأبت على مهاجمة رجال الدين .

وضمنت التحصينات الساحلية وجود المملكة لفترة من الزمن ، على الرغم من أن منطق الصليبيين كان يفترض أن تقوم حملة صليبية جديدة لمساعدتهم فى الأرض المقدسة . وفى الوقت نفسه جرت حادثتان غيرنا من اطار وتركيبه الشرق الأدنى ، فقد حدث إبان حملة لويس التاسع أن قامت

ثورة فى مصر سنة ١٢٤٩ استولت على عرش الايوبيين الذى أسسه صلاح الدين(١) ، وأنت بطبقة المماليك العسكرية الى السلطة بادية بذلك اغرب نظام حكم فى التاريخ : فقد كان المماليك عبيدا جلبوا عبر البحر الأسود ، واعتنقوا الاسلام ، وتمت تنشئتهم كمقاتلين محترفين لا ينضم الى صفوفهم الا من كان مثلهم من الرقيق ، ولكن بمجرد قبوله فى صفوف المماليك تصبح امامه الفرصة لكى يصل الى أعلى مناصب الدولة والجيش .

وفى سنة ١٢٦٠ كان المملوك بيبرس هو الرجل الحاكم فى مصر ، وهو قائد ممتاز ورجل دولة هائل القدرة ، وهو من أعظم حكام العالم الاسلامى . فقد استطاع أن يغير مصير الشرق الأدنى فى أكثر من اتجاه ، فسرعان ما وضع يده على موارد مصر المالية واستبدل الايوبيين الكسالى برجال عصاميين يتدفقون نشاطا وحمية . وكان لاستيلاء المماليك على الحكم فى مصر أثره من حيث تعميق هوة الخلاف بين القاهرة وسوريا التى كانت ما تزال تحت حكم امراء بنى أيوب . وكانت المواجهة بين الطرفين حين وصل الطوفان المغولى الى العراق ، واستولت القبائل

(١) الحقيقة أن وصف استيلاء المماليك على الحكم فى مصر بأنه بيبرس احياء الخلافة العباسية فى مصر محاولا أن يكتسب من خلالها ثم قانهم دبورا ما يشبه الانقلاب الصامت للاستيلاء على السلطة ، ثم اعاد ثورة يجافى الواقع الى حد كبير . ففى تصورنا أن وثوب أولئك العبيد السابقين على عرش البلاد انما جاء استجابة للتطورات السياسية التى ألمت بالعالم الاسلامى فى منتصف القرن الثالث : فها هى مساحة الاراضى الاسلامية على أرض الأندلس تنقلص بفعل ضربات الاسترداد الأسبانية على حين سقطت الخلافة العباسية فى بغداد ، فى الوقت الذى كان فيه الأيوبيون غارقون فى منازعاتهم وحروبهم الداخلية . وقد أدى انتصار المماليك فى المنصورة ، ثم فى عين جالوت الى تأكيد صورتهم باعتبارهم القوة العسكرية الوحيدة القادرة على الدفاع عن العالم الاسلامى . ومن الشرعية التى كان يفتقر اليها حكمه .

انظر قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٩) .

المغولية على بغداد سنة ١٢٥٨ . ولكي يتم تحاشي كارثة كونية اذا ما سفك دم الخليفة المقدس ، وضع الخليفة الثامن والثلاثون واخر خلفاء بني العباس في غرارة ، وخنق حتى مات ، ثم استولت الجيوش المغولية بقيادة هولاكو على دمشق . وياتت الحرب مع المصريين وشيكة الحدوث ، وقنع الصليبيون بدور المتفرج في هذه المواجهة الكبيرة ، فلم يكن لهم حول ولا طول ، كما كانوا يفتقرون الى الزعامة ، كما اضعفتهم الحروب الداخلية بين الكومونات الايطالية ، على الرغم من معركة عين جالوت الحاسمة (١٢٦٠) قد دارت رحاها على اعتاب ديارهم . ولقى المغول هزيمة نكراء ، ثم تقهقروا بسرعة في اتجاه سوريا . وكانت تلك معركة من معارك التاريخ الحاسمة التي قررت مصير الشرق الاوسط ومستقبله ومنعته وقوعه في براثن المغول . ثم حقق بيبرس انتصارات اخرى دفعت بالمغول مرة اخرى الى فارس وارمينيا .

وبمطاردة المغول المتقهقرين صار بيبرس سيدا على سوريا ، واحاط ببقايا مملكة الصليبيين من كل اتجاه ، وكان من السهل عليه انذاك ان يهاجمها ويدمرها ، ولكن مهام اخرى اكثر اهمية كانت تشغله . فعلى الرغم من انتصاراته كان المغول لايزالون يشكلون خطرا حقيقيا . واطلق بيبرس من جديد شعار الجهاد ضد المغول في هذه المرة . كما حاول تكوين حلف اسلامي بضم مغول القرن الذهبي على شواطئ البحر الاسود .

ونجحت ثلاث حملات قصيرة (١٢٦٢ - ١٢٦٦) في حرمان الصليبيين من صفد ومن قلاع اخرى في الجليل . كما استولى على قيصرية وارسوف وحد من مساحة الشريط الضيق الذي قامت عليه المملكة ، وتم عزل مدن الساحل الصليبية عن بعضها البعض بواسطة الاراضي التي يسيطر عليها المسلمون . وبدا لوهلة ان حربا صليبية جديدة سوف تدور زحاما وتستخدم رؤوس الجسور الصليبية لكي تبدأ حربا

استردادية ضد المسلمين • وبالفعل بدأ لويس التاسع فى تجهيز حملة كبيرة ، ولكنها اتجهت الى تونس التى كان حاكمها يزعم أنه على استعداد لقبول المسيحية • ويقال ان الملك لويس التاسع كان يريد كلمة القدس القدس بصوت خفيض وهو على فراش الموت • بيد ان فكرة الحروب الصليبية كانت قد انتهت • اما محاولات جيمس ملك ارغونة الذى وصل الى منتصف الطريق الى الأراضى المقدسة ، وادوارد الأول ملك انجلترا ، فكانت مجرد جزء من قانون الفروسية أكثر من كونها محاولات لشن حرب طليبية قادرة على تغيير الموقف • ولكنها كانت سببا فى اعاقه بييرس وخلفائه الذين تملكتمهم فكرة امكان قيام حملة صليبية جديدة • وطالما لم تكن المدن الصليبية تضايق حكام الممالك ، كان الممالك على استعداد لمنح هذه المدن الهدنة التى كان بوسعهم نقضها متى شاءوا وحين يرون الوقت مناسباً لذلك •

وأعطى تاج بيت المقدس لآل لوزينان فى قبرس ، ولكن جهودهم المخلصة لم تغير شيئا من الموقف • وأخذ الوجود الصليبي يتلاشى شيئا فشيئا • فتم الاستيلاء على انطاكية سنة ١٢٨٦ وطرابلس سنة ١٢٨٩ • وأخيرا سقطت عكا ، ذلك الحصن الصليبي الكبير بعد حصار باسل دام اربعة واربعين يوما ، ثم سقطت عكا فى ١٨ مايو ١٢٩١ • وكانت هذه هى النهاية ، ففي اغسطس ١٢٩١ هجر الداوية قلعة الحج ، اعظم القلاع الصليبية • وكان ذلك هو فصل الختام بالنسبة للحج الأوربي الكبير • ونهاية للملكة الصليبية •

الشرق (١)

كانت المرة الأولى التى تحتك فيها جماهير الصليبيين بالشرق ابان الحملة الأولى فى مكان ما بين البلقان وايطاليا . وكان الشرق فى هذه المرة مسيحيا . فالشرق المسيحى ، الذى كان جزءا من الامبراطورية الرومانية القديمة . كان هو الامبراطورية البيزنطية . وكان الطريق المار بالبلقان والقسطنطينية وبعض مناطق آسيا الصغرى بمثابة البوابة التى تؤدى الى الشرق بأسره . فها هو العالم الاسلامى الحصين على مقربة من أسوار العاصمة البيزنطية . ومن هذا المكان كان العالم الاسلامى يعتمد باتجاه الشرق على اتساع رقعة تضم العراق وسوريا والأراضى المقدسة حتى الهند فى الشرق ، ومصر وشمال افريقيا فى الغرب .

ولم تكن هاتان الواجهتان الشرقيتان ، الاسلامية منهما والمسيحية ، أرضا تدخل فى الخريطة التى يعرفها الرجل الغربى ، سواء كان انجليزيا أو فرنسيا أو ألمانيا . كانت صورة الشرق الخرافى الغامض العظيم فى مخيلة الغربى تتألف من عناصر متنوعة تجمع ما بين اللغات غير المسيحية التى يتحدث بها مسيحيو الشرق أى السريانية واليونانية والعربية ، الى جانب مدن الشرق العريقة فى شهرتها والأديرة والكنائس العظيمة ، عن ذلك الأدب غير اللاتينى الذى يلقي الحفافة والاحتفال ، ومن ملامح هذه الصورة أيضا تلك الثياب الفخمة التى كان

وقد رأينا ترجمته على هذا النحو لكى يلائم القارئ العربى .
(١) عنوان هذا الفصل كما كتبه المؤلف هو The Levant .
(المترجمان)

الأكليروس الشرقي يتميز بها والتي تليق بفدية الأمراء ، والثياب الموشاة بخيوط الذهب والفضة التي يرتديها رجال الدولة والجنود . هذه العناصر جميعها خلقت في مخيلة الرجل الغربي صورة اقرب الى صورة الجنة الأرضية . ولم يكن الشرق غريبا تماما على الايطاليين والنورمان في جنوب ايطاليا ، فقد كان الايطاليون يتبادلون التجارة مع كل من الشرق الاسلامي والقسطنطينية . أما النورمان فقد تعرفوا على الشرق من خلال الغزوات التي شنوها على الأملاك البيزنطية قبيل الحروب الصليبية . فضلا عن أن مدينة البندقية التي تطفو فوق جداولها وقنواتها العديدة كانت مدينة شرقية السمات على الرغم من الأعلام المسيحية التي كانت ترفرف فوقها ، كما كانت هي المنفذ الذي يدلف منه الغرب الى الشرق . فضلا عن انها كانت نقطة التفتيش الأوربية قبل الولوج الى عالم الشرق الغامض الساحر .

وعلى مدى قرنين من الزمان ، عاش الغربيون تحت سماء الشرق يحيط بهم هذا الشرق وأبناؤه . من الارستقراطية العربية والفارسية ، والبدو الرحل الذين كانوا يجوبون الآفاق فيما بين الفرات والنيل ، والقادة الأتراك وحامياتهم ، والدروز ، وطائفة الحشاشين الرهيبة ، فضلا عن فلاحى سوريا وفلسطين ووادي النيل . وكان الجميع يخضعون لاحدى سلطتين ، اما الخليفة العباسى السنى فى بغداد ، واما الخليفة الشيعى الفاطمى فى القاهرة . كذلك كان هناك المسيحيون الشرقيون الذين كان بعض أبناء الغرب المسيحي قد توجهوا صوب الشرق لانقاذهم من النير الاسلامى ، الا ان الود والتفاهم بين الجانبين ظل مفقودا . فقد كان الامبراطور البيزنطى القابع على ضفاف البسفور هو حاكم المسيحيين الشرقيين . وحين صافحت عيون الغرب قصور الامبراطور وتيجانه التي تزهر بما يرصعها من جواهر ولآلىء ، والملابس المزركشة بالآلىء وخيوط الذهب التي يرتديها رجال الدولة ورجال الجيش الغريب

المؤلف من اليونانيين ، والسلاف ، والفيكنج فضلا عن الأتراك العاملين في جهاز الشرطة . . . حين حدث هذا وقع الغربيون في شباك الحيرة والتخبط . وفي الشرق أيضا قامت كنيسة الروم الارثوذكس وبطارتها الذين أصرروا على عدم الاعتراف بشرعية السلطة البابوية في روما ، وظلوا يفاخرون بتراث يمتد على مدى ألف عام ، زاعمين أن هذا التراث أكثر أصالة من تراث الغرب المسيحي . وقد استقر بطاركة هذه الكنيسة وأساقفتها ، لا في داخل حدود الامبراطورية المسيحية فحسب وإنما أيضا الأحوال . وكان من الصعب على الرجل الغربي أن يفهم هذا الموقف في بلاد الاسلام التي لم تكتفى بقبولهم فقط ، وإنما اكرمتهم في غالب الغريب . ولكن اصرار البيزنطيين على العمل المستقل في البلاد المحررة حديثا كان يجلب له الضيق والضجر لكون هذه البلاد تحت سيطرة المسيحيين اللاتين .

وفي الشرق أيضا كانت ثمة ممالك مسيحية أخرى ، وإن كانت يدين بالارثوذكسية ولكن بعد الغربي عن موطنه كان يجعله أكثر ليما ، وربما كان يغمره شعور بالرضا والفخر حين يعلم بوجودها ، ففي أقصى الشمال وعند جبال القوقاز كانت توجد مملكة جورجيا المسيحية التي لعب ملكها وأمرائها وجيشها دورا حيويا في سياسية آسيا الصغرى وكان لسكانها لغتهم وأبجديتهم الخاصة بهم ، كما كانت تربطهم بالأراضي المقدسة علاقات قديمة . وكثيرا ما توجهت سفاراتهم وقساوستهم الى بلاط المسلمين وحكام المغول . كذلك كانت هناك مملكة أرمينيا الصغرى عند جبال طوروس وعلى طول سهل كليكي الساحلى في آسيا الصغرى . وكان التأثير متبادل بين هذه المملكة وبين الفرنج نتيجة اتصالها المباشر بادارة انطاكية فيما بعد . وكان حكامها المعروفون ببسالتهم الحربية قد أقاموا نوعا من البلاط الاقليمي على النمط البيزنطى ، كما كان لمقاتليها شهرة ذائعة . وكثيرا ما قدمت أرمينيا للبلاط الاسلامى عددا من الوزراء

الذين اعتنقوا الاسلام . كما كان الأرمن يعملون كجنود مرتزقة فى خدمة حكام الشرق الاسلامى والمسيحى على السواء . وكان الصليبيون قد ألفوا زى رجال الدين والرهبان الأرمن ، كما اعتادوا على صلبانهم ذات الفروع المشقوقة والنمط المعمارى الفريد الذى ميز محاريبهم ، فضلا عن اللاهوتيين والمثاليين الأرمن الذين كانت أعمارهم مألوفة فى الأوساط الصليبية ، وبعد جيلين من التعايش معا أدى الزواج المختلط بين الأرمن والصليبيين الى أن صارت اللغة والعادات الفرنسية عنصرا هاما وأساسيا فى حياة البلاط الأرمنى .

وربما كانت هذه الممالك المسيحية الحقيقية القائمة على حدود العالم الاسلامى أقل فى شهرتها من الامبراطورية الخرافية التى قيل ان القديس يوحنا يحكمها اما فى الهند الغربية أو فى اثيوبيا التى لا تقل غرابة عن الهند ، والتى كانت شعاع الأمل الذى يومض بين دياجير الخوف من التهديد الاسلامى باعتبارها خصما من خصوم الاسلام الكثيرين(٢) . ولكن الذى لم يكن خرافة حقا هو وجود مملكة مسيحية فى الحبشة كانت ترتبط دينيا ببطريك الاسكندرية القبطى . وقد زادت هذه المملكة المسيحية برهبانها واديرتهم التى تذكرنا بأقدم المؤسسات الديرية فى العالم المسيحى من عدم تجانس الشرق . وكان المسلمون فى مصر هم أقرب الجيران اليهم ، ولكن أقباط مصر المسيحيين كانوا يرتبطون مع هذه المملكة ، التى ادعى حاكمها انهم ينحدرون من نسل سليمان ومملكة سبأ ، بأوثق الروابط والصلات .

(٢) لم يكن هناك وجود حقيقى لهذه الامبراطورية التى شاعت القصص عنها وعن حاكمها « برسترجون » فى العصور الوسطى ، وربما كان لقصور المعلومات الجغرافية لدى الغرب آنذاك الفضل فى ترويج قصة هذه الامبراطورية الدهمية ، والخلط بينها وبين الحبشة المسيحية التى كانت تابعة للكنيسة المصرية منذ وقت مبكر .

(المترجمان)

كان الشرق ، المسلم والمسيحي ، هو الاكتشاف الكبير بالنسبة للصليبيين . وكان من الطبيعي أن يعلم الغرب بوجود الشرق ، فقد زاره الحجاج والتجار والمرتزقة . ولكن بقدوم الصليبيين الى الشرق ، صار هذا الشرق جزءا لا يتجزأ من التصور الأوربي للعالم ، ومن تصورهم للعالم المسكون . وكان هذا تطورا رئيسيا في الشعور الغربي الآخذ في النمو فيما يتعلق بالبلدان والشعوب والثقافات الواقعة فيما وراء أوربا . وقد لعبت العناصر الشرقية المتعددة دورا في حياة المستعمرات الصليبية في الشرق . لقد تمت المواجهة مع الشرق الاسلامي على المستوى العسكري ، كما تمت أيضا على مستوى العلاقات الاقتصادية ، لأن المسلمين كانوا يشكلون غالبية السكان في المناطق التي وقعت تحت السيادة الصليبية .

وكان بعض المسلمين القاطنين على سواحل الشرق من سلالة غزاة القرن السابع العرب الذين قضوا على السيادة البيزنطية على سوريا وفلسطين ومصر . أما غالبيتهم فكانوا من سلالة الأراميين والكنعانيين القدماء الذين خضعوا للتأثير الهليني ثم الروماني . وقد اعتنقوا المسيحية ثم تحولوا الى الاسلام . ويبدو أنه في الشمال ، أي في مقاطعات انطاكية والرها ، كان المسلمون أقل عددا منهم في طرابلس وفي مملكة بيت المقدس الصليبية . ذلك أن قرب بيزنطة ، الى جانب حقيقة أنه قد اعقبت السيادة الاسلامية التي استمرت على هذه المناطق ثلاثة قرون ، فترة مائة عام تقريبا من السيادة البيزنطية التي استمرت حتى عشية الغزو الصليبي . كل هذا ربما يكون السبب وراء بقاء قطاعات كبيرة من المسيحيين ، أو ارتداد البعض عن الاسلام . أما في الجنوب ، في المملكة اللاتينية ، فقد كان الوضع مختلفا حيث كانت المنطقة قد عزلت عن بيزنطة ما يقرب من أربعة قرون . وكانت اللغة العربية هي اللسان (م ٧ - عالم الصليبيين)

المشترك للسكان حتى فى المناطق التى لم تكن فيها للاسلام السيادة الكاملة . وعلى الرغم من اختلاف التوزيع السكانى ، فان العربية لم تكن لغة المسلمين فقط وإنما تحدث بها جميع الطوائف المسيحية واليهود والسامرة ، وفى القرن الثامن ، أى فى عهد هارون الرشيد الذائع الصيت ، حلت العربية محل السريانية واليونانية اللتين اقتصرت استخدامهما على الشئون الدينية ، وتخلفتا عن مكانيهما فى الجهاز الحكومى والشارع والسوق للغة العربية . وما حدث بالنسبة للغة حدث ايضا فى مجال الأزياء ، فقد كان أصحاب الأديان الأخرى يرتدون الثياب الشرقية نفسها الا اذا فرضت السلطات الشرعية عليهم غير ذلك .

وكان المسلمون يعيشون فى المدن وفى الريف . ولكنهم فى الوقت الذى كانوا يشكلون فيه أقلية فى عواصم الصليبيين مثل الرها وانطاكية وطرابلس ، كان عددهم كبيرا فى المراكز العمرانية الصغيرة . وبعد الغزو الصليبي مباشرة والمذابح الشاملة وعمليات طرد السكان الأصليين فى المدن (غالبا ما كانوا من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم يفرق الصليبيون بينهم بسبب الزى المشترك) عاد المسلمون ثانية ليستقروا فى المدن . وكانت القدس هى الاستثناء الوحيد ، لأن الصليبيين أصدروا قرارا بأنه من الرجس أن يعيش فى المدينة التى شهدت آلام المسيح أولئك الذين دنسوا اسمه .

وكان الريف كله مسلما ، فقد استمرت المجتمعات القروية الاسلامية تعمل تحت الحكم الصليبي . وظلت الخلايا الاجتماعية الأساسية كما هى ، على الرغم من أن الدولة الاسلامية فقدت سيادتها وسلطتها . وتركزت الحياة الدينية فى القرى حول المساجد الصغيرة ، واستمر القضاء والعلماء يباشرون خدماهم الدينية وغير الدينية لأنه لم يكن ممكنا الاستغناء عنهم فى شئون الزواج والميراث . وقد نجت بعض المساجد ، حتى فى المدن الكبيرة من التحويل الى كنائس وظلت بأيدي المسلمين .

فضلا عن أن الصليبيين اعترفوا بالسلطة التقليدية للشيوخ . ومنح الرئيس ، وهو شيخ القرية ، نوعا من السلطة وكان هو الذى يمثل القرية فى تعامل مع الحاكم الصليبي . وفى حالة عدم وجود وكيل للخراج للاشراف على ضرائب الدخل ، كان الرئيس يتحمل هذه المسئولية بتقويض من الفرنج .

ولم يكن لقاء الحاكم الصليبي بالمسلمين لقاء حاكم بمحكوم فحسب ، وانما كان لقاء على المستوى الاقتصادي ، لقاء المستغل بالمستغل . وربما يكون من الغريب أن هذا الجانب من العلاقة لم يكن عنيفا كما يفترض البعض ، والاقتباس التالى من ابن جبير الرحالة المسلم الذى رحل مع قافلة من دمشق الى عكا فى طريقه الى تونس يوضح ذلك . فمن بيت جن عند سفح جبل حرمون وبانياس عبر الحدود الى المملكة اللاتينية مارا خلال الحصن الصليبي فى تبنين وصل الى « . . . وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلهم مسلمون ، وهم مع الأفرنج على حال ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم فى غير ذلك . ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا . ومساكنهم بأيديهم ، وجميع أموالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الأفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقيهم كلها للمسلمين وهى الضياع والقرى . وقد اشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من اهل رساتيقي المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الاسلامي جور صنقه ، ويحمد سيرة صنقه وعدوه المالك له من الأفرنج ويأنس بعدله . . . » (٣)

(٣) النص من رحلة ابن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٩١ . (الترجمة)

أما في المدن ، فلا شك أن المسلمين وجدوا أنفسهم في موقف حرج كإقلية محتقرة وغير موثوق بها بالنسبة للفرنجة . ومع ذلك فإن حساسية ابن جبير تجاه الخنازير التي كانت تتجول في شوارع المدن المسيحية ، والصلبان التي كانت ترتفع في كل ركن من أركانها لم تحل دون المسلمين في دمشق وتجار الموصل من الابقاء على فروع متاجرهم في الأسواق المسيحية الكبيرة على الشاطئ .

وليس هناك شك في أن الأرستقراطية المسلمة والمثقفين المسلمين ، وهم عادة سكان المدن ، قد اختفوا مع بداية الغزو الصليبي تاركين الفلاحين والمهنيين والتجار . إلا أن الصليبيين كانوا على معرفة جيدة بأبناء الطبقة العليا في المجتمع الإسلامي . فقد كان الحكام المسلمون وأبناء الأسر الحاكمة يزورون المدن الفرنجية ، كما أن الاتقياء منهم كانوا يزورون المدينة المقدسة . كما عرف الفرنجة كثيرين من الجغرافيين والأطباء وغيرهم من أبناء الطبقة المثقفة . ومع مرور الوقت نشأت علاقة غريبة في بابها بين البارونات الصليبيين والحكام المسلمين . ولم يقبل أي من الطرفين الآخر فيما يتعلق بالسلوك والثقافة . إلا أن نوعا من الاحترام المتبادل ساد العلاقة بين الطرفين ، وهو احترام أشبه باحترام المقاتل لرفيق السلاح حتى وإن كان من أعدائه .

والى جانب السنة والشيعية عرف الرحالة الأوروبيون القواقون للاستطلاع أن هناك في جبل لبنان طائفة مسلمة تعرف باسم الدروز . وقد كان أبناء هذه الفرقة التي تأسست في القرن الحادي عشر يعتقدون أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله هو آخر تجسيد للالهية ، وتوقعوا عودته .

وكانت هناك طائفة أخرى تفوقهم شهرة هي طائفة الحشاشين المتطرفة والتي كان أفرادها يستخدمون أية وسيلة ، بما في ذلك القتل ، لحماية مصالحهم . ومع مرور الوقت صاروا خطرا على المسيحيين

والمسلمين على السواء . وقد وصف وليم الصوري ، الذي كان يعيش في الاراضي المقدسة وأصبح اكبر مؤرخيها ، طائفة الحشاشين الوصف التالي : « في اقليم صور في فينيقية ، وفي أبرشية طرطوس كانت تعيش جماعة من الناس يمتلكون عشرة حصون بالقرى الملحقة بها ، وكان عددهم كما سمعنا ستين الفا وربما اكثر . وعادة هذه الجماعة ان يختاروا حاكمهم ، لا عن طريق الوراثة ، ولكن بامتنياز الاحقية . وعنهما يتم اختيار هذا الزعيم يطلقون عليه لقب « العجوز » ، او « الشيخ » ، ولايقبلون لقبا آخر ولا يحول شيء دون خضوعهم له وطاعتهم العمياء لأوامره . وهم يعتبرون أن أى شيء يطلبه ممكن وغير مستحيل ، وياخذون على عاتقهم تنفيذ اخطر المهام تنفيذا لأوامره . فاذا حدث ، مثلا ، أن كان هناك أمير جلب على نفسه كراهية هذه الجماعة او عدم الثقة يضع الزعيم خنجرا في يد واحد او اكثر من اتباعه ، ويسرع هؤلاء لتنفيذ مهمتهم في الحال ، بصرف النظر عن النتائج ، او فرص النجاة ، ويعملون جاهدين طوال الوقت حتى تحين اللحظة المواتية لتنفيذ امر الزعيم . . . »

كما يصفهم ماركو بولو بهذه الكلمات :

« . . . لم يكن مسموحا لأى انسان ان يدخل حديقة العجوز غير اولئك الذين يريدون ان ينضموا الى جماعته . وكان هناك حصن منيع عند مدخل الحديقة ، وكان من القوة بحيث يكفى لمقاومة العالم بأسره ، ولم يكن ثمة طريق آخر للدخول . وقد كان هذا الرجل يحتفظ فى بلاطه بعدد من الشبان من أبناء المنطقة فيما بين الثانية عشرة والعشرين يصلحون لحياة الجندية . وعندئذ يدخلهم الى حديقته على مرات ، فى كل مرة اربعة ، او ستة ، او عشرة . ويعطيهم شرابا سائلا يروحون بعده فى سبات عميق ، ثم يأمر بحملهم الى الحديقة حتى اذا ما استيقظوا وجئوا انفسهم بين جنباتها . »

« وعندما يستيقظ هؤلاء ويجدون أنفسهم فى مكان جميل رائع يظنون أنهم فى الجنة حقا ، وتتولى النسوة والصبايا العذارى مداعبتهم ليدخلن المسرة على قلوبهم ،

« وحين يريد العجوز قتل أمير ما ، يأمر واحدا من أولئك الشبان بقوله : اذهب واقتل فلانا ، وعندما تعود ستحملك ملائكتى الى الجنة ، أما اذا مت فسوف أرسل ملائكتى لتعيدك الى الجنة . »

وعدد قليل جدا من بلدان العالم هى تلك التى يتمركز فيها هذا العدد الكبير من الطوائف الدينية فى منطقة واحدة . وهذه الظاهرة الغريبة ، التى جعلت من الشرق معرضا للتاريخ الاسلامى والمسيحي واليهودى ، انما جاءت نتيجة لعدد من العوامل . فبالنسبة للمذاهب المسيحية كان السبب الرئيسى سياسيا ؛ ذلك ان المذاهب اللاهوتية التى اعتبرت من قبيل الهرطقة ، وتعرض اتباعها لسوط الاضطهاد بايدى اتباع العقيدة الارثوذكسية الرسمية فى الامبراطورية البيزنطية ، قد وجدت لنفسها الملجأ والملاذ خارج حدودها . وكانت الجماعات القومية قد تبنت هذه المذاهب المخالفة كما لو كانت هى عقيدتها الأصلية ، الامر الذى خلق الكنائس القومية فى جورجيا ، أرمينيا ، ومصر ، والحبشة . ولم يتبلور البعض الآخر فى اطرار قومية ، ولكنها كانت تمثل قطاعات كبيرة من السكان . بل كانت تمثل ، أحيانا ، مقاطعات بأسرها داخل حدود العالم الاسلامى الواسع بما ساد من تسامح ، كما حدث بالنسبة لليعاوية ، والموارنة ، والنساطرة . ومع ان اختلاط الطوائف المسيحية عبر عن نفسه بشكل واضح فى العراق وسوريا وفلسطين ، فان للمدينة المقدسة الحق فى أن تفخر بوجود أكبر مجموعة منها . فقد كانت جاذبية مهد الدين سببا كافيا لكل طائفة مسيحية لكى تتمسك بمكانها فى المدينة المقدسة . فقد كان السير فى شوارع القدس فى العصور الوسطى ، مع امعان النظر فى الكنائس اللاتينية الفاخرة ، والكنائس اليونانية

العديدة ، فضلا عن الكنائس الصغيرة المتواضعة لبقية الطوائف ، أشبه ما يكون بالتجسوال في أرجاء متحف غنى بكنوزه من متاحف التاريخ الكنسى .

وكانت الطائفة اليونانية هى أكبر الجماعات المسيحية ، كما كانت كنيسة بيزنطة هى أكبر الكنائس . ومع أن قوتها كانت تتركز فى المقاطعات الشمالية ولا سيما فى أنطاكية . فأنها كانت موجودة بشكل ما فى المملكة اللاتينية . وقبل وصول الصليبيين كانت هى أغنى الكنائس الواقعة تحت الحكم الاسلامى وأكثرها تنظيما . ولذا فانه مما يثير الحيرة أن الصليبيين ، الذين أقسموا فى كليرمونت على تحرير المسيحيين البيزنطيين من الخطر الاسلامى ، قد تحولوا الى مناوئين ، بل وقطاع طرق . وقد أدى الى هذا التطور خليط غريب من الظروف . فمن الناحية العقيدية ، فقد كان اللاتين يأملون فى أن البيزنطيين ليسوا هراطقة وانما هم منشقين عن روما بشكل مؤقت . وبما أن طقوس الكنيسة البيزنطية واكليروسها كانت صحيحة ، فقد كان من الممكن اغفال الخلافات البسيطة فى العقيدة والتغاضى عن الانحرافات فى الخدمة الكنسية فى سهولة . وقد كان الامتثال اللاهوتى أو الموافقة هى العنصر الحاسم فى العلاقات بين اللاتين والبيزنطيين . ذلك أن اللاتين لم يكونوا بقادرين على تصور موقف يكونون فيه تحت سيادة رجال الدين الشرقيين ، كما لم يكن ممكنا من الناحية اللاهوتية أن تقبل وجود سلطة دينية لاتينية شرقية موحدة . ومن ثم حل بطريرك لاتينى محل البطريرك البيزنطى فى انطاكية ، وحدث الشئ نفسه فى القدس بعد الغزو الصليبي مباشرة . وبعد أن خلع الصليبيون أساقفة الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية ، أو أعلنوا خلو الكراسى الاسقفية ، عين الصليبيون أساقفتهم وطلبوا من رجال الكنيسة البيزنطية الاعتراف بالأساقفة اللاتين الجدد والخضوع لهم . وكانت النتيجة أن وجدت حالة من التوتر الدائم بين البيزنطيين واللاتين ، فقد انسحب البطاركة الشرقيون

الى القسطنطينية بعد أن حرموا من كراسيهم ، وتوالى تعاقبهم فى العاصمة البيزنطية كأساقفة اسميين للبلاد التى قهرها الصليبيون . وبقيت الشرائع الدنيا من رجال الدين فى المقاطعات الصليبية ، وان اضطروا الى اعلان طاعتهم الأسمية لللاتين .

وكان تأسيس أى كنيسة لاتينية يقترب دائما باتلاف الكنائس البيزنطية وهو الأمر الذى وجد لنفسه التبرير الشرعى فى كونه التوارث المألوف من جانب اللاتين لأمالك البيزنطيين السابقة . وتجلت هذه العملية بوضوح فى الكنائس الكبرى وفى المدن أكثر من الريف . ومع ذلك لم يختلف رجال الدين البيزنطيون الذين ظلوا يحتفظون بطقوسهم ومراسمهم الدينية المتميزة فى كنيسة القيامة ، وفى كنيسة الميلاد فى بيت لحم . فضلا عن انه فى الأوقات التى كانت فيها العلاقات السياسية أكثر ودية ، كما حدث فى منتصف القرن الثانى عشر ، عندما حدث تحالف صليبي بيزنطى فى عرض البحر ، رأى اللاتين أى يعينوا بطريركا شرقيا فى أسقفية انطاكية . وانفق الامبراطور البيزنطى بسخاء على تزيين الكنيسة فى بيت لحم حيث أعلنت الكتابات التى نقشت على جدران الكنيسة عن مولد الروح المسكونية الجديدة .

وايا ما كان وضع رجال الاكليروس الشرقيين فى الكنائس ، فقد ظلت أديرة الرهبان فى أيديهم ، وتم الحفاظ على تراث الرهبنة فى الأرض المقدسة . أما تراث الرهبنة المصرى ، الذى هو أقدم تراث رهبنة فى المسيحية ، فقد حفظته الأديرة القديمة فى صحراء يهوذا ، وعلى شواطئ الأردن . وظلت أديرة قرنطل ودير مار سابا ، ودير كوزيبا ، فضلا عن دير سانت كاترين فى سيناء بيهائه وعزلته ، . . ظلت هذه الأديرة ملاذا للراهب الهارب من هذا العالم . وقد تغنى الأدب الكنسى القديم ، وتراويل الكنيسة الشرقية بدوام الكنيسة الارثوذكسية ودوام المجد الالهى .

وبينما كان عدد رجال الدين البيزنطيين كبيرا ، كان مجموع السكان الروم الارثوذكس كبيرا فى الشمال ، قليلا فى المملكة اللاتينية ، وكان اتباع الكنيسة السوروية يكونون غالبية السكان المسيحيين فى المملكة . وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا ورثة الآشوريين القدماء كما كان بعض الصليبيين يعتقدون ، فقد كان السورويون من قدامى السكان الأصليين فى الأرض المقدسة وحافظوا على هويتهم الدينية وسلطة كنيستهم ورجالها تحت حكم الاسلام . وقد احتفظ لنا أحد أساقفة عكا فى القرن الثالث عشر بوصف واضح لأولئك المسيحيين الشرقيين ، على الرغم من أن حدة طبع هذا الأسقف قد أفسدت هذا الوصف :

« هناك قوم آخرون استقروا على هذه الأرض منذ القدم باسم أرباب شتى وحملوا نير العبودية بالتوالى تحت حكم اليونان والرومان واللاتين والبرابرة والمسلمين والمسيحيين . وأولئك القوم عبيد فى كل مكان واتباع يحتفظ بهم أسيادهم لأغراض الفلاحة ، وغيرها من الأعمال الخسيسة . وهم جميعا عازفون عن القتال ولا فائدة منهم فى المعركة كالنساء . ومع أن بعضهم يحملون القسى والسهام ، فإنهم غير مسلحين ، وعلى استعداد للهرب . هؤلاء القوم يعرفون باسم السوريان وهم غالبا غير أهل للثقة ، منافقون ، وشعالب مأكرة كاليونانيين . وهم كذابون خوانون ، يعشقون النجاح ويمكن رشوتهم بسهولة . وهم رجال يقولون ما لايعنون . ولا يابھون للسرقة والنهب ، فمن أجل حفنة صغيرة من المال يتحولون الى جواسيس ينقلون أخبار المسيحيين الى المسلمين الذين قربوا بينهم وتكلموا لغتهم ، وغالبا ما حاكوا طرقهم الملتوية . لقد خالطوا الوثنيين وتعلموا أفعالهم وحبسوا زوجاتهم كما يفعل المسلمون . ولفوا زوجاتهم وبناتهم بالثياب حتى لايراهم أحد . ولم يخلقوا نذونهم على نحو ما يفعل البيزنطيون والمسلمون وجميع الشرقيين ، وانما يعنون بها عناية كبيرة ويمجدون فيها على وجه الخصوص شرف الوجه وكرامة الانسان وعظمته معتقدين أن الذقن علامة على الرجولة » .

« ويستخدم السوريان لغة المسلمين في حديثهم العادى ، كما يستخدمون الخط العربى فى الأعمال والتجارة وكافة أنماط الكتابة الأخرى ، فيما عدا الكتاب المقدس وغيره من الكتب الدينية اذ يستخدمون فى كتابتها الأبجدية اليونانية . ويتبع السوريان قواعد البيزنطيين وعاداتهم فى مراسمهم الدينية وغيرها من الأمور الروحية ويطيعون البيزنطيين باعتبارهم سادة لهم . اما بالنسبة للأساقفة اللاتين الذين يقيمون فى أسقفياتهم ، فانهم يعلنون طاعتهم الاسمية لهم تظاهرا وخوفا من أسيادهم ، لأن لهم اساقفة بيزنطيين وهم لا يخشون التحريم لأنهم يقولون أن اللاتين جميعا محرومون ، ومن ثم فانهم لا يستطيعون حرمان أى انسان » .

وبينما كان البيزنطيون والسوريون المسيحيون يعتبرون منشقين فقط ، كانت بقية الكنائس المسيحية تعتبر بدعا دينية محضة فى رأى الصليبيين . هذه الكنائس هى الكنائس القومية فى جورجيا وأرمينيا ومصر (الأقباط) ، وأثيوبيا ، وجميعها تؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح . ومع ذلك ، فعالبا ما كانت هذه الكنائس الشرقية ببطارتها وأساقفتها تستفيد من الغزو الصليبي . ذلك أن اليعاقبة (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) قد تعرضوا للاضطهاد من جانب البيزنطيين داخل حدود الامبراطورية البيزنطية ولم تكن علاقاتهم بالكنيسة البيزنطية أحسن حالا فى المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين . فقد كانت المجادلات اليومية والخصومات والاتهامات العنيفة أمرا كثير الوقوع . وقد وضع الغزو الصليبي نهاية هذه الحرب الحقيرة . فالصليبيون لم يكونوا يبحثون فى عقائد الطوائف كما يخبرنا احد البطاركة اليعاقبة ، فقد كان الجميع سواء فى نظر الفرنجة طالما أنهم ليسوا فرنجة . فضلا عن أن هذه الكنائس لم تكن عاملا من عوامل تشكيل سياسة المنطقة ، مثلما كان الحال مع الكنيسة البيزنطية ، الأمر الذى جعل صورتها مرضية فى عيون الغزاة .

والصلة التي تربط الكنائس اليعقوبية صلة قديمة العهد . فقد كانت هذه الصلة تتأكد عدة مرات في المراحل الأخيرة من السيادة البيزنطية ، أى خلال القرن السابع . وربما كان الفتح الإسلامى قد ساعد على تدهور هذه العلاقة الى حد ما . ولكن حقيقة أن أرمينيا وجورجيا كانتا من عوامل الحركة السياسية فى آسيا الصغرى جعل الأمور تسير لصالحهما . فقد كانت أعداد الأرمن كبيرة فى مقاطعة انطاكية ، وكانوا يمثلون غالبية السكان فى مقاطعة الرها ، كذلك قامت مستعمرات أرمنية صغيرة فى المملكة اللاتينية التى عاش فى جنبااتها أيضا بعض الأرمن . وقد قربهم الى الصليبيين شهرتهم كمقاتلين لايشق لهم غبار . وفى منتصف القرن الثانى عشر فكر الملك الأرمنى توروس Thomas فى أن يرسل ثلاثين ألفا من الأرمن للاستيطان فى الأرض المقدسة لكى يجعل المدينة مسيحية من ناحية عدد سكانها أيضا .

أما البلاط الأرمنى ، الذى تبنى فى القرن الثالث عشر عادات الفرنسيين وتقاليدهم الى حد ما ، فقد كان خليطا يمزج الشرق بالغرب . وقد زار أحد الرهبان القادمين من جبل صهيون بالقدس بلاط أرمينيا الصغرى عند غروب شمس القرن الثالث عشر ، عندما كانت أرمينيا تابعة للمغول ، وقد ترك هذا الراهب الانطباع التالى عن زيارته للملك والكاثوليكوس ، بطريك أرمينيا ، اذ يقول :

« لقد عشت أسابيع ثلاثة فى قصر ملك أرمينيا وكليكا ، وكان هناك عدد قليل من المغول فى بلاطه . وكان بقية رجال البلاط من المسيحيين ويبلغ عددهم حوالى مائتين . وقد اعتدت على رؤيتهم وهم فى طريقهم الى الكنيسة ، وهم يستمعون الى القداس ، وهم يركعون ويصلون فى خشوع . وبالإضافة الى هذا ، كان كل من يقابلنى او يقابل صديقى كرمونا منهم يخلع قبعته ويحيينا فى احترام ، ويقفون عند قدومنا » .

« ويسمى كبير أساقفة الأرمن وأهل جورجيا بالكاثوليكوس (الجاثليق) ، وقد مكثت معه أربعة عشر يوما ، وكان معه الكثيرون من المطارنة والأساقفة ورؤساء الأديرة وغيرهم . وقد كان مثاليا فى طعامه وردائه واسلوب حياته ، لدرجة أننى لم أر مثله أحدا ، سواء من يرتقيها لم تكن تساوى خمسة شلنات استرلينية فى رأى . ومع ذلك فقد العلمانيين أو رجال الدين . وأننى أعلن حقا أن جميع الملابس التى كان كان لديه عند كبير من القلاع الحصينة ، وكان دخله كبيرا ، كما كان ثريا لدرجة تفوق التصور . وكان يرتدى برنسا خشنا أحمر اللون مصنوعا من جلد الأغنام ، غاية فى القذارة ورثا الى أبعد الحدود ، باكمام واسعة ، وتحتة قميص رمادى قديم ممزق ، وفوقه شال أسود وعباءة خشنة سوداء اللون نسجت من صوف الغنم »

« والكاثوليكوس وسائر الأساقفة جميعا من الرهبان . وفى الشرق كله لا يمكن لأى أحد فى أية أمة أن يكون أسقفا الا اذا كان راهبا . ويحظى الرهبان جميعا بالاحترام والتبجيل البالغ . أما رجال الدين والكهنة فليست لهم سلطة ، كما أنهم لا يحظون باحترام العامة . وتقتصر واجباتهم على القيام بالمراسيم الدينية ، وهم يحددون مواعيد الصلاة بالضرب على لوح من الخشب السميك أو أية قطعة أخرى من الخشب لأنهم لا يمتلكون أجراسا . وعندما يتم اعلان موعد الصلاة فى الليل ، يتوجهون لأداء صلاة الصبح وهم ينادون الناس اثناء سيرهم فى الشوارع لى يتوجهوا لأداء الصلاة . ويتميز الرهبان الأرمن والجورجيون عن العامة بثيابهم الكتانية البيضاء التى يلفونها حول رقابهم واكتافهم . »

« ويتم اخصاء اللصوص الذين ارتكبوا حواث السرقه الصغيرة وغيرهم من الأشرار الذين يرتكبون أصغر الجرائم ، وذلك حتى لا ينجبوا أبناء يقلدون فعال آبائهم الآثمة . وربما يكون هذا هو السبب فى وجود كثير

الغواني على ما يبدو لى . لأن هناك عددا كبيرا من الخصيان ، وهم جميعا يخدمون السيدات من بنات طبقة النبلاء . واعتقد أن ملكة أرمينيا تملك أكثر من أربعين خصيا ، وقد زرت قصرها . ولا يزورها احد الا باذن خاص من الملك الذى يعين له أحد الخصيان بالاسم حتى يدخل به الى الملكة . وهكذا جرت العادة مع كل السيدات النبيلات ، الأرامل منهن والمتزوجات ، .

واكبر كنيسة للأرمن فى الأرض المقدسة هى كاتدرائية سان جيمس فى الحى الأرمنى بالقدس . وقد اقيمت فى القرن السابع او قبله ، ثم أعيد بناؤها ابان حكم الصليبيين فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر . وظلت هذه الكنيسة تؤدى خدماتها للجماعة الأرمنية دونما انقطاع على مدى ثمانية قرون ، وحتى وقتنا الحالى . وفى الجزء الجنوبى من الكنيسة ممر ثلاثى مقنطر يؤدى الى ردهة حيث توجد بوابة جميلة فى شكل صليبي اسطورى تؤدى الى قاعة القداس ذات الصحن الثلاثة . وتتمثل الرموز التى تشير الى صلة الأرمن بكنيسة الرسل وبالمدينة المقدسة فى كرسى سان جيمس المذهب الموجود بالقرب من المذبح ، ورفاته المقدسة ، فضلا عن رأسه الموجودة فى احدى أبرشيات الشمال . وفى القرن الرابع عشر أعاد ملوك اسبانيا تزيين الكاتدرائية من الداخل تعبيرا عن اهتمامهم بالقدس ، اذ كان جسد سان جيمس محلا للتقديس فى سانتياجو دى كومبو ستلا .

واهل جورجيا هم جيران الأرمن فى جبال القوقاز ، وصلتهم بالأرض المقدسة ترجع الى عصور قديمة . ففي نهاية القرن الخامس . تم بناء دير جورجانى فى الوادى المؤدى الى مدينة القدس ، ثم أعيد بناؤه على يد الامبراطور جوستينيان فى القرن السادس . وظل هذا الدير فى حوزة الجورجيين خلال العهد الاسلامى حاملا اسم دير الصليب . وتقول اسطورة قديمة أن الشجرة التى قطعت منها فروع

الصليب الحقيقي نمت فى موقع الدير . وربما تكون هذه الأسطورة قد قامت على أساس من القصة التى تقول أن الملكة زوجة داود الثانى David II The Restorer المتوفى سنة ١١٢٥ قد أنشأت ديرا للراهبات لخدمة السيدات الجورجيات فى مدينة بيت المقدس وأرسلت الى المدينة المقدسة قطعة من الصليب المقدس ، وأرسل جزءا منه الى باريس برفقة راهب أفرنجى يدعى أنسلم . وتم الاحتفاظ بهذه القطعة فى كاتدرائية نوتردام حتى عشية الثورة الفرنسية . وقد أهدى جزء مما تبقى ، بعد تحطيم الصور الدينية والتماثيل المقدسة ، الى نابليون ، ثم الى شارل العاشر ملك فرنسا فيما بعد ، ولا تزال بقاياها موجودة حتى الآن فى كاتدرائية نوتردام . وعلى الرغم من ضياع هذا الدير فى الصحراء ، وكونه غير معروف خارج البلاد ، فإن هذا الدير الجورجاني أحرز مكانة خاصة فى قلوب أهل جورجيا البواسل . وفى بداية القرن الثالث عشر أرسلت الملكة تامارا المتوفية سنة ١٢١١ هدايا الى جماعة الجورجيين فى القدس مع رجل يدعى شوتا روستافلى Shota Rustaveli ظل فى الدير الى أن مات . وهناك نظم أعظم قصيدة قومية لجورجيا ، وهى قصيدة « الرجل الذى يرتدى جلد الفهد » ، وجيلا بعد جيل كانت هذه القصيدة تدرس وتتلّى فى قرى جورجيا ومدنها . ومنذ سنوات قليلة مضت وافق الحظ بعثة علمية من جورجيا (جمهورية جورجيا السوفيتية حاليا) فتمكنّت من الكشف عن رسومات ترجع فى تاريخها الى العصور الوسطى ، وتصور القديسين والحكام وشاعر جورجيا القومى .

وكانت الكنيسة اليقوبية احدى الكنائس التى تؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح ، وكان لها اتباع كثيرون فى كل المقاطعات الصليبية تقريبا . وقد سميت باليعقوبية نسبة الى مؤسسها يعقوب البرازعى . وعلى الرغم من أن هذه العقيدة لم تتبلور كعقيدة دولة أو جماعة قومية بعينها ، فإن ذلك لم يمنع اتباعها من أن يعتبروا أنفسهم « أمة » .

وعدهم فى الشمال أكثر من عددهم فى الجنوب • وكان مقدسهم الكبير هو دير بروسوم فى أرض المسلمين ، ومع ذلك فإن بطريركهم كان يقيم فى أنطاكية ، وكانت علاقاته مع كنائس الطبيعة الواحدة علاقة ودية بشكل عام • وباعتبار اليعاقبة أشهر المناوئين للكنيسة البيزنطية فقد لقوا معاملة ودية الى حد ما من جانب الصليبيين ، مما مكنهم من الاحتفاظ بأديرتهم وكنائسهم فى المدن الرئيسية فى المملكة الصليبية • وكان دير مريم المجدلية الذى بنى فى نهاية القرن الحادى عشر بأيدى الأقباط المصريين هو نقطة ارتكازهم فى الأرض المقدسة •

ومن بين الطوائف المسيحية الكثيرة التى وجدت فى الأرض المقدسة تحت الحكم الصليبي ، لم تكن هناك طائفة أقرب الى الحكام من الطائفة المارونية فقد كانت هذه الطائفة أشبه بقطعة من التاريخ ترسبت فى وديان لبنان وجباله ، وكان أفرادها يعتقدون احدى العقائد الكثيرة التى مزقت الكنيسة فى القرن السابع ، وقد أدانت الكنيسة هذه العقيدة باعتبارها عقيدة توحيدية ، اذ كان المنشقون يعتقدون فى مشيئة واحدة للمسيح وهى المشيئة الانهية ، وقد وجد أتباعها لأنفسهم ملجأ فى خلوات لبنان بعيدا عن القسطنطينية • وقد تبنت هذه العقيدة جماعة قومية فى لبنان ، مثلما حدث مع كثير من المذاهب الأخرى • وبعد الفتح الاسلامى وفصل لبنان عن بيزنطة صارت هذه العقيدة هى عقيدة الفلاحين المسيحيين فى أرض فينيقيا القديمة • وفى سنة ١١٨٤ تقبل المسيحيون اللبنانيون الخضوع لسيادة كرسى الأسقفية الرومانية • وكانت تلك حادثة هائلة فى تاريخ لبنان ان لم تكن فى التاريخ الكنسى بأسره • وعلى الرغم من فترات التباعد بين مسيحيى لبنان والغرب ، فقد ظل المسيحيون فى لبنان على اتصالهم بروما ، ومن ثم كانوا أكثر تعرضا للمؤثرات الأوربية من أية طائفة مسيحية أخرى فى الشرق وهو موقف لا يزال قائما فى العصر الحاضر •

لقد خضعت الأرض المقدسة لسيطرة كل من روما الوثنية وبيزنطة المسيحية والعرب المسلمين ، وفى كل عصر كان السكان الأصليون يعتقدون ديانة السلطة الحاكمة ، بيد أن جهود التحويل لم تؤت ثمارها مع السكان جميعا . فمع أن الوثنية اختفت تماما ، فقد ظلت المسيحية واليهودية كجزر منعزلة فى بحر الاسلام .

ومن المستحيل معرفة عدد السكان اليهود فى الأرض المقدسة ابان العصر الصليبي ، وقد كان بعضهم ورثة مباشرين للسكان الأصليين ، كما أنه من المستحيل معرفة عدد السكان اليهود الجدد فى المنطقة . وبشكل عام يبدو أن المجتمعات اليهودية الصغيرة فى الجليل ربما يرجعون بجذورهم الى عصر الهيكل الثانى الذى انتهى بتدمير الهيكل على يد تيتوس سنة ٧١ ميلادية .

وكانت لليهودية طوائفها ، شأنها فى ذلك شأن الاسلام والمسيحية . فقد كان السامرة يتركزون حول نابلس ، ولم يهجروا أبدا جبل جزيم الذى يقدسونه كما كانت ذبيحة عيد الفصح السنوى ، ولا تزال ، رمزا عندهم لبقائهم واستمرارهم . وفى القرن الثامن رفضت طائفة القرائين التى أسسها داود بن عازان قوانين المشنا والتلمود ، ولم تؤمن سوى بالكتب المقدسة . وقد انتشرت هذه البدعة فى الشرق ، وسرعان ما أخذ القراءون والريانون فى تبادل الرسائل العنيفة دفاعا عن عقيدة كل منهما .

ولم يكن أمل الخلاص والعودة قاصرا على الريانين فحسب ، فقد حدث فى القرن العاشر أن توجه أحد علماء القرائين بدعوة لمجتمعات القرائين يقول فيها :

« أيها الأخوة . لقد دمرت القدس وصارت مدينة سوداء ممتلئة مهجورة وأنتم مستريحون تضطجعون فى أسرركم ، وهى سكرى ، ليس

بمركزهم فيهم المدن أما اليهود الذين كانوا يعيشون في قرى الجليل ،
والمسلمون الذين كانوا يسكنون نابلس ، فقد نجوا من الغزو دون أن
يمسهم شيء ، ولم تتعرض اليهودية للانقراض في موطنها التاريخي ،
بل استأنفت حياتها وتزدهر بالفعل . وقد عامل الصليبيون اليهود ، معاملتهم
لكل ما هو غير فرنجي ، أي أنهم اعتبروهم مواطنين من الدرجة الثانية ،
وتركهم يمارسون حياتهم وشعائهم كما تعودوا . هذه النظرة خلقت
مناخا مناسباً . فضلا عن أن إمكانية الاتصال بأوربا على نحو متطور
ساهم في إعادة بناء الجماعات اليهودية . وفي القرن الثالث عشر تم
إحياء الحياة اليهودية في الأرض المقدسة بدرجة كبيرة .
وكانت القدس الرسمية الوحيدة عند اليهود هو متعهم من سسكني
بيت المقدس . ومع ذلك فإن اليهود استوطنوها وعملوا كصباغين في
ظل الحكم الصليبي . وكان فتح صلاح الدين للمدينة سنة ١١٨٧ نقطة
التحول في تاريخ اليهود ، فقد طلب صلاح الدين من اليهود العودة إلى
المدينة المقدسة . وبعد سنوات قليلة كتب الشاعر اليهودي الأسباني
يهودا الحريزي ، الذي زار القدس آنذاك ، يقول :
وتوهكتا آخر (ضلحاح الدين) أن ينادي في كل مدينة ، للعظيم
والجليل من الناس على حد سواء : أتني لتحدث من قلب القدس وأقول
فيها لفيصع ريسفدا ربه أيلاد ليصا ريسفد من

والعمل والتنظيم الاجتماعي في مقابل الجزية التي هي في الواقع ضريبة
دفاع يدفعها الذميون لقاء قوتهم في دار السلام والدفاع عنهم . وهو
ما يعني أن العمل العسكري ظل وقفا على المسلمين وربما يكون أفراد
من اليهود قد اشتركوا في القتال ، كما حدث من قبل بعض المسيحيين ،
ولكن ذلك الموقف ظل موقفا فرديا لا يعبر عن حقيقة تاريخية عامة .
عن هذا الموضوع انظر . د . قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة في
مصر العصور الوسطى ، دار المعارف ١٩٧٧ .

ان اى انسان من نسل افرايم يرغب فى الاستيطان فى المدينة فله مطلق الحرية فى ذلك ، . وسرعان ما تحولت الهجرة اليهودية الى القدس والارض المقدسة الى حركة عامة . وفى القرن الثالث عشر ترك مشاهير اليهود مثل يهييل Yehiel الباريسى ، وفهمنديا Nahmanides الاسبانى مواطنهم الأصلية لكى يستقروا فى الأراضى المقدسة . وازدهر المجتمع اليهودى فى القدس مرة ثانية ، مع ان التمرکز الأكبر لليهود كان فى المدن الساحلية مثل صور وعكا . ومع ختام القرن الثالث عشر ، وعندما اقتربت المملكة الصليبية من نهايتها . تنبأ أحد تلاميذ نهمنيا بقرب قدوم المسيح المخلص .

المشال والواقع

في عهد الملكة الملكة اللاتينية في بيت المقدس، وتمازيت المستعمرات
الفرنطية الجنود في الأرض المستعمرات، كلياً إلى البحر، لا المستعمرات
وكثيرة الغزوات الصليبية اللاتينية على الأرض، لا المستعمرات، أن المستعمرات
قد تخلصت لكل المستعمرات، سيماء الشرق، ومع العهد الثاني من القرن
الثاني عشر، كانت المستعمرات الصليبية، أمراً واقعاً، بعد أن شكل هذه
المستعمرات، لم يكن قد تم تحديد، كما أن استمرارها في البقاء كان أمراً
مستحيماً، في نهاية الحملة الصليبية الأولى، بدأ قائمها رحلة العودة
إلى أوطانهم وصحبوا معهم الجزء الأكبر من أولئك الذين نجوا من مجزرة
المطبخ الفاتح، وبدأت المستعمرات الجديدة النشأة في تكوين مؤسساتها
السياسية وهيئاتها الاجتماعية، على حين تم توجيه النظام الاقتصادي
لخدمة حاجتهم للمجتمع الجديد، في تلك الفترة، حيث كانت المستعمرات
تتخذ من القدس مركزاً رئيسياً، في تلك الفترة، قوامها، في تلك الفترة
وخلال حصار القدس بدأت المثل والتوقعات صدامها بالواقع، فقد
بدأت الجادلات حول ما ينبغي عمله بعد الفتح الوشيك الحدث بين طين
الأت الحصار وهدم الأسوار، وأصوات الأحجار الطائفة في ظل أسوار
المدينة المحاصرة، وقد ثار الجدل حول إذا ما كان ينبغي اختيار بطريرك
للمدينة قبل انتخاب حاكم علماني لها على اعتبار أن للقيم الروحية
الأسبقية على الاعتبارات الدنيوية؟ أم هل يجب عدم انتخاب أحد،
طالما أن غزو المدينة سوف يبعث، بالتأكيد، مملكة المسيح ويعمل بنزول
أورشليم السماء على وادي الدموع هذا؟ وتقرر تأجيل البت في هذا
الموضوع، ولكن بمجرد أن تم الاستيلاء على المدينة، وبعد احتفال
بفتحها، بدأ الجدل، في تلك الفترة، حيث كانت المستعمرات

الجيش المنتصر بالقدس في كنيسة القيامة ، كان لابد من الوصول الى حل المشكلة . وكان القرار بانتخاب جودفري البولوني كمدافع عن المدينة وحام للقبر المقدس . ولم يكن هذا ملكا ، كما ان حكمه ولقبه لم يكونا دائمين . وكان هذا هو التوفيق بين الآراء والآمال المتصارعة المتضاربة .

فكش عن ان الانتخاب ذاته كان بمثابة حجر الزحى في ايدىولوجية الحركة الصليبية . بيد ان هذه المثل الصليبية حين اصطدمت بالواقع بعقبات شابتها بعض الاضرار : فعلى الرغم من الاشباع المسيحيانى الذى رافق ميلاد المملكة ، فقد تحدثت ابعاد مستقبلها كدولة علمانية ، مثل أية دولة اخرى . وقد ادنى الاعتراف بهذه الحقيقة بدوره الى تلاشى الاشباع الشىخانى للحركة الصليبية . لقد قدر للقدس ان تظل اورشليم الأرض ، ولم يكن صهيون يعنى شيئا أكثر من مجرد تل فى جبال منطقة يهودا .

وفي إطار الوجود الأوربى على تراب الشرق ، ظهرت الى الوجود أربعة كيانات سياسية ، فقد كانت إمارة الرها هى دولة الصليبيين فى أقصى الشمال فيما بين أعلى نهر دجلة والفرات ، وكانت أكثر مؤسسات الصليبيين غرابة ، فقد كان المسيحيون الشرقيون الذين يقطنون الرها متمسكين بهويتهم على الرغم من عزلتهم عن الامبراطورية البيزنطية وعن موجات الغزاة المتعاقبة من التركمان والأتراك ، فضلا عن الأرمن واليعاقبة الذين كانوا يشكلون غالبية السكان ، كما كان هناك ايضا السوريان والنساطرة وغيرهم من الجماعات المسيحية الصغيرة . وكان يحكم هذا الوجود المكثف لطوائف المسيحيين وطوائفهم بلديون اخو جودفري الذى أسس إمارة حاكمة على أرض العراق . فقد كان على إمارة الرها ، وهى المقاطعة المسيحية الشرقية التى كان يحكمها الغرب اللاتينى وبها قطاعات من السكان المسلمين فى المدن وفى الريف ، ان تواجه المركزين الاسلاميين الكبيرين فى الموصل وبغداد باعتبارها حصن الصليبيين فى الشمال الشرقى .

والى الغرب كانت تقع انطاكية ، وحدودها فى الغرب على الشاطئ
 السورى وميناءى سان سيمون (انطاكية) واللاذقية . وفى الشمال
 تحدها المقاطعات الأرمنية فى جبال طوروس . أما فى الشرق ، فكانت
 انطاكية تواجه المدن الاسلامية الكبرى حلب وحمص وحماة . وفى قمة
 توسعها بلغت الامارة ابواب هذه العواصم الاسلامية . وكان حكام حلب
 يجدون انفسهم مضطرين بين الحين والحين الى دفع اتاوة لحكام انطاكية
 لكى يسمحوا لهم ان يستخدموا الطواحين التى تقع خارج ابواب
 العاصمة مباشرة . وقد حاول الصليبيون ان يحتفظوا برؤوس جسر
 عبر نهر العاصى ، ولكنهم كانوا يعتمدون اساسا على الاستحكامات
 الواقعة على شاطئ النهر . ولم تستطع اماره انطاكية ان تسيطر على
 اراض واسعة . ومن الناحية العملية كان نهر العاصى هو الحد الطبيعى
 الذى يفصل بين انطاكية وجيرانها المسلمين .

ومن المستحيل معرفة ما اذا كان غالبية السكان من المسلمين ام من
 المسيحيين . ولكن يفترض ان المسيحيين الشرقيين كانوا يمثلون غالبية
 السكان . وكان مسيحيو انطاكية يدينون بثلاثة مذاهب دينية رئيسية هي :
 الكنيسة البيزنطية ، والكنيسة السورية التى كانت يونانية فى ادبها
 الكنسى ومذهبها ، على حين كان اتباعها يتحدثون اللغة العربية ،
 ثم الكنيسة المونوفيزيتية اليقونية التى كان تستخدم ادبا كنسيا
 سريانيا ، وتستخدم اللغة العربية فى الحياة اليومية . وكان بعض
 السكان المسلمون من العرب والأتراك وكان معظمهم ورثة السوريين
 الهلثيين الذين اعتنقوا الاسلام ، وكانوا يقطنون المدن ايضا ، ولكن
 المسلمين كانوا يسكنون الريف اساسا . وقد اضاف الصليبيون انفسهم
 الى هذا المزيج القومى والدينى . وعندما أصبح بوهيموند اول حاكم
 لانطاكية نال الاعتراف بكونها من املك النورمان الذين يحكمون جنوب
 ايطاليا وصقلية . وكان طبيعيا اثناء موجات الهجرة الاوربية اللاحقة

أن يطغى على الغور مائة ألف في جنوب لوطا إلى جزيرة صقلية وواحدة في النورمان
 على مقولس وواحدة في كالي، المقاطعة التي تحكمها أسرهم الملكية الأصلية
 ولم يكن إلا هومان هم المخلص الوحيد في انطاكية لكن للزكرياء منهم كانوا
 يمشون في غالبية السكان على الأروبيد من بلاد قيسلا إلى بلاد حماة قبل هذا
 بناء على ما مضى من قبلهم طرابلس اللبنانية التي كانت تحت الحكم المستعظم
 قبل هذا إلى عدة من قبلهم طرابلس أسكن المدينة الخاصة به وكانت قسطنطينية
 بتدوير هذه مشقة مع اثنين صليبيين هما انطاكية في الشمال
 والقدس في الجنوب فكانت طرابلس تجمع بين البحر في الغرب
 وسلاسل لبنان في الجبل في الشرق وكان أغلب سكانها من المسلمين
 كما كان جميع السكان الأصليين يتخذون العربية لغة وكان الطوائف
 المسيحية الشرقية ولا سيما النسطورية يشكلون جزءا هاما من سكان
 الولاية . كما كان الموارنة يشكلون الجماعة الدينية المنيعة والصغيرة
 أولئك الفلاحين الذين اشتهروا بمهارتهم الفائقة في استخدام القوس
 والسهم ظلوا يحافظون على عقيدة آبائهم ونظامهم الاجتماعي وكان
 القرويون هم الذين يحكمون مقاطعة طرابلس، فقد أسس ريتور
 الناصري كوست بولور، وماركيز البروفانس، أسرة حاكمة في لبنان
 وبهذا أصبح لبنان يسمى من حيث اللغة والعادات، التي جنوب فرنسا
 ومثلها أولئك القادمين من جبال البرانس حتى حوض الرون الأدنى
 وطاكرانيا، واستقروا في الشرق الأدنى المسيحيين في بلاد قيسلا
 وضع نزع قيسلا قيسلا في غير هذا المقام ويستخرج في بلادهم
 نيزم وكانه في ملك القوس هذه الكيان السياسي الرابع، فقد كان لاسم
 الخاص بملوك بضم في علم حاكمها لقب ملك، كما كان يمنحه نوعا من
 الأفضلية والامتياز على عامة بقية الكيانات الصليبية . وكان اليرموك
 Bouillon في حوض اليرموك الابني يحكمون الملكية إلى أن
 بنجد في ملك Pulk كونت انجوس واديش الملكية الملكية طيساوي واسبس
 قيسلا قيسلا من Angevine الحاكم في بلاد حاكم الملكية الأولى

[illegible]

استقرت بشكل نهائى فى الشرق والجنوب على طول حدود صحراء سوريا وشرق الأردن والنقب وسيناء ، وكانت هذه حدودا طبيعية للمملكة .

وكان سكان مملكة بيت المقدس اكثر تنوعا من سكان المقاطعات الصليبية فى الشمال . فقد احتفظت الأماكن المقدسة وتأثيرات المؤسسات الدينية بمقاطعات مسيحية يهودية سامرية يحيط بها السكان المسلمون . وفى أماكن مثل القدس وبيت لحم والناصره ، وجبل تبور زاد عدد السكان المسيحيين ، وربما كانت لهم السيطرة ايضا على غيرهم من عناصر السكان . وينطبق هذا القول نفسه على بعض المناطق الزراعية حول القدس وفى الجليل . كما كانت هناك مستوطنات يهودية متناثرة فى منطقة الجليل الزراعية ، كما وجدت جماعات يهودية منظمة فى جميع المدن الرئيسية فى فلسطين وسوريا . وكان الاقليم قد صار اسلاميا بعد اربعة قرون من الحكم الاسلامى ، وحتى مع عدم السيادة الكاملة للدين كانت اللغة العربية هى اللغة المشتركة للسكان بغض النظر عن دياناتهم . وقد فشلت محاولة تمت قبل ذلك لكتابة اللغة اليونانية بحروف عربية ، ولكن العربية ظلت تكتب بحروف عبرية على مدى آلاف السنين على ايدى اليهود الشرقيين .

وفى القدس ، حيث الكيان الصليبي الذى قام فى أقصى الجنوب ، تنوع التركيب الاثنولوجى للعناصر الغربية عنه فى الشمال . فقد كان لجانبية الأماكن المقدسة الفضل فى توازن الميل الطبيعى للاستقرار بين أبناء الوطن . وقد قدمت الأسرة الحاكمة ونواة السكان الأوربيين من شمال شرق ووسط فرنسا . ولكن موجات الهجرة اللاحقة قدمت بالبروفنساليين والاتجيين . وكانت شوارع القدس فى القرن الثانى عشر ، او عكسها فى القرن الثالث عشر عالما مصغر الاشكال والالوان لأوروبا المعاصرة والشرق الأدنى المعاصر . فقد احتك الفرنسيون ، وهم الغنصر

الغالب ، بإبناء الجماعات القومية واللغوية الأخرى الذين كان يحيون في أحياء أو شوارع خاصة بهم • ولم تكن في الغالب أكثر من عدة منازل تجمعت حول كنيسة مكرسة لقديس مشهور بين أهل الوطن • وهكذا عبر كل من الأسبان والبروفنساليين والإيطاليين والألمان والمجريين والبريطانيين مكانا لأنفسهم •

وفي الوقت الذي كانت فيه الأغلبية العظمى في مدينة مثل القدس ، بمؤسساتها الكنسية المتعددة ، من الغرب ، استقر عدد كبير من السكان الأصليين الذين جذبتهم المطامح الاقتصادية إلى المدن الساحلية بعد الغزو الصليبي • ذلك أن المسلمين الذين هربوا أو طردوا أثناء حوادث الغزو ، عادوا ليستقروا في كل مدن المملكة تقريبا باستثناء القدس • وحيثما كان المسلمون أقل ظهورا ، كان يوجد المسيحيون الشرقيون المتحدثون باللغة العربية ، والذين كانوا يرتدون الثياب العربية نفسها ونفس غطاء الرأس • إذ كان للأرمن الذين يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح أحياءهم الخاصة ، كما احتفظ الجورجيون واليعاقبة والأقباط والأثيوبيون بكنائسهم الخاصة • وتقابل البيزنطيون والسوريون مع الموارنة والنساطرة • كما وجد أيضا الدروز والبدو الذين كانوا يفدون إلى الأسواق والمراكز التجارية لكي يقيضوا بمنتجاتهم الزراعية ، أو يعرضوا خدماتهم • وفيما عدا الجيوب السكانية المسيحية كان الريف مسلما ، وخاصة في أقاليم يهوذا والسامرة والجليل التي كانت أقل جاذبية بالنسبة للغربيين من المدن الساحلية وحصونها •

وقد اختلفت المثل والتوقعات المسيحانية • ومع ذلك كان لا يزال هناك أمل في تدخل السماء • ولكن كل يوم يمر كان يفرض على الأقلية الصغيرة المنتصرة أن تخوض صراعا جديدا في سبيل البقاء • وكان لابد من اليقظة المستمرة ، والحذر من الهجـوم الخارجي ، أو الثورة والتخريب في الداخل • ولم يكن ثمة مجال للاختيار في بداية الأمر ، فقد نظمت الدولة

والمتجسسون الخ ناهيكاً الاحزاب ، قوا فظلمت قوتها الملكية حول الامر اذ على بالاعمال
الاعتكافية وعلى شملها انجيل كمال كذا القابضهم للذين يخوضون المعارك
واذا همون ضلوا الحداثة في عينون والعميون ، ويصنعون السلام في وجه هذه
الاستقرار في الوقتي تظهر النظام الحكومي من نواحيه الى المسكن الصليبي
الموجه لخدمة اغراض الحرب .

• مسبقاً رآه قتيبه رة ومفعلاً قبيلاً لا حية تنال رة رة رة رة
ن الحسا كان يوم مملكة بيت المقدس ان يخوض الحرب بما يقرب من
ستمائة فارس وعشرة اضعاف هذا العدد من المشاة . كما كانت انطاكية
وطرابلس تستطيعان تجهيز العدم نفسه . وقد يبدو اليوم ان الفا ومائتي
فارس قوة ضعيفة ، ولكن في العصور الوسطى كان للفارس المدرع نفس
التأثير الذي تحدثه البداية الحديثة في ميدان القتال . فقد وصل تفكره ،
مثلاً ، إلى دمشق بثمانين فارساً ، كما ان الملك اماليك غزا مصر ومعه
حوالي ثلاثمائة فارس فقط . وفي اوربا ايضا تم خوض المعارك الرئيسية
انذاك باعداد مماثلة أو حتى يفرق اصغر من ذلك . فضلاً عن ان القوات
التابعة للرهبانيات العسكرية كانت تخضع لأوامر المملكة . وقد كانت هذه
النظم الرهبانية العسكرية قادرة على تنشئة جيش يضارع جيش المملكة
نفسها من حيث القوة . وبطبيعة الحال ، كانت تصل آلاف الفرسان
الأوربيين إلى الحروب الصليبية إلى شواطئ الشرق المسيحي ، مما زاد
من القوة البشرية العسكرية المتاحة . وقد كانت الجيوش الصليبية لا تقهر
في المعارك التي أخذت أهميتها لها ، والحقيقة انها نادراً ما هزمت في هذه
المعارك . ولكن الهزيمة ذاتها لها معنى عند الصليبيين يختلف عن معناها
عند المسلمين . فالحقيقة ان لدى المسلمين احتياطاً لا يتوافر من القوة البشرية ،
وبالنسبة لهم لم تكن الكثير من الهزائم قسوة تعني أكثر من هزيمة جزئية
تفصيلية . يقولون لا تقهر التي يقولون اعدائهم بعينهم عن متناول الجيوش الصليبية
في جليظة او دمشق او القاهرة ، لما بالنسبة للصليبيين الذين كانوا
يتمنون على كل حالهم البشرية تقريباً في اعدائهم الهزيم التي تسببها ، فقولهم كان

[illegible]

باحتياجاتها . وبدلاً من طوفان المستوطنين الجدد الذى كان متوقعا لم ترحل إلى الشرق سوى جماعات هزيلة . ولم يأت بالآف الناس إلى الشرق مرة أخرى سوى تلك الحملات الصليبية التى اعقبت الكوارث مثل سقوط الرها سنة ١١٤٦ ، وسقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧ . ولكن لم يبق بالأرض المقدسة سوى جزء صغير للغاية من الحشود التى اشتركت فى الحملات الصليبية الكبيرة . فبمجرد أن كان الصليبيون الجدد يبرون بالقسم الذى قطعوه على أنفسهم كانوا يتركون المملكة إلى بلادهم الأوربية . وبعد احتلال بيت المقدس بستة شهور فى سنة ١٠٩٩ لم يكن الصليبيون يشكلون أكثر من أحد أحياء العاصمة . وربما كانت النتائج الملموسة لاستمرار الهجرة أكثر وضوحاً خلال فترات السلم النسبى التى كانت تسود فيما بين الحملات الصليبية الكبرى وليس إبانها . فبعد أربعة أجيال ، واثناء معركة حطين سنة ١١٨٧ كان يعيش فى مملكة بيت المقدس حوالى مائة وعشرين ألفاً من الصليبيين ، وكان هناك عدد مماثل يعيش فى الإمارات الصليبية الشمالية . وقد بلغ العدد الكلى للصليبيين فى الشرق حوالى ربع مليون نسمة ، ونظراً لأن فترة العصور الوسطى القصيرة بالفعل ، كانت أكثر قصراً فى الشرق نتيجة للمناخ والطعام وعدم التكيف ، وحالة الحرب والحصار الدائمة ، فإن موجات الهجرة لم تكن كافية لأن تجعل من المستوطنات الصليبية كيانات سياسية حية .

كانت نسبة الصليبيين داخل حدودهم بالقياس إلى عدد أعدائهم واحداً إلى خمسة تقريباً وبينما يبرهن هذا التقييم الأحصائى على أن الصليبيين فشلوا فى الاستعمار الاستيطانى فإن هذا التقييم الإحصائى نفسه يبدو أكثر أهمية عند النظر إليه من خلال الأطوار الجغرافى السياسى للشرق الأدنى ، حيث لم يكن ربع المليون أوربى يواجهون السكان المسلمين داخل مناطق سيادتهم فحسب ، وإنما كانوا يواجهون

ملايين المسلمين من النيل الى بلاد النهرين . ومن حسن حظ الصليبيين ان المسلمين كانوا عاجزين عن تعبئة مواردهم لدى أكثر من مائة وخمسين عاما . ذلك ان رابطة الدين المشترك واللغة والثقافة المشتركة لم تكن لتحول دون مسيرة التاريخ وخوض التجربة . ذلك ان محاولات توحيد القوى الاسلامية ، مثل محاولة صلاح الدين على سبيل المثال ، لم تكن تعمر طويلا بعد وفاة صاحبها . ولم يقدر على خلق دولة موحدة سوى دكتاتورية القائد المملوكي بيبرس العسكرية في منتصف القرن الثالث عشر ، وذلك من خلال فرض الوحدة الصارمة ، ودنما رحمة .

ونظرا للتفوق العددي للمسلمين ، كان على الصليبيين ان يظلوا اقلية في حالة حرب مستديمة . فقد أملى عليهم المنطق والحذر ان يتمركزوا في مواقع قليلة محصنة . وصارت هذه هي الصفة المميزة للمملكة الصليبية . وبينما كانوا في بلادهم ، سيدا وخادما ، يعيشون في الريف على الدوام اضطر اللاتين في الشرق الى ان يعيشوا في مدن وقلاع حصينة دونما استثناء . أما الاستيطان الصليبي بالريف فقد اتخذ شكل بيوت الضياع الحصينة التي تناثرت هنا وهناك ، ولكن بالقرب من القلاع أو المدن المحصنة . ولكن القرى التي سكنها المهاجرون الغربيون كانت نادرة . كما أنها على أية حال لم تكن تخلو من وجود برج دفاعي إلا اذا كانت واقعة في ظل إحدى القلاع .

ومن هذه المراكز الحصينة ، التي كانت مدنا في العادة ، كان الصليبيون يحكمون البلاد . ولكي يكون وجودهم محسوسا وسيادتهم فعالة ، فإنهم رصعوا جميع الطرق الرئيسية والممرات بالحصون الصغيرة والممرات التي كانت تشبه نقاط المراقبة أو نقاط الشرطة . وصارت شبكة التحصينات الواسعة التي لم تشهدا المنطقة من قبل هي الشبكة الحاكمة للمملكة ، فطالما كانت القلاع والحصون والاستحكامات مصونة ظل الصليبيون يحكمون الأرض المقدسة . بيد أنهم كانوا يحكمونها فقط طالما كانت حاميات قلاعها وحراسها ونريات الطرق قادرة على حفظ الأمن.

ارتبطت بالأسر المحلية الحاكمة . وكانت هذه اقطاعات غير عادية لأن مركزها كان المدينة وليس القلعة . وهنا عدل الاقطاع الغربى نفسه وفقا للتراث الحضرى العريق فى الشرق ، حيث صارت المدينة هى المركز المالى والتشريعى والادارى للدولة الصليبية ، وكان على سيد المدينة ان يضمن وجود عدد من الفرسان المدرعين والمشاة لخدمة البيت الملكى . وكانت حراسة القلاع والحفاظ على التحصينات فى الضياع جزءا من واجبات الحاكم العسكرية .

وما أن تم التخلص من تأثير الايديولوجية الصليبية القديمة وأمالها المسيحانية ، واعتمادها على الحكومة الكنسية ، حتى سارت عملية تنظيم الأرض المفتوحة على الطريق الذى سار عليه الاقطاع الأوربى . ومن اللافت للنظر أنه على الرغم من الاقتصاد المالى المتطور الذى جعل من الممكن خلق ملكية بيروقراطية يديرها موظفون رسميون ذوو روابت ثابتة ، وجيش يتقاضى أفرادَه أجورهم ، فإن الصليبيين نظموا دولتهم وفقا للتقاليد التى جلبوها معهم من أوربا . وبعد جيل من المعاناة والشكوك ، كانت نتيجة تنظيم الحكومة على أسس اقطاعية أن انقسم الاقليم الى عدد من اقطاعات الأمراء والضياع التى تدين بالولاء لتاج بيت المقدس . ومع ذلك فإن الخريطة الاقطاعية الجديدة لم تؤد مباشرة الى حدوث أى ضعف ملحوظ للسلطة المركزية . فقد كان الاعتماد على الحاكم ومكانته كقائد أعلى للجيش كبيرا لدرجة كبحت جماح الاتجاهات المتباعدة عن مركز الحكم الرئيسى ، وهى اتجاهات متوارثة فى النظام الاقطاعى .

لقد كان السادة الصليبيون الاقطاعيون والبارونات الصليبيون الأوائل أكثر نظاما وتديريا من زملائهم الأوربيين . ولم يكن هذا نتيجة لحالة التوتر التى نجمت عن الطوارئ المستمرة فقط ، ولكنها كانت أيضا بمثابة التركيب الاجتماعى الخاص لأشراف الصليبيين ونبلائهم . ومع (م ٩ - عالم الصليبيين)

بعض الاستثناءات القليلة ، فان أبناء الشريحة العليا من طبقة النبلاء قد عادوا ادراجهم الى أوربا بعد مشاركتهم فى الحملة الصليبية الأولى .
 فقد كانت المجموعة الأولى قد أخذت على نفسها قسما بالمشاركة فى الحملة الصليبية وتحرير القبر المقدس ولم تكن التزاماتهم الدينية تتعدى ذلك الحد . وعند نهاية رحلتهم كانت لهم حرية العودة الى وطنهم .
 أما الآخرون ، الباحثون لأنفسهم عن السلطة والسيادة فى الشرق ، فقد خابت آمالهم ، وفضلوا العودة الى أوطانهم . والذين قرروا البقاء فى الأرض المقدسة لم يكونوا ينتمون الى الأسر الكبيرة فى اوساط النبلاء الأوربيين ، وانما كانوا فى الغالب من الفرسان الأدنى فى مراتبهم من بيوتات السادة الاقطاعيين الأوربيين . وقد سهل هذا من مهمة الحكم ، اذ لم يكن ملك بيت المقدس يجابه اية معارضة من البارونات خلال الجيل الأول من وجود المملكة .

وبعد حوالى ثلاثين عاما صارت الخطوط العريضة للنظام الاقطاعى فى المملكة ثابتة مستقرة . وكانت الاملاك الملكية فى ذلك الوقت ماتزال اوسع ، ومن المؤكد انها كانت اكثر ثراء ، من اكبر الاقطاعيات ، وربما من جميع الاقطاعيات مجتمعة . فقد كانت منطقة يهوذا كلها تقريبا . فيما بين حبرون [الخليل] فى الجنوب ، والسامرة القديمة حول نابلس فى الشمال داخلية فى نطاق الاملاك الملكية . وفى الوقت نفسه كان التاج سيدا على المدن البحرية الرئيسية الثلاث فى المملكة وهى يافا وعكا وصور ، فضلا عن العاصمة بيت المقدس . وفى مقابل الاملاك الملكية الواسعة كانت هناك كبار الاقطاعيات التى كان بعضها كبيرا جدا مثل اقطاع الجليل ، واقطاع شرق الأردن ، ومقاطعة يافا (التى صارت امارة يافا - عسقلان فيما بعد وصارت من املاك الاسرة الحاكمة) . وكان بعضها الآخر صغيرا بالقياس الى المستوى الأوربى . وكانت هذه تتمركز حول المدن الساحلية ، مثل صيدا وبيروت وحيفا وقيسرية وارسوف ، او حول المراكز الداخلية

مثل نابلس وحبرون والرملة وبيسان . ومن الغريب أن عدد الاقطاعيات الدينية كان ضئيلا للغاية على الرغم من الدوافع الدينية التي اذكت نيران الحروب الصليبية . ومن هذه الاقطاعيات الدينية كانت اللد (التي اطلق عليها اسم سان جورج فيما بعد) ، وبيت لحم والناصرية ، وكانت هذه الاقطاعيات صغيرة جدا في حجمها . وكانت المدينة هي المركز المعتاد للاقطاعية ، بيد أنه كانت ثمة استثناءات لهذه القاعدة مثلا اقطاعية شرق الأردن التي كانت بمثابة دولة حاجزة بين أراضي الهلال وأراضي الصليب ، فقد كان لها قلعة مركزية . وكان مسكن السيد الاقطاعي في قلعة المدينة ، أو بالقرب منها حيث يقيم أيضا الجهاز الحاكم العسكري والاداري للاقطاعية . وكانت حامية المدينة تتمركز في القلعة التي كانت تبني في الغالب قريبا من البوابة الرئيسية للمدينة كما كانت تضم موظفي الجمرك الذين كانوا يقومون بتحصيل الرسوم على المنتجات والمواد الغذائية .

وكانت الامارات الاقطاعية تنظم على نسق المملكة . فقد كانت محكمة الملك أو المحكمة العليا ، كما اطلق عليها الصليبيون ، هي النظام الرئيسي الذي قامت عليه الحكومة الملكية . فهنا كان الملك يقابل كبار الاقطاعيين ، ومن الناحية القانونية كان فرسان البيت الملكي والاتباع في الأملاك الملكية هم كبار الاقطاعيين ، (وذلك لأنهم كانوا أيضا أتباعا مباشرين للتاج) . وكانت المحكمة الملكية، شأنها شأن أية مملكة أخرى في العلم المسيحي ، محكمة قانونية في المحل الأول مهتمتها ارساء العدالة بين أتباع التاج ، ومعالجة المشاكل الخاصة باقطاعاتهم ومسوغات الملكية (بالنسبة للضياع التي كان التاج يهبها على سبيل التشريف) . والأهم من ذلك أن هذه المحكمة كانت هي المجلس الأعلى للحكم . ومع أنها مجلس استشاري أصلا ، فقد تحولت بالتدريج لتصبح العامل السياسي الحاسم في المملكة . وعلى الرغم من أن اعضاءها كانوا يجتمعون بناء على أمر الملك ، وعلى الرغم من أن

الملك كان يستطيع أن يختار موضوع المناقشة ، فإن أمور السياسة الخارجية ، وإعلان الحرب والسلام ، وإصدار أوامر التعبئة وفرض الضرائب الاستثنائية (غير الاقطاعية) ، كانت كلها أمورا خاضعة لمداولة المحكمة العليا .

وطالما كانت قوة التاج كبيرة كان رأيه حاسما . ولكن مع بداية القرن الثالث عشر ، حلت المحكمة العليا محل سلطة التاج المتهاكمة . . . وقد لعبت المحكمة العليا دورا هاما في شئون الوراثة الملكية والصراع من حولها في القرن الثاني عشر ، وأثناء القرن الثالث عشر ، كانت مسألة شرعية الوراثة ما تزال تشوبها ضبابية عدم الوضوح مما جعلها محلا للصراع مرة أخرى . وتدخلت المحكمة العليا في هذه المسألة باقتدار ، مما جعلها عنصر السلطة الهام في المملكة . فقد تفوقت بقدرتها وبنائها على الفرع التنفيذي في الحكومة (إذ كانت تضم كل من له مركز في المملكة) . وكانت الإدارة المركزية ، التي تم تنظيمها عقب الغزو مباشرة ، انعكاسا للتراث الأوربي الذي يمتد بجذوره الى عصر شارلمان ، حين كان موظفو البيت الملكي موظفين في الدولة أيضا . وكانت وظائفهم تشمل عمدة القصر ، والكونستابل ، ورئيس الحجاب ، والمسئول عن الطعام والشراب في القصر ، فضلا عن الأسقف الذي كان يقوم برئاسة قضاة محكمة البلاط . واستمر هذا الإطار الأولي قائما على مدى قرنين من الزمان دونما تغيير ملحوظ . بيد أن الأمر نفسه يشهد على عدم أهمية هذه الوظائف ، كما يشهد على الروح المحافظة للمملكة . ولسنا في حاجة الى القول بأن هذه الوظائف لم تكن محل صراع ، ذلك أن التاج كان قد عين من يشغلونها من بين كبار النبلاء ، كما لو كانت الخدمة في هذه الوظائف جزءا من تربيته في الحياة السياسية والعامة .

وكانت الأهمية المتزايدة للمحكمة العليا مقرونة بتغييرات في

تركيبها • فمتذ منتصف القرن الثانى عشر ، كان يسمح لكل اصحاب
 الاقطاعيات فى المملكة بالانضمام الى المحكمة العليا • وكان هذا يعنى ،
 من الناحية النظرية ، أن تضم كل النبلاء فى المملكة وافصالهم ، وافصال
 افسالهم وفقا لتدرج السلم الاقطاعى • ومع القرن الثالث عشر ظهر فى
 المحكمة نواب لبعض الهيئات المتضامنة ، مثل القادة العسكريين ،
 والفيكونتات ، والقناصل • كما ظهر نواب من نمط جديد ، هم نواب
 الهيئات المتحدة مثل الجماعات الاخوانية (وكانت هذه فى الاصل
 جمعيات خيرية يرأسها قديس من الوطن ، وكان الانضمام اليها حقا
 للنبلاء وابناء الطبقة الوسطى أحيانا على السواء • ثم حدث أن صارت
 نواة للحركات الثورية) وفى السنين الأخيرة من عمر المملكة كانت
 المحكمة العليا فى طريقها لأن تكون برلمانا للمملكة يجمع بين اصحاب
 الاملاك على اختلافهم ونواب الجمعيات •

كانت محكمة السيد الاقطاعى التى تجمع اتباع الاقطاعية محكمة
 قانونية فى الاصل ، مثل المحكمة العليا ، كما كانت بمثابة مجلس
 استشارى للسيد الاقطاعى أيضا • وكان النظام التنفيذى فى الاقطاعية
 صورة من نظام التاج • بيد أن الاقطاعيات الكبيرة هى التى كانت قادرة
 على التباهى بأن لديها درجات وظيفية مشابهة لتلك التى لدى الدولة •
 وعادة ما كان لكل اقطاعية محكمة خاصة ، فضلا عن موظف أو اثنين
 لإدارة مالية السيد الاقطاعى والبيت الحاكم • ولكن البناء السكاني
 للاقطاعيات الصليبية كان يختلف اختلافا جذريا عن النمط الأوربي
 المألوف لدى النبلاء الصليبيين • ذلك أن الصليبيين كانوا مضطرين
 للتعامل مع الفرسان وسكان المدن فى الكومونات التجارية الإيطالية
 بدلا من النبلاء والأقنان الذين عرفهم المجتمع الأوربي ، وكان الجميع
 ينضون تحت لواء الاطار الفرنجى العام • فضلا عن المسيحيين
 الشرقيين الذين كانت تضمهم حوالى ست طوائف ، بالإضافة الى

المسلمين واليهود والدروز والحشاشين والسامرة فى بعض اجزاء
المنطقة .

لقد كان ذلك عالما غريبا ومثيرا ، ولم يكن فى تجارب الصليبيين
السابقة ما يجعلهم على استعداد للتعامل معه . وقد سلك الصليبيون
اسهل طرق المقاومة ، ذلك أنهم ببساطة لم يخالطوا السكان الوطنيين
على الصعيد الاجتماعى ، وتركوهم لنظامهم الحكومى . وكان هذا
قرارا حاسما لأنه كان يتطلب التخلّى عن أى عمل تبشيري واسع النطاق
بين المسلمين أو المسيحيين الشرقيين . وهكذا ، وعلى الرغم من أن
الأرض المقدسة كانت تحت السيادة المسيحية ، فإنها لم تصبح اطلاقا
بلدا مسيحيا ، لأن غالبية السكان ظلوا من غير المسيحيين . ومرة
أخرى اصطدم الواقع بالمثال ، وأملّى الواقع شروطه القاسية بالتسليم .
وكانت هناك فرصة لبناء الدولة المسيحية كما وجدت تحت سلطة
البيزنطيين منذ ثلاثة قرون مضت ، وقبل أن تقهرها قوات فرسان البادية
التي اندفعت فى سرعة من أعماق شبه الجزيرة العربية لتأسيس
السيادة الاسلامية . ولكن الصليبيين لم يستغلوا الفرصة ، لأن التحويل
الى المسيحية لم يكن ابدا جزءا من برنامج الكيان الصليبي . ولم تكن
موجات الهجرة الأوربية تسمح بحلول الاستعماريين الأوربيين محل
السكان الأصليين .

ومن ناحية أخرى ، كان مبدأ عدم التدخل ، الذى كان الى حد ما
تقليدا لتراث النظام الاسلامى السابق ، يضمن استقلال الجماعات
الدينية المتعددة . ففى القرى كان التقاضى بين أعضاء الجماعات
المختلفة يتم أمام سلطاتهم التقليدية ، علمانية كانت أم دينية . وكانت
هذه هى الحال فى مدن المملكة ، ولم يطبق التشريع الفرنجى سوى فى
الحالات التى كانت تجمع بين الفرنجة وغير الفرنجة ، أو عندما يلجا
فرد من اقلية ما الى المحاكم الأجنبية .

وكان الصليبيون الأحرار أو سكان المدن يحتلون درجة أقل من درجة النبلاء والفرسان في سلم الحكومة الصليبية . ومن خلال رتبهم ودرجتهم تكونت في بطم طبقة أشرف المدينة ، ولكنها كانت طبقة مختلفة عن شبيبتها في المدن الأوربية فسكان المدن من الفرنجة لم يصبحوا أبدا سادة الاقتصاد الوطنى على نحو ما حدث لرفاقهم الأوربيين . ذلك أن أكثر المهن ربحا ، وهى التجارة الدولية ، صارت بالفعل حكرا على الايطاليين والبروفنساليين وأهل قطالونيا . أما طبقة الأشرف الصليبية فقد وصلت الى السلطة ، لا عن طريق النجاح الاقتصادى ، وإنما من خلال القنوات الادارية . ففي كل مدينة ، ولا سيما فى عكا وبيت المقدس ، وصلت بعض الأسر الى السلطة فى حاشية البطريك والملك والأسقف والسيد الاقطاعى الكبير . فقد كان أبناء هذه الأسر قد تلقوا تعليمهم فى المدارس الملحقة بالأبيرة والكنايس ، حيث لقنوا مبادئ القراءة والكتابة والحساب . كما كانت لهم معرفة سطحية باللاتينية بحيث يمكنهم استكمال الحسابات والتقارير ، وكتابة مذكرة حول العقود التى كان موثق العقود الرسمى يتولى تحريرها . وكانوا ، وهم يحاولون الكتابة باللاتينية يدخلون تعبيرات فرنسية وإيطالية فى سياق الكلمات اللاتينية ، كما أنهم أجهزوا على النحو اللاتينى . ومع ذلك ، فإنهم كانوا أكفاء . ومثلما فعل سادتهم من الأشرف وجدوا متنفسا ايجابيا منتجا لمواهبهم الادارية فى محاكم المملكة الخاصة بغير النبلاء .

وقد صارت محكمة سكان المدن ومخلفوها ، نقطة الارتكاز لدى طبقة الأشرف ، كما صارت المحكمة نفسها مصدر السلطة فى المدينة بحيث كان المحلفون يتمتعون بأهمية كبيرة باعتبارهم الشريحة العليا بين الفرنجة غير النبلاء . ومع ظهور كفاءات المحكمة ارتقت مكانتهم بسرعة . وأصبحت محكمة سكان المدن ، التى كانت مكتبا للسجلات ،

بمثابة فرع للنظام التشريعى . وكانت هذه المحكمة الخاصة بسكان المدن واملاكهم وعقاراتهم تقوم بتسجيل كل صفقات العقارات الخاصة بالمواطنين مثل البيع والتأجير والرهونات العقارية وأراضى المدينة والحداثق والآبار وغيرها . كما كانت تعرض على قضاة المحكمة القضايا الخاصة بالدعاوى والمنازعات . ومنذ شروق الشمس الى غروبها ، وعلى مدى ثلاثة أيام فى الاسبوع ، كان القضاة يجلسون للفصل فى الخصومات ، يحيط بهم الموثقون والكتبة والشمامسة . ويفد اليهم سكان المدينة الصليبية بمشاكلهم المختلفة من قضايا عقارية ، الى محاولات التهرب الضريبية والجمركية والسرقة والجنايات الكبرى . وقد جاء مراقب شرطة المدينة ، أو المحتسب الذى كان مسئولاً عن الأعمال التجارية الشريفة فى الأسواق ، ومعه المجرمون ليعرض على المحكمة التهم الموجهة ضدهم . ومن هنا يأخذ المسئول عن السجن المحكوم عليهم للعقوبة البدنية أو الحبس . وفى بعض الحالات ، كان يتم تحديد تاريخ آخر للفصل بين المتنازعين ، أو يحدد موعد آخر للدفاع عن الحقيقة فى مبارزة بالسيوف ، كما كان مألوفاً فى عرف سكان المدن .

وبمرور الوقت وجد سيد المدينة أنه من الأفضل والأكثر فائدة أن يقتسم اختصاصاته الواسعة مع محكمة المدينة . فكانت المحكمة تقرر قوانين حظر التجول والأسعار ونظافة الشوارع ، ثم يقوم منادى المدينة بارتقاء حجر خاص ، وهو عادة بقايا عمود قديم كانوا يسمونه le bon ليعلن هذه القوانين على المواطنين المتجمعين . وقد أدى استمرار المثول أمام المحكمة الى ظهور فئة كبيرة من المحامين من سكان المدن ، كما حدث بين النبلاء الصليبيين ، ونظراً لمعرفتهم التى لم يكن أحد يشك فيها ، علت مكانتهم لدرجة أن النبلاء المتكبرين كانوا يطلبوا نصيحتهم ، بل وكانوا يدعونهم الى المحكمة الاقطاعية فى المملكة فى بعض الأحيان .

والى جانب محكمة السيد الاقطاعية ، ومحكمة المدن كانت هناك محكمة السوق المنفصلة . وهى هيئة فرنجية سورية مختلطة تحكم فى المنازعات الصغيرة التى كانت تنشب فى السوق حيث كان المدعون والمتهمون أفرادا من جماعات مختلفة . وقبل تأسيس محكمة السوق كانت هناك محكمة سورية وطنية يرأسها الرئيس . ووفقا لما جاء فى بعض المصادر الصليبية طلب المسيحيون المحليون اشراف ملوك بيت المقدس الأوائل على هذه المحاكم ، ثم انتقلت بعض اختصاصاتها الى محكمة السوق بمرور الزمن . ولم يحدث هذا التطور فى القرى التى يقطنها المسيحيون الشرقيون والمسلمون ، اذ ظلت المحاكم الوطنية تواصل عملها ، وذلك لأن هذا التطور كان مرتبطا بحياة المدينة .

وقد ظهرت مؤسسة جديدة هامة لمجابهة ظروف الحياة الجديدة ، وهى محكمة السلسلة . والاسم مشتق من السلسلة التى كانت تستخدم فى المدن الصليبية الساحلية كما يصفها الرحالة اليهودى الاسبانى الشهير بنيامين التيطلى فى الربيع الأخير من القرن الثانى عشر : « وصور مدينة رائعة ، وبها ميناء فى وسطها حيث تدخل السفن الى المدينة بين برجين ، وفى الليل يلقي أولئك الذين يجمعون الضرائب بالسلاسل الحديدية من برج الى برج بحيث لا يستطيع أى انسان أن يمر بقارب أو بأية وسيلة أخرى لسرقة السفن ليلا » .

وفى أوقات الحرب أيضا كانت تمتد السلاسل بين الابراج السوداء لكى تمنع سفن العدو من دخول الميناء . وكانت محكمة السلسلة عبارة عن هيئة قانونية تخصصت فى القضايا البحرية . فقد كانت القضايا الخاصة بالنقل والملاحين وغرق السفن والقروض البحرية والشركات التجارية ، تتطلب معرفة متخصصة من جانب قادة السفن الذين كانوا عادة من أصحاب السفن أو التجار فى الوقت نفسه . وبعد أن توضح المحكمة القضية تبلغ نتائجها الى محكمة المدينة للحكم والتنفيذ .

وكان تطور هذه المؤسسات جميعا بعيدا كل البعد عن آمال وتطلعات الحملة الصليبية الأولى ، بيد أنها كانت ضرورية للحفاظ على المملكة وحكومتها . وكان الملك يعتبر نفسه خليفة الملك داود ، ولكنه لم يكن أكثر من حاكم لاحدى دول العالم المسيحى .

وكان وجود المستوطنات الصليبية فى الشرق يعتمد على أوربا ، ليس فقط من أجل الهجرة ، وانما من أجل العون المالى أيضا . وحقا وصلت اعداد من المهاجرين من أوربا الى الأرض المقدسة ، ولكم كانت هذه الهجرة مختلفة عن الجماهير العريضة التى جاءت فى ركاب الحملة الصليبية الأولى !! . ان لم يكن دافعهم الاول دينيا خالصا ، بل ولم يكن مسيحانيا . فقد ذهب بعض الأوربيين الى الشرق ليتخلص من قيود العبودية والرق . على حين ذهب البعض الآخر رغبة فى ان يبدأ حياة جديدة فى أرض غير معروفة ، وبامكانيات هزيلة . لقد تلاشى المد المسيحانى الذى سحب الحملة الصليبية الأولى فى غمار النسيان وجر معه الاعتقاد فى تحقيق النبوءات القديمة واقترب الحساب الأخير . لقد عاشت أوربا أعظم ساعات النهضة الروحانية ، ولكنها عادت الآن تستسلم للحياة الروتينية ومشاغل الحياة اليومية .

وعلى الرغم من أن الهجرة الى الشرق صارت تعتمد على الدوافع الاجتماعية والاقتصادية ، فان أوربا كانت لا تزال تشعر بان المملكة الصليبية البعيدة كانت أكثر من مجرد كيان سياسى اخر فى العالم المسيحى . لقد تولت هذه المملكة حماية الضريح المقدس ، كما تولت أيضا حماية الصورة الروحية التى ارادت أوربا ان تروجها لنفسها . لقد كانت المملكة الصليبية من خلق اسمى الأوقات التى عاشتها أوربا ، كما كانت من خلق فرحة السمو فوق الصراعات الصغيرة التافهة والحروب التى تطحن برحائها الأخوة ، فضلا عن أنها كانت تجسيدا لايمان أوربا وشعورها بعالمية دينها . وطالما ان هذه العقائد ظلت

قوية كانت أوربا تعتبر نفسها قيمة على سبيلتها الشسابة (مملكة بيت المقدس) . وعلى مدى قرنين من الزمان كانت أوربا تهتم بالمملكة وترسل المهاجرين وتقدم المعونات المالية لخزائن الصليبيين الخاوية دائما كما كانت تجهز وتجرد الحملات الجديدة على الشرق . وكان يقود هذا السلوك القوتان العالميتان المسيحيتان وهما الامبراطورية والبابوية اللتان كانتا زعيمتي العالم المسيحي على المستوى الدنيوى والمستوى الروحى . وكانت دعوى المملكة على أوربا المسيحية من القوة بحيث أن البابوية فرضت ضريبة على رجال الدين والعلمانيين لمدة جيلين لكى تضمن الموارد المالية اللازمة للصليبيين ومملكتهم . وقد سار ملوك أوربا وأمرأؤها فى الطريق نفسه . فقد شعرت فرنسا وانجلترا النورماندية بأقوى الروابط التى تصلها بالمملكة ، كما جاءت المساعدات من النرويج وصقلية وأسبانيا والمجر . وكان التأيد والعون مستمرين طالما كانت أوربا تعتبر أن مملكة بيت المقدس قطعة من لحمها وبعض دماغها .

ومع ذلك ، فقد تغير هذا كله مع بداية القرن الثالث عشر ، حيث هبت رياح جديدة ، واستسلم مثال المسيحية العالمية للممالك الاقطاعية النامية ، وبدأت الرؤية الجديدة تناهض غزو القوة بالارساليات السلمية . وبالتدريج بدأت أوربا تقطع صلاتها العاطفية بمستعمراتها الشرقية . ولم تكن الحماسة الصليبية القديمة تؤجج سوى صدور أصحاب الرؤى مثل سان لويس (الملك لويس التاسع) ، ولفترة وجيزة فقط . ولكن الحركة كانت حينذاك تسير فى طريق نهايتها المحتومة .

الحياة فيما وراء البحار

جلب النبلاء والفرسان معهم من أوربا مفاهيم ومثل أسلوب حياة
الأمجاد الأقطاعيين وأعادوا غرسها في تربة البلاد المفتوحة حديثا .
وقد وصلت أوربا الغربية الحياة تحت سماء الشرق ، وضربت اللغة
والأنماط والعادات الفرنسية بجذورها في تربة عالم البحر المتوسط
الشرقي ، وسرعان ما نما جيل ثان وثالث من أبناء الفاتحين الأصليين .
وبالنسبة لهذه الأجيال الجديدة كانت كلمة « الوطن » تعني الأرض
المقدسة على حين كانت أوربا - الوطن القديم - مكانا ترتبط به أصول
أسلافهم البعيدة ، وكانت الأجيال الجديدة سلالة حديثة من الرجال
والنساء أطلق عليهم اسم البولان Poulains وهو اسم يمكن ترجمته
أو فهمه بمعنى « الأولاد » . وقد كانت حياتهم المنزلية وعلاقاتهم الأسرية
وخصوصياتهم كلها انعكاسا لأوربا ، ولفرنسا على وجه التحديد .
بيد أن بيئتهم - أي ظروف الحياة المادية وما يقابلونه يوميا في الشارع
والسوق - كانت عالم شرق البحر المتوسط . وهكذا ، فإن سليل العائلة
النبيلة ، أو حتى سليل عائلة من الفرسان ، كان يمر بنفس مراحل
التربية والتعليم التي يمر بها أقرانه الأوربيون . فقد نشأ في ظل تعاليم
نفس الدين ولقن نفس مبادئ العقيدة ورسم مواقفه وتصوراته الثقافية
معتمدا على نفس الأساطير والقصص الديني وروايات البطولة وأشعار
البلاط التي يتذوقها قرينه في غرب أوربا . وهكذا برزت إلى الوجود
فرنسا ما وراء البحار .

ومع ذلك فالفرنجي الذي ولد في بلاد الشام لم يكن أوربيا تماما .

فالزيجات المختلطة بالسيدات الأرمنيات والبيزنطيات كانت أمرا شائعا في أوساط الشريحة العليا من نبلاء الفرنجة . ومن ثم فقد كان من المألوف تماما أن تكون أم أحدهم أو جدته أو خالته مسيحية شرقية . وتنسحب هذه الحقيقة أيضا على البيوت الملكية وبيوت الأمراء الصليبيين . واكنت مثل هذه الزيجات تجلب معها الخدم والحشم الشرقيين - سواء من المسيحيين أو المسلمين - الذين كثرت أعدادهم في جميع بيوت الفرنجة الأثرياء . أما أبناء الشرائع الدنيا من المجتمع الفرنجي ، سواء من الفرسان الصغار أو سكان المدن ، فغالبا ما كانوا يتزاجون بالمسيحيات الشرقيات من نفس مستواهم الاجتماعي . ويعلق أحد كاتبى الحوليات من الصليبيين على الأحوال التى نتجت عن ذلك بقوله :

« . . . تأمل ، من فضلك ، واعتبر كيف نقل الرب في أيامنا الغرب الى الشرق . لأننا نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين . وذلك الذى كان رومانيا أو فرنجيا قد أصبح الآن جليليا أو فلسطينيا . والذى كان مواطنا في ريمس أو شارتر قد أصبح الآن من مواطنى صور أو انطاكية . لقد نسينا بالفعل أماكن مولدنا وأصبحت غير معروفة للكثيرين منا ، أو على الأقل انها أصبحت لا تذكر . ويملك البعض هنا بالفعل المنازل والخدم الذين ورثوهم عن ذويهم كما اتخذ البعض زوجات ليس من بنى جلدتهم فحسب ولكن من السوريين والأرمن أيضا بل ومن المسلمين الذين نالوا نعمة التعميد . كما ان البعض قد اتخذ لنفسه صهرا ، أو زوجة ابن ، أو زوج ابنة ، وهنا أيضا احفاد وحفيدات والبعض يزرع الكروم بينما يزرع البعض الآخر الحقول . ويستخدمون جميعا كلمات وتعبيرات من لغات مختلفة . وهذه اللغات ، التى أصبحت الآن شائعة ، أصبحت معروفة لدى الجنسين . كما ان العقيدة وجدت بين أولئك الذين كان آباؤهم غريبا . . . »

وهكذا اعتاد الفرنجي الشاب « البولان » منذ نعومة أظفاره على

مواجهة الغرب والتعايش معه فى الشرق ، فقد كان البيت أو القلعة التى يعيش بها فى المدينة بناء شرقيا كان فى العادة ملكا لأحد المسلمين قبل الغزو الصليبي ، وكان يختلف تماما عن الابنية والتحصينات الأوربية .
 فقد كان الخشب هو مادة البناء الأكثر شيوعا فى الغرب ، ولكنه لم يكن معروفا تقريبا فى الأرض المقدسة اذ كان الحجر هو مادة البناء الشائعة والمستخدمه فى كل من المدن والقرى . وعادة ما كانت تحمل من مكان لا يبعد من المدينة نفسها ، مثل الحجارة التى تقطع من منحدرات جبل الكرمل فى قيسارية والحجارة المعروفة باسم Chastel Pélerin أى الحاج الطاهر والتى كانت تقطع من المحاجر القريبة التى تسد طريق الكتبان الرملية المتحركة باتجاه الشرق أو الحجارة ذات اللون الوردى الجذاب التى تجلب بيت المقدس .

وكان المنزل ذو الطابقين أو الثلاثة طوابق هو النمط الشائع فى المساكن . بيد أن المنازل ذات الطوابق الخمسة كانت معروفة أيضا وغالبا ما كانت أسقفها المسطحة مرصعة بأشجار النخيل المزروعة فى أحواض أو بالأشجار دائمة الخضرة ، بحيث تصير مكانا يستمتع فيه المرء بالنسمات الباردة بعد مغيب الشمس الحارقة . وفى الداخل ، كانت الحوائط السميكة تحفظ الدفء فى الشتاء ، حيث تهبط درجة الحرارة فى أماكن مثل بيت المقدس وصفد وجبسال شرق عكا وفى طرابلس وانطاكية الى درجة التجمد . وفى الصيف ، كانت الحوائط والنوافذ الضيقة تحفظ للحجرات برودتها ، حتى اثناء وقت الخماسين اللافة .
 كما كانت الأسقف شاهقة الارتفاع . وتضفى الاقواس الرقيقة مزيدا من الشعور بالارتفاع على المكان ؛ اذ كانت النوافذ الضيقة تحد من دخول الضوء والحرارة . ولم تكن النوافذ تغطى بالألواح الخشبية أو يجلد الرق ، وانما كانت تتألق بالزجاج المصنوع محليا . وكان الزجاج النقى الشفاف نادرا الى حد ما ، ولكن الزجاج الأزرق أو الأخضر والنصف

شفاف والذي يضم الفقاعات الهوائية كان كثيرا ما يستخدم ما لم يفضل
الماء الزجاج المرسوم .

وعادة ما كانت واجهة الدور الأرضي في المنازل الشرقية عبارة عن
حائط صلد ليس فيه سوى المدخل . وكانت نوافذ الطوابق العلوية تسمح
بدخول بعض الضوء . ولكن الفتحات الأساسية في البيت كانت تطل
على فناءه الداخلي ، حيث يوجد البئر عصب الحياة ، والذي يحفظ فيه
ماء المطر . أو في بعض الأماكن كانت تحفره حفرة في الأرض تتصل بأحدى
القنوات المائية الصناعية القديمة . وفي بعض المناطق الريفية ، كما
نعرف من خلال وصف أحد القصور الصليبية الرائعة في بيروت ، تقام
نافورة لترطيب الهواء ، وتسقط مياهها مرة أخرى في بحيرة كسيت
بالموزايكو .

وفي بعض المنازل ، كانت السلالم تبقى خارج المنزل بحيث تسمح
بالصعود من الشارع الى كل طابق من طوابق المنزل . وغالبا ما كانت
منازل الأثرياء تحتوي على نوع من البناء الإضافي في الخارج يتكون
من الأقواس المغطاة بالقماش السميك لكي تحمي المدخل من الشمس
والمطر كالمظلات الراقية في مداخل فنادقنا الفاخرة . وفي أعمدة الأقواس
نقرت ثقوب لكي تربط فيها الخيول .

أما البيوت المكلفة فقد كانت مداخلها تزين بالموزايكو الذي يحصل
بصمات الفن البيزنطي الاسلامي ، فضلا عن أن قطع السجاد الصغير
وقطع النسيج والسجادات كانت تغطي الحوائط . وكان الموزايكو يشكل
جزءا أساسيا في الزينة الداخلية ، وغالبا ما كان يعرض تصميمات
هندسية الى جانب رسوم الزهور والحيوانات . وفي المنازل الأكثر ثراء ،
كانت أقواس السقوف تستقر على حواف منحوتة ، أو على منظر عقود
واقواس ، وربما كانت الأقواس البسيطة تضاف الى الزينة ، وكان الاثاث

أفخم بكثير من ذلك الموجود في أوربا . ففي أفضل الأحوال كانت المناضد والكراسى وأرجل ورؤوس الأسرة من الخشب المحفور على هيئة العقود البارزة أو باقات صغيرة من الزهور ، أو رؤوس البشر أو الحيوانات . وغالبا ما كانت الكراسى تبدو على هيئة حرف X مستدير ، بينما كان الجزء العلوى من الكرسي يستخدم كمقعد بمسندين . ومع الكراسى توضع الحشايا المستطيلة والدائرية وقد غطيت بالحرير أو الديباج الذى ينتهى بشرابة من أجل مزيد من الراحة ، وربما كان عرق اللؤلؤ الذى برع فيه صناع بيت لحم يستخدم فى تزيين الاثاث . وفى بعض أعمال الموزايكو . وفى كل بيت من بيوت النبلاء ، وفى كل بناء كنسى ، كانت توجد منضدة للكتابة على هيئة صندوق ولها كرسي خاص بها . وتتم الكتابة على السطح المائل ، على حين كانت زجاجات الحبر والألوان والريش وغيرها من أدوات النسخ تحفظ فى الرفوف السفلى للمنضدة .

أما أدوات المطبخ والمائدة فكانت تختلف تبعا للطبقة الاجتماعية . وكان طهى الطعام يتم فى أوانى فخارية كبيرة فى أفران مفتوحة وتلك الأفران التى حفظها الزمن فى أماكن التى احتلها الصليبيون عبارة عن فتحات ضيقة كان من الممكن شئ اللحم فوقها أو تعليق القدور عليها . وتغطى الفتحات بنوع خاص من الاسياخ الحديدية التى تحمل القدور وأوانى الطبخ . وكانت الملاعق والسكاكين هى أدوات المائدة الرئيسية . وكان من المعتاد أن تصنع الملاعق من الخشب بينما تصنع السكاكين من الصلب أو الحديد ، وغالبا ما كان الواحد منهم يستخدم خنجره كسكين للمائدة (وكانت للخناجر أحيانا مقابض مزينة من العاج أو الخشب المحفور ونصل من الصلب الهندى الشهير) ، على الرغم من أن الأدوات المعدنية غالبا ما كانت تستورد من أوربا . وفى بيوت النبلاء كان الصبية أو التابعون الصغار يقومون على خدمة المائدة ، وحين تستقبل الأسرة ضيوفا من أصحاب المقام الرفيع يقوم أبناء الأسرة الصغار (م ١٠ - عالم الصليبيين)

بهذا الواجب أحيانا . وتنقل شرائح اللحم على الخبز المستدير الذى يقوم مقام الأطباق ، وقد يوضع الخبز فى أطباق من الفخار تزينها غالبا الرسوم . وكان أكثر أنواع الطلاء شيوعا هو الذى يتكون من خلفية قاتمة اللون تغطيها رسومات هندسية من الطلاء البنى والاخضر والاصفر . وفى بعض الأحيان كانت هذه الرسوم عبارة عن رموز مسيحية - مثل الصليبان والسمة والاكاليل وتيجان الأساقفة - وكانت تستخدم أيضا رؤوس الحيوانات والكائنات الأسطورية وما شابه ذلك . أما الأطباق الأكثر فخامة فكانت تزينها رسوم الفرسان والخيالة فوق ظهور خيولهم .

وكانت الأطباق المعدنية والكؤوس تعد جزءا من زينة المنزل . فكان بعضها يخصص تماما للزينة مثل أطباق النحاس الكبيرة المنقوشة بآيات من الكتاب المقدس ويبيع منظره وصوره . ويبدو ان هذه كانت تستورد من أوروبا ولكن مثل هذه الآنية المستخدمة للزينة ، وفى الاحتفالات ، والآنية التى كانت تقدم عليها الوجبات للملك الصليبي فى المسجد الأقصى بعد التتويج ، لابد وانها كانت من المعادن الثمينة التى صممت ونقشت فى سوريا أو فلسطين . وكذلك شاع استخدام الأكواب والكؤوس المعدنية وكان بعضها يطعم بالفضة على الطريقة العربية الشرقية المحببة . ولم تكن النقوش العربية التى تمجد الله لتقف حجر عثرة فى سبيل استخدام الصليبيين لها على الرغم من أنها قد تستخدم فى شرب الخمر (وهو ما لم يكن الفنانون الذين صنعوها يقصدونه بكل تأكيد) . وفى الوقت نفسه كانت الأكواب والكؤوس المعدنية شائعة الاستخدام فى أوروبا أيضا ، على حين لم تكن المصنوعات الزجاجية أكثر شيوعا فى الشرق . وهناك بعض الأمثلة على الأكواب الزجاجية التى تزينها الرسوم والنقوش ، والتى يحتمل ان تكون قد صنعت فى صور ، وهى تكشف عن شكل ممتاز وزينة فائقة الجمال . . . ويحمل أحدها شعار صاحبها مما يرجح ان تلك كانت عادة شائعة .

وكان البيت الشرقى وزينته الداخلية يجدان التكملة لهما فى ألوان الطهى • وأياما كانت تقاليد فن الطهى المجلوبة من أوربا ، فقد كان من العسير عليها أن تنافس قائمة الأطعمة المحلية • ولم تكن ألوان الطهى الشرقية تقلام مع المناخ السائد فحسب ، ولكن التوابل المشهية واستخدامها فى اللحم والأسماك ، والصلصة ، كانت تجعل من السهل على الأطعمة أن تحوز السبق على الأطباق الكثيرة والبسيطة المعروفة فى أوربا • أما الخدم الشرقيون ، مثلهم مثل الباعة فى الشوارع والأسواق ، فلم يجدوا صعوبة فى تقديم فنونهم لكل من أبناء البيوتات النبيلة والعادية على السواء • بل اننا نعرف بعض قدامى الصليبيين الذين كانوا يتباهون بأطعمتهم المصرية مثلما يتفاخر المرء حاليا بأن لديه طاهيا يحمل الوشاح الأزرق •

وقد تركت الموضة والملابس تأثيرها أيضا على المجتمع الصليبي ، ولكن الفرنجة جددوا فى هذا المجال ما اتخذوه من أزياء وملابس • وكان الفرنجى مستعدا للاستفادة من ميزة المنسوجات الراقية التى عرفها الشرق الأدنى أو الأقصى • والمنسوجات التى لم تكن متوفرة فى أوربا سوى فى بيوت الملوك والأمراء أو التى تظهر بين الآونة والأخرى فى الاحتفالات الكنسية ، كانت فى متناول الناس جميعا حتى محدودى الدخل منهم فى الشرق ، فالحريز والتفتاه والقصب والقطن والصوف والشاش كانت تنسج بأيدى الفرنجة ونسائهم ولكنهم كانوا يقاومون الطرز الشرقية • وكان من الممكن لهم أن يرتدوا الأقمشة الشرقية ، الا أن تفصيل الملابس ظل أوربيا فلم يكن الفرنجى يرتدى عباءة شرقية أبدا ، أو على الأقل لا يرتديها أمام الملا • وقد يضع فى بعض الأحيان شالا صغيرة أو طرحة على خوذته لتحميه من أشعة الشمس القوية • وقد يستخدم عباءة بيضاء كما يفعل الشرقيون وأعضاء المنظمات العسكرية ولكن ملابسه كانت أوربية فى أساسها • وكانت تتغير تبعا للطرز الأوربية • وكان الفرنجة

يستوردون من أوربا قطع الملابس التي لا يمكن الحصول عليها من داخل المملكة مثل أغطية الرأس . ومضى احساس الصليبي بهويته الجنسية بعيدا لدرجة انهم كانوا يمنعون غير الفرنجة من ارتداء الملابس الأوربية الطراز . وهذا التمسك بالعادات الفرنجية عبر عن نفسه أيضا في مقاومة العادة الشرقية في اطلاق الذقون . فبينما كان المشتركون في الحملة الصليبية الأولى ملتحين ، كما كانت العادة في بلادهم آنذاك ، فان الفرنجة في الأرض المقدسة تابعوا موضة حلق الذقون التي سادت أوربا بعد جيلين (في منتصف القرن الثاني عشر) . وصارت وجوههم بالذقون الحليقة والشعر المسدل على الكتفين علامة مميزة لدم كما كانت موضع احتقار الشرقيين وامتعاضهم .

وكان للمناخ والبيئة تأثيرهما في مجال الصحة والتجميل . فقد وصف أحد مؤرخي القرن التاسع عشر أوربا العصور الوسطى بأنها مجتمع نسي ان يستحم لمدة ألف سنة . وهذا الوصف لم يكن ينطبق على الفرنجة في الشرق بالتأكيد ، ان كان الصابون ينتج محليا ، وربما كان يصدر الى الخارج أيضا . وقد جلب تردد البولان على الحمامات تهمة « الرفاهية » عليهم ، ان اشار برنار الكيرفوى Bernard de Clairvaux الزاهد في فخر بأن الداوية الذين يتمتعون بعطفه وحمايته لا يستخدمون الحمام اطلاقا ! وبعدها بخمسين عاما كتب جيمس الفيتري James de Vitry اسقف عكا منددا بهذه البذاءات التي تحدث بين سيدات الطبقة الراقية في المجتمع الصليبي . فقد كان الجنوية يسمحون حتى بالاستحمام العام في الباليوم bainum في عكا (على الرغم من عدم اختلاط الجنسين) . وأيا ما كانت العادة ، فان الأوربيين الذين كانوا يزورون المملكة كانوا يعودون الى أوربا بانطباع ان مجتمعا مخنثا قد خلف ابطال الحملة الصليبية الأولى ، الذين كانوا قد أصبحوا آنذاك قدوة اسطورية تتمثل فيها كل صفات الفروسية وقيمها .

واليوم ، قد يصف المرء مثل هذا التصرف بالدهاء أو المكر أو الواقعية ، ولكن الأمر كان يختلف أمام ناظرى القادم من أوربا حديثا . وقد كان جيمس الفيتري عنيقا الى حد ما فى ادانته ان يقول : « لقد تربوا فى العز ، ناعمين ومخنثين وهم فى الثياب الناعمة » . وتحت اليد الثقيلة للمقسيس الغاضب يمكن للمرء أن يرصد أسلوب حياة وصفه مراقب معاصر ساخط ، بأنه أسلوب حياة شرق البحر المتوسط :

« وهكذا تعلموا ان يخفوا ما يعنونه فى كلمات مأكرة ، تغطيها الأوراق ولكنها لا تحمل ثمارا مثل اشجار الصفصاف العاقر ، لدرجة ان اولئك الذين لا يعرفونهم معرفة كاملة من خلال التجربة لا يمكن ان يفهموا تحفظاتهم وحيلهم الكلامية ، أو يتجنب الوقوع فى شرك خداعهم . انهم شكاكون غيورون على زوجاتهم اللاتي يحبسونهن ويراقبونهن بطريقة صارمة وواعية بحيث ان اخوتهن واقاربهن يكادون لا يقتربون منهن ، على حين يمنعونهن كثيرا من ارتياد الكنائس وحضور القداس والصلوات والتبشير بكلمة الرب وغيرها من المسائل المتعلقة بخلاصهن لدرجة انهم نادرا ما يسمحون لهن بالذهاب الى الكنيسة مرة كل عام ، وبالرغم مما سبق ذكره فان بعض الأزواج يسمحون لزوجاتهم بالخروج الى الحمام ثلاث مرات اسبوعيا فى رقابة مشددة » . وبالنسبة للمرأة يقول : « ولكن كلما شدو البولان على زوجاتهم زادت محاولاتهم بالاف الطرق والحيل للخروج من هذا التضيق . فانهن تعلمن أساليب الشر التى لا يمكن احصاؤها بشكل يصعب تصديقه ، وهى أساليب تعلمنها من النساء السوريات » .

وعلى الرغم من الحرب الدائرة بشكل يكاد يكون مستمرا مع تتابع الزمن فان أطايب الأرض المقدسة ونعمها جعلت الحياة أقل قسوة وفضاظة مما كانت عليه تحت السماء الرمادية فى شمال أوربا ، فالملابس والمنازل والمقابلات فى الشارع أو فى السوق والثروة فى الشؤون

السياسية داخل الحمامات كلها تعيد الى الازمان ذكرى المدن الهلنستية . والفارس الفرنجى الذى ينمو ويتزعرع فى مثل هذا الوسط ، على الرغم من كلامه وملابسه لم يكن فرنسيا ، وانما هو فرنجى من الشرق الأدنى . ولا يستطيع المرء ان يهتمهم بسهولة بالجبن فقد كانوا محاربين اكفاء . وبينما لم يكن الصليبيون فى القرن الثالث عشر دبلوماسيين مهرة على الدوام الا ان النبلاء منهم كانوا يولدون سياسيين ويرغبون فى ان يكون لهم اصبع فى كل مؤامرة او دسيسة سياسية . شأنهم فى ذلك شأن ايطالى عصر النهضة فى مدنهم الدول .

city-states

ونادرا ما كان الفرنجى النبيل يعيش فى الريف . بل ان النبلاء القلائل الذين كانت لهم حصون يستخدمونها كمراكز للضياع ، عادة ما كانوا يحتفظون بمنزل فى المدينة (عادة فى بيت المقدس ، وفى القرن الثالث عشر فى عكا أو صور) وقليل جدا من النبلاء كانوا يعيشون فى ضيعاتهم . وذلك لأنهم كانوا اساسا فئة من الملاك الذين يجمعون الدخل من ضياعهم الريفية وينفقونها فى أماكن اقامتهم الحضرية . اذ كان الريف وقراه بالنسبة لهم مكانا يعيش الانسان خارجه ويشرف عليه ولكنه نادرا ما يقطن فيه . أما العلاقة بين الاقطاعى وحائز الأرض ، أو بين الاقطاعى والقرن ، التى عرفتها أوربا العصور الوسطى ، فلم تكن موجودة فى الشرق تقريبا . وكان ناظر الضيعة أو من يماثله فى وظيفته كالكاتب يقوم بالاشراف على ايجارات القرية ، على الرغم من انه نادرا ما كان يتدخل فى العمل الزراعى نفسه . ولم يكن النبيل الصليبي يقدم على الزراعة والفلاحة لحسابه ، بل نادرا ما كان يحتفظ بأرض عقار . وعادة ما كان يرضى بثلاث أو ربيع محاصيل القرية ، التى عادة ما كانت تدعمها الدخل الناتجة عن الضرائب المفروضة على سكان المدن . والحقيقة ، ان زيارة النبيل الصليبي لأملكه الريفية كانت نادرة اذ كان الواحد منهم

يخرج الى الريف للقنص أو صيد الأسماك ونادرا ما كان يخرج لأعمال اقتصادية . فقد كانت مظاهر حياة الريف ، دون تحمل أعبائها ، موجودة فى البساتين الجميلة والكروم ومزارع الزيتون التى كانت تحيط بجميع المدن ، وكان بعض النبلاء يحتفظون بنوع من الكواخ أو ما يشبه ذلك فى هذه « الضواحي » حيث يقضون أيام الصيف الحارة والأمسيات الأقل حرارة فى رفقة أبناء طبقتهم ، وكان بعضهم أحيانا من طبقة النبلاء المسلمين . ومن هذا المكان قد يخرجون لمطاردة أحد الثعالب أو خنزير برى أو يصيدون بالصقور . وكانوا يقضون شطرا كبيرا من وقتهم فى ركوب الخيل وفى التدريبات العسكرية . وكان النبلاء الصليبيون مثل أقرانهم المسلمين يتباهون على بعضهم البعض ويتفاخرون بجمال خيولهم اذ كانوا ينفقون مبالغ طائلة فى سبيل اقتناء الخيول وتجهيزها بالسروج وأفخر الثياب وبالأدوات الغالية والمعادن النفيسة . وكانت الأراضي الفضياء حول المدن تستخدم كمكان لاستعراض الخيل والخيالة . وفى فترات السلم ، كان المسلمون يشاركون فى هذه التدريبات . وكانت المباريات هى المجد الذى يتوج النبيل الفارس ، وهى معارك وهمية يقوم بها النبلاء أو الأبطال الأفراد ، وفى مثل هذه المناسبات كانت السيدات تظهر فى ميادين المدينة أو القلعة للمشاركة فى هذه العروض التى تعد من أكثر العروض تشويقا وإثارة فى العصور الوسطى . وهنا يمكن للتابع الاقطاعى الصغير أو الفارس المحنك ان يحصل على المكافأة والشهرة لقاء شجاعته ومهارته العسكرية اذ كانت الخيول والأسلحة والدروع المملوكة للخاسر ، وهى غالبا ذات قيمة مرتفعة ، تصبح من أملاك الفائز . ومع ذلك ، فانه يبدو أن تلك المباريات ، التى كانت ترتبط غالبا بالأعياد ، كانت أقل فى الشرق الصليبي منها فى أوربا فى ذلك الوقت . وربما يكون السبب فى ذلك هو أن المعارك الوهمية تكثر فى مجتمع تخلص من الحرب لتصبح ظاهرة شبه يومية حيث كان الواقع

القاسى يغذى الدافع الى القيام بهذه العروض التى كانت غاية فى القوة فى أوربا على الرغم من التحريم الكنسى لها .

وكان الشطر الأعظم من وقت النبيل أو الفارس يقضى فى المدينة ، مكان اقامته المعتاد ، وكان وقت صفار الفرسان ينظم وفقا لواجبات كل منهم فى الخدمة فى حامية المدينة كحراسة قلعتها ، والطواف على الأسوار والابراج وحراسة قصر السيد ، أما النبلاء الأعلى رتبة فكانوا يقضون جزءا كبيرا من وقتهم فى مجالسة سيدهم الأعلى ، وغالبا ما كانوا يجلسون فى بلاطه كمستشارين أو قضاة ، وكمستشارين كان عليهم أن يقدموا المشورة فى المسائل التى تطرح عليهم لمناقشتها ، وكقضاة ، كان عليهم انجاز الالتزامات الإقطاعية التى تحكم نظراءهم .

وثمة مقالة صغيرة عنوانها « فى العصور الأربعة للرجال » كتبها أحد الفرنجة فى منتصف القرن الثالث عشر وتصف الوظائف التى تناسب كل عصر . وتعطينا هذه المقالة انطبعا بأن الفرنجة فى الشرق كانوا يكونون مجتمعا نبيلًا متدينا . ومن سوء الحظ أن هذه الصورة تصطدم اصطداما عنيفا بالمصادر الأخرى - على الرغم من الأصول الكنسية - التى تقدم لنا رواية مختلفة تماما عن سلوك النبلاء . وأيا ما كانت الحقيقة ، وسواء كان الواحد منهم يحضر القداس اليومى أو لا يحضره ، فليس هناك شك فى أنه كان على النبيل أن يشارك فى احتفالات الكنيسة والتى كانت فى مدينة مثل بيت المقدس لا تثير المشاعر الدينية فحسب . وإنما كانت مظاهر للروعة والفخامة لكل من المشاركين والمتفرجين .

وبالنسبة لوسائل التسلية والعلاقات الاجتماعية الأخرى ، كان المرء يلتقى بأصدقائه فى المنزل ، أو فى الحمام ، أو حتى فى إحدى الحانات . وكان الشطرنج - لعبة الملوك - معروفا ، ولكن النرد كانت التسلية الأكثر شيوعا ، وكان الواحد منهم يقامر بثروته وحياته . وكانت

الوجبات الغذائية والشراب - الشراب حتى الثمالة - جزءا لا يتجزأ من التسلية ، كما كانت حانات كثيرة وبعض المنازل الخاصة تحتفظ بعدد من الموسسات على الطراز الغربى أو بعدد من الفتيات الشرقيات الراقصات ، وكن أحيانا من الاماء أو الجوارى الشرقيات . أما الدعارة التى كانت مهنة شائعة فى كل مدن العصور الوسطى ، وأكثر شيوعا فى الموانئ ، فقد كانت مكلفة للغاية فى مدينة ساحلية مثل عكا ، حيث كان البابا يحذر رجال الدين من مغبة تأخير المنازل للموسسات . ولدينا وصف حى لهذه المدينة مسجله قلم جيمس الفيتري الذى شغل اسقفية عكا لبعض الوقت :

« لا يكاد يوجد بين « البولان » واحد فى كل ألف يأخذ زواجه مأخذ الجد . فهم لا يعتبرون الزنا خطيئة قاتلة . فمئذ الطفولة وهم مدللون ومستسلمون للملذات الحسية حيث لا يتعودون على سماع عمل الرب ، الذى يستخفون به . وقد وجدت هنا أجنب هربوا فى يأس من أوطانهم بسبب العديد من الخطايا الفظيعة ، وهؤلاء الناس ، الذين لا يخشون الله ، يفسدون المدينة بأسرها بأعمالهم الديئة . ونماذجهم الخبيثة .

« وفى كل ليلة وكل يوم تقريبا يقتل اناس سرا أو جهرا . وفى الليل يخفق الرجال زوجاتهم اذا كانوا يكرهونهن ، على حين تستخدم النساء فن السم القديم والشراب السحرى لقتل الأزواج حتى يستطعن الاقتران برجال آخرين . وهناك فى المدينة باعة للسموم حتى انه لا يمكن لأحد ان يثق فى أحد فأعداء الانسان هم أهل بيته . »

« وتتعج المدينة ببيوت الدعارة ولأن الموسسات يدفعن أعلى الايجارات فلهذا انه ليس فقط الدينين فحسب ولكن القسسوس بل وحتى الرهبان يقومون بتأجير منازلهم فى جميع انحاء المدينة للعاهرات ، ومن الصعب التأكد من درجة تعليم النبلاء الفرنجة . ويبدو أن

الشرائع العليا من النبلاء كانوا متعلمين وقد كتبوا بعض مؤلفات قليلة ، وبعض الشهادات التي توضح أن مستواهم التعليمي كان مساويا لمستوى أقرانهم الأوربيين . ونعلم عن الاحتفالات التي كانت تمثل فيها مشاهد من ملحمة آرثر والقصص الخرافية الشائعة في أوربا . ولكن هناك شك حول ما اذا كانت نفس درجة التعليم متوفرة لدى الشرائع الدنيا من النبلاء ، وبالمثل ، فإن معلوماتنا قليلة جدا عن الاهتمامات الثقافية للنبلاء . ويبدو أن عددا قليلا جدا منهم كانوا يهتمون بالتراث الشرقي الفني المحيط بهم ، كما أن قليلين منهم اتقنوا اللغة العربية التي كانت اللغة الشائعة في الشرق ومفتاح كنوزه . وعلى العموم ، يبدو أن هذه السلالة الأوربية التي تربت في الشرق لم تكن لها اهتمامات ثقافية كبيرة .

ويتأكد قصور الاهتمامات الثقافية بالحقيقة القائلة بأنه لم تنشأ في المستعمرات الصليبية مراكز للدراسة أو مراكز ثقافية أو مدرسة أو جامعة وذلك في عصر كانت كل المراكز الأوربية العظمى تزخر بالكليات والجامعات . وكان الذي يرغب في تعليم أرحب انقا يذهب الى أوربا ، على نحو ما فعل مؤرخ المملكة الوحيد وليم الصوري ، الذي كان واحدا من البولان واحتل مكانته بين أكبر مؤرخي العصور الوسطى . وهذه الظاهرة في حد ذاتها تشرح السبب في أن المستعمرات الصليبية لم تصبح أبدا معابر بين الشرق والغرب ، على الرغم من أن هذه المستعمرات ظلت على مدى مائتي عام طلائع أوربا في شرق البحر المتوسط .

وثمة استثناء واحد كبير في المستوى المنخفض في مجال الفكر والروح ، وهو الاهتمام الخاص للنبلاء بالقوانين العرفية للمملكة ، أي القانون الاقطاعي كما كان يمارس في بيت المقدس وقبرص . وكان النبلاء الوطنيون هم المفسرين الرئيسيين لهذا القانون ، وعلى الرغم من أنه يبدو أنه كانت لديهم بعض المعرفة بالقانون الروماني - بالقدر الذي

يكفى للاقتباس منه على الأقل - فان قانون المملكة كان قانونا عرفيا ينتمى الى العصور الوسطى . وكانت سيطرتهم على الموضوع محكمة بحيث ان بعض مؤلفات المشرعين الصليبيين بقيت فى الأعمال القانونية الأوربية . وكلها تقريبا كتب تحوى نصوص القانون الاقطاعى وظلت تستخدم ويقتبس منها حتى عصر الثورة الفرنسية حين حل القانون الجديد محل القانون الاقطاعى . وعند قراءة مقالات جان اليبيلانى Jean d'Ibelin أو فيليب النوفارى Philip of Novara يتأثر المرء بصيحة الفرح التى يطلقها أولئك المشرعون وهم ينكبون على معالجة دقائق وتفاصيل القانون وتفريعاته وحالات التطبيق الممكنة - وهى نوع من المعالجة الحصرية الماثورة لدى اللاهوتيين المدرسين . ويبدو أن هذا الاهتمام بالقانون قد احتوى كل الطاقات الثقافية للنبل الصليبيين اذ كانوا يتعلمون القانون وهم فى طور الشباب بحضور المقابلات فى البلاط الملكى أو بلاطات الأمراء ، وخلالها يلقنهم الكبار المبادئ القانونية . بل ان الشاب منهم كان يتعلم تقاليد البلاد القانونية أثناء احدى الحملات العسكرية . وليس اقل أهمية من الاهتمام بالقانون السابق الإشارة اليه حقيقة ان المقالة القانونية غالبا ما كانت تكتب كدليل على كيفية التحايل على القانون ، وهى ممارسة فى الدقائق لا تهتم بتحقيق العدالة بقدر اهتمامها بكسب القضية . ولا يبدو ان مثل هذه الأنشطة كانت تناسب النبيل الفارس ، الوربث الجدير بفرسان المائدة المستديرة أو لرفاق رولان Roland . ويمكن للمرء أن يقول انه اذا كان النبلاء الصليبيون لم يتأثروا بجراثيم الفلسفة اليونانية ، فانهم على الأقل أدركوا مواهب الشرق وقد يكون ذلك حكما طائشا الى حد ما اذا ما تحقق المرء من أن هذه الدراسة للقانون كانت ترتبط بحاجة النبلاء الأساسية الى تأمين « حرياتهم وحقوقهم الانتخابية » التى كانوا يرون فيها أمرا يرتبط بالحرية الدستورية فى المملكة .

واذا كان بمقدور النبلاء الفرنجة أن يتتبعوا شجرة نسبهم حتى

مواطنهم الأوربي - وأن لم يكن أحد البيوتات الشهيرة في العالم المسيحي - فإن سكان المدن على الرغم من القابهم لم يكونوا من سلالة سكان المدن الأوربية . أما الطبقة الدنيا من الجماهير الفرنجية فقد كانوا في غالبيتهم من سكان الريف ، وقد تركوا أوربا ، أما برفقة إحدى الحملات الصليبية ، أو كجزء من موجة من موجات الهجرة ، وكانت هذه الطبقة من المجتمع هي التي تُولف غالبية السكان الفرنجة ، ولم يكن التحول من حياتهم الريفية والتقلب في الوظائف أمرا هينا . أما الصناع والحرفيون الوطنيون الأصليون سواء من المسيحيين الشرقيين أو المسلمين ، فقد كان في مقدورهم أن يقدموا منتجات تتفوق كثيرا وتتوافق مع الحاجات المحلية . ومن المؤكد أن منتجاتهم كانت أكثر رقيا من أى شيء ينتج في مشاغل الضياع الاقطاعية في أوربا . وعلى أية حال ، فإن سكان المدن كانوا يتمتعون بأنهم قادرين على انتاج البضائع التي تلائم الذوق الأوربي وابتكار الانماط التي يقبل عليها المستوطنون الجدد في سهولة . كما أنهم كانوا يتمتعون بحقيقة ان المهاجرين الجدد يفضلون أبناء جلدتهم . الا ان هذه الميزة كانت سريعا ما تختفى في مواجهة منافسة الأسعار المحلية .

كانت هذه الطبقة من المهاجرين هي التي تُولف الطبقة الوسطى في المجتمع الجديد من الحرفيين والتجار وهي وظائف نادرا ما كانت متميزة . وكان هؤلاء يلبيون حاجة المجتمع الى الحائكين وصناع الاحذية ، والصاغة والنجارين والحدادين والطحانين والطباخين والخبازين ، والحلوانية وصناع الشموع . وفي الموانئ والأماكن الساحلية ظهرت وتطورت حرف تزويد السفن بالموث التي تكفيها طوال رحلة الأسابيع الثلاثة الى أوربا . كما ظهرت حرف أخرى جديدة مثل المكارية وسائقي الجمال والسقائين . وباعة التوابل والبخور والعطور ، كما كان من الطبيعي ان تظهر حرف الادلاء وبائعي الذخائر المقدسة ، والخمارين ، وكان أصحاب الخمارات معروفين في شتى انحاء العالم

المسيحي . وكان الحجاج والمهاجرون يشكون دائما من وقوعهم فى براثن المحتالين . وكانت بعض الحانات ، التى تستخدم كفنادق فى الموانئ وفى مراكز تجمع الحجاج ، تستخدم أيضا كبيوت للدعارة ، وفى هذه الاماكن ازدهرت حرفة الدعارة والمقامرة بالنرد مما أدى الى انتهاك حرمة أولئك الذين جاءوا سعيا وراء التوبة والمطالب الروحية .

ومن ناحية أخرى ، كان سكان المدن يحتلون مراتب الوظائف الدنيا فى المملكة سواء فى المدينة أو فى الادارة الريفية التابعة للسيد الاقطاعي . وكان بعضهم على قدر من الالام باللغة العربية يمكنه من العمل كترجمان ، على حين كان البعض الآخر ، الأكثر تعليما ، يشغلون وظائف الكتبة أو كتبة الشكاوى (العرائض) . ويمكننا ان نتصورهم يجلسون بجوار اماكن اقامة السيد أو الأسقف ، ومعهم مناظيرهم وزجاجات الحبر وريشهم وشرائط الرق يدبجون الطلبات المتواضعة للناس البسطاء ، ثم هناك الواجبات الادارية المنتظمة . اذ كانت كل من المؤسسات الاقطاعية والكنسية تحتاج الى النظار لادارة الضياع والاشراف على الخدم وعند بوابات المدينة وعلى مدخل الموانئ كان هناك مجموعة من الكتبة وجباة الضرائب ورسوم الجمارك يقومون بهذه الواجبات وسط ضجيج المساومة والمهاترات .

وكان سكان المدن يستأجرون الأركان والسقائف والدكك التى يبيعون عليها من سيد المدينة أو من المؤسسة الكنسية ليستخدمونها فى أسواق بيت المقدس الثلاثة وفى أسواق انطاكية وطرابلس وعكا . وفى السوق كانوا يبيعون بضائعهم ، وثمار حدائقهم والفواكه أو المنتجات المشتراة من الريف لكى يعاد بيعها الى سكان المدينة . كذلك كان هناك صرافو النقود من سكان المدن . وغالبا ما كانت هذه المهنة ترتبط باقراض النقود ، كما كانت هى أول مهنة يحتك بها الفرنجى فى عالم المال ، أما الأنشطة المالية العليا فقد كانت بعيدة عن متناوله لأن الظروف التاريخية

ابان الفترة الباكرة من الغزو الصليبي جعلت من الميدان احتكارا حقيقيا للتجار الايطاليين (ثم البروفنساليين والكتلان فيما بعد) .

واذا ما بدأنا بالحملة الصليبية الأولى وبالعقد الأول من حياة المملكة على وجه الخصوص، حين كان الصليبيون يقاتلون القوى الاسلامية من صقلية حتى البحر الأحمر ، كانت أساطيل البندقية ، وبيزا وجنوه - أكبر متاجر أوربا - أساسية ولا غنى عنها فى غزو المدن البحرية فى سوريا ولبنان والأرض المقدسة . وقد طلب الايطاليون ، الذين تحركوا بمزيج من الدوافع والمثل الدينية والحسابات المادية . طلبوا مكافأة عن خدماتهم . والاعلان الدينى بأن هذه الاساطيل قد ابحرت الى الشرق لى تخوض حريا مقدسة وفى خدمة المسيحية لم يمنع ان تضمن هذه الاساطيل لنفسها نصيبا من الغزو ليس فقط فى النهب السريع ، الذى لم يكن تجنبه ممكنا ، ولكن أيضا فى الأرباح الأكثر دواما فى شكل الحصول على شوارع أو احياء فى المدن واعفاءات ضريبية وجمركية وامتيازات الحكم الذاتى والحصانة فى حكم مواطنيهم والحفاظ على املاكهم . وهكذا فان كل مدينة فرنجية رئيسية فى شرق البحر المتوسط - باستثناء مدينة بيت المقدس - كانت كلها مدنا بحرية وكان يوجد بها عدة شوارع أو شارع واحد على الأقل ينتمى الى أى من الجماعات الايطالية المختلفة . وكان الايطاليون يشكلون الطبقة الثالثة المميزة بين الفرنجة (الى جانب النبلاء وسكان المدن) وكان وجودهم اضافة الى ذلك الاختلاف فى الأوطان والمزيج من اللغات .

ولم تنشأ المستوطنات الايطالية مباشرة بعد الغزو اذ لم يستقر هناك سوى عدد قليل جدا من التجار فى السنوات الأولى من عمر المملكة ولكن نواة النشاط الادارى من الموظفين الذين تم ارسالهم من المدن الايطالية لحماية حقوقها وامتيازاتها أصبحت شكلا ثابتا منذ ذلك الحين حيث كانت بمثابة موضع للقدم . الا أن مستقبلهم كان يعتمد على قدرتهم على

استخدام الاملاك فى انطاكية أو صور أو عكا كقاعدة لأعمالهم التجارية .
ولم يكن الواقع مطابقا لتطلعاتهم . وذلك لأن المدن الصليبية الكبرى لم تكن
مراكز للانتاج ، ولا يمكن مقارنتها بالقسطنطينية أو الاسكندرية .
كما انها لم تكن متنفسا لبلاد داخلية غنية . ومن ثم لم تكن التجارة
الأوربية بقادرة على اقامة علاقات مباشرة مع هذه المراكز الاسلامية
أو البيزنطية . ومع ذلك ، فإن الوضع المميز لجماعات المستوطنات
الصليبية قد عوض العقبات الاقتصادية الواضحة ، فعلى سبيل المثال
كانت الاعفاءات الضريبية التى تتمتع بها هذه الجماعات التجارية تجعل
من المراكز الصليبية محطا مثاليا للتجارة المستوردة من داخل البلاد
الاسلامية - مثل الموانئ الحرة فى البحر المتوسط فى العصور
الوسطى . ومع نمو حجم التجارة وارتداد الأراضى الاسلامية فى
عمقها ، بدأ التجار الايطاليون ، الذين كانوا يستخدمون الموانئ الصليبية
كمجرد محطات على الطريق ، يطيلون مدة اقامتهم فى شرق البحر
المتوسط ، وقامت جماعات معقولة الحجم من التجار الايطاليين باستيطان
جميع الموانئ الرئيسية فى الكيان الصليبي فى الشرق .
وكانت الكوميونات ، كما اطلق على مثل هذه الجماعات المستوطنة ،
علما غريبا ؛ اذ كانت نوعا من المستعمرات داخل المستعمرات ، فهى أقلية
تحيط بها أغلبية ناطقة بالفرنسية . وقد استخدم الايطاليون وأساءوا
استخدام « اللغة الأجنبية » ، كما فعل غيرهم فى اتصالاتهم مع
رفاقهم الفرنجة . ولكن داخل أحيائهم وفى الساحة ينتقل المرء الى ايطاليا
المحبوبة ، فاذا ما تم لهم الحصول على بضاعة من أحد البيزنطيين أو
المسلمين ، غالبا ما يكون العمل بين الايطاليين أنفسهم . وهنا يتحدث
كل بلهجته الخاصة ، سواء أكان من البندقية أو تسكانيا أو ليجوريا .
وكان الموثقون يكتبون باللاتينية أو بفرنسية القرن الثالث عشر فى بعض
الأحيان ، ولكنهم كانوا يفكرون على الطريقة الايطالية . وكانت كل
الظروف مواتية لتساعد الايطاليين على الاحتفاظ بهويتهم . وكان السيد

الأعلى للكومون ليس فقط مجرد أحد سكان الحى • ولكنه كان أيضا المالك لكل الممتلكات الحقيقية داخل نطاق الكومون • وقد تحولت المباني الكبيرة المتألقة التى كانت يوما ما سكنا للحاكم المسلم أو البيزنطى أو التركى ، وكذلك البيوت التى كانت ملكا للاستقراطية التجارية المسامة فى المدينة •• كل هذه تحولت الى قصور فى قوائم الجرد الايطالية واستولت عليها ادارة الكومون ، أما المباني الكبيرة جدا التى لا تنفع لغرض عملى فقد كانت تقسم الى غرف تؤجر لفترات محدودة ، وإلى محلات لتخزين البضائع • وكانت تظل خالية طوال معظم العام ولكنها كانت تمتلئ الى نهايتها حين يصل أسطول من أوربا قرب عيد الفصح • وأصبح الشارع الرئيسى أو الميدان الرئيسى فى المدينة هو السوق حيث كانت البيوت المحيطة بها تضم عادة بعض الحوانيت والسقائف والمحلات حيث تنتظر البضائع الشرقية دورها فى التصدير الى أوربا ، أو حيث تعرض البضائع المستوردة من أوربا فى انتظار المشترين • وكان التجار يسكنون فى الأدوار العليا • وكانت الحانات والفنادق التى تقدم الوجبات على الذوق الايطالى تنتشر فى كل مكان • وبالإضافة الى ذلك كانت هناك المناضد التى أقامها صرافو النقود وبائعو الأطعمة • وإلى جانب الدكاكين والمحلات كان هناك مكان للسوق والبازار المغطى ، وكان لكل حى مخابزه الخاصه ، وأفرانه وحماماته • وكانت بعض العائلات الايطالية العاملة فى المال والمصارف ترى أن من المناسب فتح فروع لها فى المدن الصليبية • وكانت العائلات التجارية المصرفية ترسل أفرادا من الأسرة التجارية الى فلسطين للقيام بالأعمال المالية الكبرى التى كانت ما تزال أعمالا تقوم بها العائلة •

وكان مركز الحى هو البلاتز أو قصر الكوميون الذى يقيم به من يديرون شؤونه ففيه يسكن القنصل أو الفيكومنت Vicomte وهو حاكم مرسل من المدينة الأم • ويدعمه مجلس فى تمثيله لمصالح الكوميون لدى سيد المدينة أو الحاكم أو الملك وهو الواسطة بين الكوميون والسيد أو

الحاكم أو الملك ، كما أنه مسئول عن ادارة ممتلكات الكوميون والحفاظ على امتيازاته فى المدينة ، وكان على الموثقين التابعين له أن يقوموا باعداد الاتفاقيات بين التجار ، وعقود الزواج ، وكان على المحلفين ان يجلسوا للحكم أو للفصل فى القضايا التى تخص مواطنيهم ، وقد يصدرن أحكامهم فى بعض القضايا على الآخرين من سكان الحى . وكانت الجرائم التى يعاقب عليها بالموت كالقتل والاغتصاب تستثنى أحيانا من هذا النظام ويقوم حراس السلام المأمورين بالقبض على المتهم ويحيلونه الى السلطات العامة ، وكانت تحدث دائما بعض المشاجرات فى مثل هذه القضايا لأن الايطاليين كانوا بطبيعة الحال لا يرغبون فى أن يسلموا أحدهم الى سلطات خارجية . ولم يكن قانون المحاكم الكوميونية هو نفسه القانون المطبق فى المملكة ، وإنما كان هو القانون السائد فى المدينة الإيطالية الأم . وكانت الاجراءات تتم بلغة التجار الوطنية ، كما كانت اجراءات التنفيذ معروفة من الوطن الأم فضلا عن ان الاحكام كانت تتم بواسطة أقرانهم . وكان لرئيس الكوميون جهازه المساعد من الكتبة والمأمورين . وكان مسؤولية الكتبة تنحصر فى جرد ممتلكات الكوميون كما كان مأمورو المدينة يعلنون مراسيم مجلس الكوميون ويشرفون على تنفيذها . ومن آن لآخر كانت تصدر المراسيم التى تحظر ممارسة الدعارة والقمار ، ولكن فى مثل هذه الجماعات التى تتكون من التجار الرحل ، لم تكن مثل هذه المراسيم ذات تأثير حقيقى .

وعلى الرغم من أن المدن الإيطالية الأم جنت بعض المكاسب من هذه المستعمرات، فإن دخلها الرئيسى من عالم الشرق الأوسط كان يأتى بطريق غير مباشر عن طريق فرض الضرائب الجمركية على أولئك التجار الذين اثروا من تجارة شرق المتوسط فى إيطاليا . بيد أن مثل هذه المزايا غالبا ماكانت تصبح عبئا اذا كانت الكوميونات تدخل فى منافسة حرة فى البر

والبحر . وكان كل منها يحارب الآخر فى سبيل الحصول على الامتيازات والأكثر أهمية من ذلك أنهم نقلوا المنافسة التجارية من ايطاليا الى عالم شرق البحر المتوسط . وعلى مدى أكثر من جيل خلال القرن الثالث عشر ، كانت أية مواجهة بين الأساطيل الايطالية القوية تنتهى اما بالقتال أو القرصنة على حين كانت أسوار عكا وصور ترد أصداً ارتطام القذائف الحجرية . وكانت الأحياء الكوميونية تحيط نفسها بحزام من الأسوار المحمية بالأبراج المحيطة حين تصبح الأحياء المجاورة أرضاً للعدو . وفى مثل هذه الأحوال يصبح التاجر محارباً كما كان كل مسافر بالبحر يصبح بحاراً .

وعلاوة على ذلك ، كانت السفن والامدادات المرسلة من ايطاليا تضيف رعب الحصار البحرى الى القتال الدائر بين الاخوة داخل أسوار المدينة . وغالباً ما كانت الأبراج والأسوار تنهار وتحرق البيوت وتدمر ، ويحمل عمود حجرى من الانقاض الى المدينة الأم فى ايطاليا لكى يزين الميدان الرئيسى . وهكذا كانت مدن الشرق فى الغالب تصبح صورة مصغرة للحياة فى ايطاليا نفسها .

أما المستوى التعليمى بين الايطاليين ، فمن المؤكد أنه كان أعلى منه بين الفرنجة فى المتوسط . وكان هذا هو الوضع أيضاً فى أوريسا ولكن المقارنة تصبح حقيقة أكيدة فى أوساط التجار العالميين فالمراسلات والحسابات كانت جزءاً من العمل التجارى اليومى ، كما كانت المعرفة بالجغرافيا والاقتصاد متقدمة بشكل يثير الدهشة اذا حكمنا بالكتيبات التى خلفها لنا التجار أو بالاختراع الجديد البورتولانى Portolani وهو عبارة عن خرائط بحرية لتسهيل الملاحة . وبينما كانت الحرب تتمخض عن قدر قليل من المعرفة بالعدو وأرضه ، فإن التجارة كانت تخلق حلقات متصلة من اسكندنافيا حتى الصحراء ، ومن اسبانيا الى بلاد ما بين

النهرين • ومع منتصف القرن الثالث عشر من فارس الى الهند والصين • ولم يكن الايطاليون على معرفة نظرية بالبلاد والأراضى فحسب ، وانما كانت لهم ايضا معرفة عملية بالطرق عبر الجبال والوديان والصحارى وفوق مياه الأنهار والبحار • كما أنهم طوروا معرفة دقيقة بوسائل الانتاج والبضائع التى تشتري او تباع والضرائب والجمارك التى يجب دفعها فى الموانئ الأجنبية • فضلا عن أنهم كانوا يتمتعون ايضا بمعرفة العملات النقدية وقيمتها المعدنية وأسعار الاستبدال حول العالم •

وغالبا ما كانت الأحياء الكوميونية تصبح مستودعا لمثل هذه المعارف التى كانت تتداول شفويا ، ثم تدون وتجمع فى كتيبات لتصبح دليلا لتعليم الجيل الجديد بأساليب فن البيع والشراء والقروض والشؤون المالية • وقد يرسل الشاب الايطالى الى سوريا او أرمينيا او القسطنطينية لى ينال تدريبه • وقد يستقر حينذاك فى أحد هذه الأماكن ويتاجر لحسابه واذا لم تلح له فرصة الزواج أثناء اقامته فى شرق البحر المتوسط ، أو اذا لم تتوج محاولته بالنجاح ، فقد يعود الى وطنه الأصلي بحثا عن عروس ودوطة ، وهى كانت تدفع عادة فى صورة توابل لا تقبل التلف مثل الفلفل الأسود أو فى صورة أحجار كريمة • وفى بعض الأحيان ، كانت بعض العائلات الايطالية التى لا ترتبط بموطنها الأصلي برباط قوى تضرب بجذورها فى تربة الشرق وتصبح أسرة عريقة هناك • ومن الدكان الى السوق ، أو من البنك الى الدكان كانت حياة الايطاليين دائما تضى بين أبناء جلدتهم ، بل ان الكنيسة فى الحى كانت ترتبط ارتباطا جزئيا بالنظام الكنسى المحلى ، ولكنها تعتمد على الكاتدرائية فى الوطن الأم ؛ اذ كان القسيس والشماسون يرسلون من البندقية أو جنوة أو بيزا ، وكان الايطاليون أو البروفنساليون يخاطبون القس بلغته الوطنية الدارجة ، كما كان قداس الأحد يتم باللغة التى يفهمها •

وعلى الرغم من ان سكان الكوميونات كانوا مواطنين فى المملكة الصليبية من الوجهة النظرية ، فالحقيقة انهم ظلوا مواطنين لمدنهم الأوربية الكبرى ، وعلى الرغم من أن الف رابطة كانت تربط الفرنجة بفرنسا ، فان أحدا منهم لم يكن يعتبر نفسه فرنسيا . ومع ذلك لم يتخل أعضاء الكوميونات عن هويتهم الأصلية . فالاستقرار سويا ساعدهم على الاحتفاظ بهذه الهوية . وكانت هناك أسباب مادية تدفع بالواحد منهم الى الارتقاء فى احضان بنى وطنه . فبعد مائة سنة وحتى بعد مائتى سنة من تأسيس المملكة ، كان الايطاليون لا يزالون يتمتعون بنفس الامتيازات التى تمتع بها أولئك الذين شاركوا فى غزو البلاد . ومع ان المرء يستطيع ان يبرر حقوقهم العقارية (لأن كل الممتلكات الفرنجية ليست فى حقيقة الأمر سوى نتيجة للفتوحات التى تمت خلال العقد الأول من عمر المملكة) ، فانه كان من الغريب الى حد ما أن تظل تتمتع بالاعفاء من الضرائب والرسوم الجمركية على مدى ثمانية أو عشرة أجيال . وهذا الوضع المتميز للايطاليين جعل اية منافسة مع الفرنجة المحليين ، الذين كانوا يدفعون رسوما جمركية كاملة ، امرا لا يمكن التفكير فيه ببساطة . ولا شك ان هذا الموقف ولد كثيرا من الاحقاد لأنه كان من الصعب تفسير سبب وجوب تمتع الايطاليين بوضع متميز دون اسداء اية خدمات ملموسة للمملكة .

ومن آن لآخر ، كان حكام المملكة يحاولون التخلص من هذه الامتيازات الفاسدة والغائها . وكانت الكوميونات تكافح بدورها عن طريق البابوية (للمحافظة على امتيازاتها) التى كانت لها مصلحة واضحة فى ان تحتفظ برابطة التحالف مع المدن البحرية القوية . وهاجم البابوات حث الملوك بعهودهم هجوما مريرا ، مهددين اياهم بالحرمان ، وغالبا ما كان الحكام الصليبيون يستسلمون للضغوط . وكان الجنوية ، بحذق اكثر منه كياسة ، يدنون مضمون امتيازاتهم

بحروف ذهبية على نصب ويقومونه في كنيسة القيامة ! وكانت الطريقة الوحيدة لسحب امتيازات الكوميونات هي انتزاعها بواسطة القضاء العالي من الكوميونات ومنع بيع المنح أو الأراضي التي يحورها سكان المدن لهذه الكوميونات . بل انه حتى عند استخدام مثل هذه الأساليب لم تكن المعارضة تحرز الا نجاحا جزئيا ، لأن الزيجات المختلطة كانت تعود على الايطاليين بالأراضي والممتلكات الاقطاعية والمدنية من خلال الوراثة .

أما عن مدى درجة اختلاط المواطنين من الأصل الايطالي بالفرنجة المحليين فمن الصعب التأكد منها . فنحن نعرف بعض الايطاليين الذين كانوا يبحثون عن العرائس في اوربا ، الا ان الزيجات مع الفرنجة المحليين كانت شائعة اذ ربما كانت العائلية الفرنجية ترى انه من المفيد لها ان تزوج بناتها الى التجار الايطاليين والبروفنساليين . ولم يكن مثل هذا الاتحاد يعتبر زواجا غير متكافئ بل كان يعنى خطوة اعلى على السلم الاجتماعى والاقتصادى . وقصة التاجر الثرى البيزى الذى تزوج احدى بنات الارستقراطية الفرنجية فى طرابلس لابد انها ترددت فى الأسواق الشرقية ، فللحصول على اذن بالزواج من السيدة الشابة دفع التاجر البيزى الى اهلها النبلاء ما يساوى وزنها ذهبيا ! وهكذا استطاعت مائة وعشرون رطلا من الذهب الخالص ان تسقط هذه الحواجز الطبفية .

وكانت بعض العائلات الأخرى تدخل الحياة الفرنجية ليس عن طريق الزواج وانما عن طريق الأوضاع الاقطاعية فان عائلة من جنوة مثل عائلة اميريانشى ، التى اجر الكوميون املاكها فى مدينة جبيل ، قطعت روابطها مع المدينة الأم وصارت جزءا من الارستقراطية الفرنجية . وعلى اية حال ، فانه كان من المتوقع ان يستمر افراد هذه العائلة فى التعاطف مع بنى جلدتهم ومحاباتهم . وعلى مستوى اجتماعى أدنى ، كانت العائلات الايطالية تدخل فى دائرة الطبقة الفرنجية الوسطى من

خلال الزيجات علمنا عنها من الوثائق الخاصة بالمجادلات القانونية حول ما اذا كان العقد يجب ان يكون وفق العادات المحلية؟ و الايطالية .
ومهما كانت درجة التكافؤ فى الزواج ، فقد ظل الايطاليون قوة فى انفسهم ، يحافظون على عاداتهم ولغتهم ومؤسساتهم الأصلية فى الأرض المقدسة .

قصص الفرسان والأنظمة العسكرية

الفروسية هي أكثر مظاهر روح العصور الوسطى روعة وسموا ،
اذ لم تكن هناك فضائل قد مجدت أكثر ، ولا مآثر تكررت روايتها ،
ولا صور أكثر تأثيرا من فضائل مآثر وصور أولئك الفرسان النبلاء .
فالكلمة تثير صورة عالم بأثره ، له أسلوب حياته ونظامه الخاص بالتربية
ومجموعة من وجهات النظر وقواعد السلوك ، كما توحى بالماديات
المحيطة من بيوت الضياع والحصون والقلاع . وقد سادت أخلاقيات
الفروسية لأكثر من ثلاثة قرون ، ولا تكاد توجد فكرة أخرى في الثقافة
الغربية ، فيما عدا السلام العالمي ، استطاعت ان تنافس حيوية الفروسية
على مدى مثل هذه الفترة الطويلة من الزمان . بل انه حتى عندما
اختفت الفروسية كأيديولوجية متميزة لطبقة معينة ، ظلت مثلها
ومبادئها باقية . وعندما تحجرت بعض هذه المثل وجمدت وأصبحت
طقوسا بلا روح انتهى بعضها الآخر الى مجرد روابط طنانة مفتعلة على
حين تكومت مثل أخرى في أهرام من الرموز لم تلبث ان انهارت تحت
وطأة ثقلها ، ومع ذلك ظلت الفروسية تحيا في وجدان الرجل الجنتلمان
وفى مراسم البلاط وقواعد السلوك التي تناسب المجتمع المتحضر ،
وحين خلعت الفروسية ثيابها الخارجية الموشاة ، وفقدت مكانتها وخاصيتها
الاستقطابية عند الطبقة الحاكمة ، ظلت الفروسية قوة حية تغلت في
المجتمع ككل .

والفروسية التي يمكن وصفها أحسن وصف بأنها نظام من الأفكار
لدى الطبقة الوراثية المحاربة في العصور الوسطى ، لم تكن من خلق

الصلبيين بقدر ما كانت الحروب الصليبية من نتاج الفروسية • ومع ذلك فإن الذهاب في حملة صليبية أصبح جزءا من مثل الفروسية السامية •

وتعبير الفروسية الذى اكتسب صفة رسمية ، عبارة عن مجموعة من قواعد السلوك ، وجدت على مدى عدة قرون قبل تدوينها وتقنينها ، والحقيقة ، أنه حين بدأ التقنين عند منعطف القرن الرابع عشر ، كان نظام الفروسية يقترب من مرحلة نهايته • بيد أن التعبير الأدبي عن المثل الفروسية ، على شكل أساطير تدور حول البطل المسيحي النبيل كان معاصرا لفترة الحروب الصليبية الكلاسيكية أى الحروب التى تمت خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وعلاوة على هذا ، فإن أكثر مظاهر مثل الفروسية ، وهو تطوير النظم العسكرية ، كان هو الآخر من أكثر ابداعات الحروب الصليبية والوجود اللاتينى فى الشرق أصالة •

والقانون غير المكتوب الذى ينظم سلوك الطبقة العليا فى مجتمع العصور الوسطى (أى الطبقة المحاربة) يضرب بجذوره فى المصادر الجرمانية القديمة التى كانت معروفة وشائعة لدى كل الطبقات المحاربة فى المجتمع القبلى • وكان ذلك قانونا يمجّد ويثنى على فضائل الشجاعة والولاء • وكانت الشجاعة والمهارة الكبيرة فى استخدام السلاح هى الفكرة الرئيسية فى الملاحم الجرمانية الباكرة ، سواء فى القارة أو لدى الانجلو سكسون • ولكن حتى فى تلك المرحلة الباكرة ، كانت القوة البدنية والجسارة والمهارة فى استخدام السلاح والخداع فى المعارك مصحوبة بضرورة الولاء والعصبية • فالولاء للرئيس ، سيد الحرب وقائد المعركة والعصبية مع رفاق السلاح كانت القواعد العادية التى تحكم المقاتل • ومن الممكن اقتفاء أصول بعض هذه الخصائص الى ثلاثمائة سنة تقريبا قبل الغزوات الجرمانية وذلك فى وصف تاكيتوس

Tacitus لقبائل جرمانيا المشاغبة . وقد ساعدت الغزوات الجرمانية ، او الهجرات الكبيرة التي غيرت خريطة العالم المتحضر في فجر العصور الوسطى ، ساعدت على تقوية وتدعيم مبادئ المحارب الجرمانى الجسور ومثله . فقد اخفت القيادة الفردية البطولية ابان الغزوات الا ان المثل ظلت باقية . وربما يكون الحرس الخاص للملك او القائد قد أصبح مستودع هذه المثل التي لم تكن احتكارا لطبقة بعينها ، وذلك لأن الطبقة النبيلة التي برزت الى الوجود كانت طبقة نبلاء فى خدمة الملك او السيد الكبير .

ولم يحدث الا فى القرن التاسع والقرن العاشر ان صارت الحرب وقفا على طبقة خاصة وبذلك انتزعت من جماهير العامة . ومنذ ذلك الوقت انحصرت مثل المحارب فى جماعة من الصفوة التي أصبحت وراثية تقريبا عند مطلع القرن الحادى عشر . وقد ساعدت الوراثة على ظهور عناصر جديدة خلال عصر تشكيل مثل الفروسية . فالفخر بمآثر الأجداد قد خلق مفهوم تقاليد العائلة واسطورة الأسرة النبيلة . وبينما كان احد العامة يستطيع ان يدخل فى الطبقة النبيلة عن طريق اثبات جدارته من خلال عمل من اعمال الشجاعة الا ان هذا كان مثالا استثنائيا وليس القاعدة فى التغير الاجتماعى . اما طبقة النبلاء نفسها ، التي كانت مستقلة عن التطور المقابل للنظام الاقطاعى ، فقد كانت ذات بناء هيراركى على قمته امير المقاطعة او الملك ، أما النبلاء فى المستويات الأدنى ، وصولا الى قاعدة الهرم ، فكانوا يعبرون عن مثلهم من خلال الولاء للأسرة الحكمة المحلية ، وهى فكرة اقوى بكثير من الولاء للملكيات الاقطاعية الصاعدة . وقد وجد هذا البناء الجديد للمجتمع ومثل صفوته المحاربة التعبير عن نظامه فى التبعية الاقطاعية وفى علاقة السيد الاقطاعى بالفصل . وقد أصبحت هذه العلاقة هى بمثابة الرابطة العاطفية التي ضمنت التماسك فى عالم مضطرب .

وعلى الرغم من أن الصيد والقتال كانا هما الشاغلين العاديين لتميضية وقت النبلاء فإن فترات السلم كانت تتيح الفرصة للقاءات الاجتماعية غير لقاءات الجيش المحارب أو جماعة الصيد . ففي هذه اللقاءات - غالبا في الأعياد أو لانجاز الأعمال - في بلاط السيد أو في القلعة يتم تبادل الأسلحة ببعض الحلل من الكتان أو أحيانا من الحرير والتفتاه الثمينة المجلوبة من الشرق على أيدي التجار الإيطاليين . وفي هذا المناخ الجديد ، بدأت تتطور قيم جديدة ، على حين ظلت القيم القديمة باقية . وأكثر التعبيرات دلالة على هذا التطور هو ظهور المرأة في ردهات القلعة ليس كخادمات أو مشرفات ، ولكن غالبا كمركز للحياة الاجتماعية وبؤرة للحياة المنزلية لدى النبلاء .

لقد أصبحت العائلة النبيلة الكبيرة الإطار الرئيسي لحياة الفصل . وحتى إذا لم يكن الاقصال أقارب من دم واحد ، فانهم كانوا يعتبرون جزءا من الأسرة النبيلة وقد أضيفت العلاقات الأبوية الى العلاقات القائمة أساسا على الولاء الاجتماعي . وكانت رابطة الولاء لمجموعة المحارب السابق تظل قائمة وطيدة غير منفصلة . ولكنها الآن تعنى ما هو أكثر من ذلك ، إذ أنها خلقت « معنى الانتماء » فالواحد يعطى من ذاته ومن عائلته ومن املاكه ، ومن قدراته وعواطفه . ومهما كانت هذه العلاقات أبوية في مظهرها إلا أنها لم تستدع التنازل لأن التعهدات في كليتها كانت تعهدات متبادلة . فالسيد مدين لرجله أو تابعه بقدر ما يدين الرجل لسيده - فيما عدا التبجيل - وقد كان هذا التعبير المستخدم لتعريف نوعية هذه العلاقة . وقد كانت هذه العلاقة أكثر عمقا من تلك العلاقة التي عرفها العصر السابق . ذلك أنها كانت تعكس نمطا جديدا من العلاقات الانسانية ، تلك هي علاقات الأسرة الاقطاعية الكبيرة ، التي يتحمل المرء في ظلها مسؤولية الحرب من أجل الآخرين وليس فقط في لحظات الحرب المخرجة .

وعلى الرغم من أن هذا الشكل الجديد من العلاقات كان يضرب بجدوره بعيدا في أعماق الماضي ، فانه سرعان ما خلق مجموعة من القيم وانماط السلوك الخاصة به . إذ أن التجمع في البلاط أدى الى ظهور فن المجاملات وهو السلوك المناسب لوجود النساء اللاتي صرن سيدات آنذاك . وإذا ما استعرنا مصطلحات النظام الاقطاعي فانهن أصبحن *dominae* أو في تعبير آخر *Les dames* . إذ كن يزين الاستقبالات في البلاط ويجلسن على رأس المادب ويضفن الرونق والبهاء على الاحتفالات . وسرعان ما لعبن دورا رئيسيا في أكثر مظاهر الفروسية روعة وهو المبارزات أو المباريات . وهكذا ظهر الى الوجود عالم جديد من السلوك والأحاسيس واذواق في أورقة القلعة الاقطاعية في اوربا العصور الوسطى . فالأروقة المظلمة الكثيفة التي كانت تنار بأضواء المشاعل التي تلقى بظلالها والتي تفوح منها رائحة الوشيك على الوجبات الهائلة التي ينكب عليها المحاربون في نهم - هذه الأروقة صارت مليئة بالضوء والضحكات . والمطرب المتجول أو الشاعر الذي كان ما يزال حتى ذلك الحين يغنى للبطولة ومهارة الأبطال في استخدام السلاح ، وقتالهم الضاري وشهيتهم النهم ، أخذ يقدم موضوعات جديدة فيما يقدمه . إذ أخذ يتغنى بالحياة والحب ، والطبيعة والشباب . وصار شاعر الملحمة البطولية هو المغنى المتجول أو التروبادور *Troubadour* . وتهذبت صورة البطل البريرى العملاق ، كما صارت الشاعر الجياشة كالتفاني في الحب والاخلاص موزعة ما بين السيد الاقطاعي وسيد القلب أي من يملكه .

[٣٤]

ومع غروب شمس القرن الحادى عشر ، خضعت صور المروج والقتال لتعديلات جوهزية فأعمال نيبيلونج *Nibe lunge* ، وماثر بيوفولف *Beowulf* ، ومعارك القادة والزعماء الحرييين للقبائل ، اتخذت منذ تلك الحين معنى جديدا كان بمثابة البشير بروح الحركة الصليبية :

فقد حدد مجرى القتال فى اتجاه بعينه ، فالحرب الفوضوية المستمرة بين الجيران ، الأعداء ، قد كبح جماحها بفعل ايدىولوجية جديدة لا تسمح لأحد ان يحارب جارا مسيحيا او يهاجم بغية الثار او تحقيق المجد .

وعلى أية حال ، فقد تمثل التحول الحقيقى فى أن الحرب منذ ذلك الحين فصاعدا ، لم تجد قبولا فحسب بل يوركت وشجعت اذا ما كان لها هدف أخلاقى .

اذ ان الكنيسة أخذت تعارض أى نوع من اراقة الدماء التزاما منها بتعاليم الكتاب المقدس . وعلى الرغم انه منذ عصر أوغسطين وجدت الحرب مبررا لها فى مبدأ الدفاع عن النفس او الحرب العادلة ، فان الكنيسة شجبت النشاطات العسكرية من حيث المبدأ . بيد أن مثلها كانت قليلة الجدوى او لم تكن ذات جدوى حين غزا البرابرة الامبراطورية الرومانية وأخذت القبائل المتصارعة تقتل بعضها الأخرى . وحتى عندما استعادت اوربا قدرا من الاستقرار تحت حكم شارلمان ، لم تفعل الكنيسة شيئا سوى اعانة طرح موقفها السلبي من اراقة الدماء . وفى القرن التاسع ، دعا البابا الحصاريين المسيحيين الى الدفاع عن روما ضد المسلمين الكفار الذين استولوا على البحر المتوسط وأقاموا رؤوس معابر على الأراضى الأوربية فى أسبانيا وفرنسا وصقلية . الا أن هذا كان موقفا استثنائيا ، ولم تغير موقفها العام . وفى القرن الحادى عشر بدأت حملة شعبية لادانة تجاوزات النبلاء . وحوالى الوقت نفسه ، على أية حال ، وقبل الحملة الصليبية الأولى بثلاثة أجيال تقريبا ، حدث تحول ملحوظ فى موقف الكنيسة ، أو على الأقل فى موقف بعض من يمثلونها . ولم تكن هذه هى المرة الأولى أو الأخيرة التى تعدل فيها الكنيسة من رأيها لتضفى صفة الشرعية على أمر واقع . فقد كانت على استعداد لقبول واستيعاب النظام القائم فى المجتمع ، على الرغم من أنها أملت شروطها الخاصة لاستسلامها الجزئى . اذ ان الكنيسة كانت على استعداد لمباركة الحرب والمصاريين اذا استطاعت ان تحدد دوافعهم وأهدافهم .

وحسب هذا المفهوم الجديد ، كان الرجل المحارب أو « رجل الدماء » منوطا بوظيفة اجتماعية : هي أن يدافع عن الفقراء والأرامل واليتامى .
 ومرة أخرى لجأت الكنيسة الى مبادئ الكتاب المقدس واشترطت ان تكون الحرب من أجل سبب عادل ، مثل حماية الضعيف من عدوان القوى . وهكذا فان الدافع البدائي الى القتال قد وجه ليصبح ذا فائدة اجتماعية . وحين طبق هذا على الظروف القائمة ، كانت هذه فكرة ثورية .
 ذلك لأنه فجأة ، أصبحت طاقات المحارب غير المحدودة وسلوكياته الجامحة وتعطشه لاراقة الدماء ، أمرا مستهجنا ، وتحول مفسدو الأوسى ومشاغبيوه الى حراس للمجتمع . وبينما كان النظام الكنسى يضمن الرعاية الربانية ويبشر بالأخلاقيات الأساسية فى مجتمع نصف بربرى ، باتت الطبقة المحاربة نظاما فى المجتمع وظيفته حماية غير القادرين والضعفاء . ولم يعد استخدام السلاح غاية فى حد ذاته ولم يعد مدعاة للفخر ، بل صار وسيلة لغاية ، وأصبح الحق فيه مرتبطا باستخدامه فى قضية عادلة .

ويبدو أن طبقة المحاربين كانت على استعداد لمواجهة التحدى دائما ترفعه الكنيسة . وتمثلت النتيجة فى التحول الجوهرى الذى طرأ على الرجل المقاتل . فالجندى الرومانى كان قد أصبح اسما مميزا خاصا بصفوة المقاتلين من الفرسان (لأن ذلك اللقب كان لا يشمل المشاة أى الجنود الذين يحاربون على أقدامهم) . ومن ثم فانه فى العصور الوسطى الباكزة كانت كلمة جندى تعنى الفارس Chevalier أو knight . كما أسماه الانجلوساكسون والفرنسيون أو الألمان . وخلال القرن الحادى عشر صيغ تعبير جديد هو Miles Christiāns ومعناه الفارس المسيحى ، الذى كان يجمع ما بين اخلاقيات المسيحية والتقاليد الحربية الجرمانية . وسرعان ما شقت ايديولوجية الفروسية المسيحية الجديدة طريقها بسهولة من خلال تراث شعراء العصور الوسطى . فادانة الأفعال الشريرة ، وحماية الضعيف والدفاع عن شرف

السيدات وعفتهن ، أصبحت هذه هي الموضوعات التي تدور حولها اشعار القرن الثاني عشر . وجدت أروع تعبيرتها الأدبية في الروايات التي نسجت حول الفروسية . وأياما كانت أصول هذه الروايات ، فانها جميعاً كانت تحقّق بالمثل نفسها لأن الفروسية الأوربية لم تكن مرتبطة بوطن واحد ، اذ كانت نوعاً من الأخوة العالمية ، وسمحت للفارس ان يشعر بأنه في وطنه في أي بلاط في العالم المسيحي . ولم تكن الحروب ممنوعة ، الا ان القتال كان يسير وفق قواعد متفق عليها . وفضلاً عن ذلك كله ، فان الفروسية كانت تعني ضمناً مجتمعا من الرجال الذين يربطهم شعور بالانتماء الى طبقة مشتركة ، ويعيشون وفقا لأنماط سلوكية معينة ، ويشتركون في العمل من أجل أهداف ومثل مشتركة .

وسرعان ما يجد بطل الروايات الخيالية التي تدور حول الفروسية نفسه مضطراً الى ترك وطنه للوفاء بالالتزامات الملقاة على افراد طبقته . ولا بد له من محاربة عمالقة متعطشين للدماء أو ليقاقل تنينا شريراً ، منقذاً بذلك عفة السيدات وشرفهن ، وأرواح الضعفاء من كارثة أوشكت أن تحل بهم . ولكنه يجب ان يجوب طول البلاد وعرضها ، ويقوم بأعمال الشجاعة والجسارة بحثاً عن الكأس المقدسة الأسطورية (الخرافية) ، التي استقبلت دم المخلص المقدس وهو على الصليب . كما أن أسماء بلانشفلور Blanchefleur ، وايزولدا Isolda ، وبرسفال Perceval ، وتريستان Tristan ، والملك آرثر King Arthur ، وجاوين Gamain ، ولانسلوت Lancelot (*) وكثيرين غيرهم سوف تشغل عالم التجربة المكتشف حديث والذي يشمل المغامرة والحب والأراضي المجهولة والسعي وراء

(*) أسماء أبطال الروايات الخيالية التي نسجت في العصور الوسطى حول مواضيع المغامرة والحب والترحال في بلاد غريبة لتحقيق طموحات وأهداف مستحيلة .
(الترجمة)

أهداف لا يمكن تحقيقها • وحلت محل أروقة القلاع المظلمة حقول الربيع
والزهور والجداول المائية والمقابلات المرحية السارة •

لقد كانت للحروب الصليبية بصمات واضحة في تطور الفروسية •
ذلك ان هذه الحروب قدمت الفرصة الأولى للفرسان في جميع أنحاء
العالم المسيحي لكي يجتمعوا سويا من أجل هدف مشترك • فالحروب
الصليبية غذت الاحساس بوجود أخوة مسيحية عالمية في السلاح ،
وغيرت مفهوم أوروبا من منطقة جغرافية الى تراث ثقافي مشترك •
وسرعان ما وجدت الأعمال البطولية طريقها الى المدونات التاريخية ، ثم
تسربت الى المغنين المتجولين الذين أخذوا في تمجيد نمط جديد من
الأبطال ، هو الفارس المسيحي ، مبعوث الكنيسة في الحرب الظاهرة ضد
الكفار من أجل الكنيسة وتحت رايتها • ومالبث الذهاب في حملة صليبية
أن صار جزءا من قانون الفروسية • وجعلت الضغوط الاجتماعية ،
والانماط التربوية ، ومتطلبات الرأي العام من المشاركة في الحرب
الصليبية التزاما واجبا على كل نبيل يعتد بنفسه •

وكل مجتمع يهتم باستمرار مثله وأسلوب حياته ، وهو كلام يصدق
أيضا على مجتمع النبلاء في العصور الوسطى • فمثال الحياة من ناحية ،
والتعليم الرسمي من ناحية أخرى كانا يؤكدان على نقل المثل من جيل
الى جيل وعلى استمرار أسلوب حياة النبلاء • فالمدارس بالمعنى الحديث
للكلمة لم تكن معروفة تقريبا في المجتمع العلماني • وكان التعليم ماثرا
بالبيئة لدرجة أكبر كثيرا مما هو الحال الآن • ولكن البيئة كانت بيئة
مخنارة لأداء مهمتها • ففي سن مبكرة للغاية ، حين يكون الطفل قادرا
على البقاء بعيدا عن رعاية الأم يجب إرساله الى منزل آخر من منازل
السادة الاقطاعيين • وهناك يتعلم أصول العقيدة على يد قسيس ،
ويتعرف على حياة الأسياد التي سيحيها مستقبلا • وعلى الرغم من
ان أي بيت من بيوت السادة الاقطاعيين كان يضم عددا كبيرا من الخدم ،

فان أولئك الأطفال الصغار كانوا يعينون لخدمة أحد الفرسان ، وغالبا ما يكون من عائلة السيد أو أحد أفراد حاشيته . وهكذا يعتاد على اشغال النبيل اليومية ، ابتداء بالعناية بالخيل وتلجيم الفرس حتى العناية بالسلاح والدروع . كما كان يركب للصيد - لقضاء وقت الفراغ وتدريب شبه عسكرى فى نفس الوقت - مع معلمه وأهل المنزل . وفى سن مبكرة يبدأ التدريب على ركوب الخيل والقتال بالسيف والرمح والدرع . وفى الوقت نفسه يقدم التابع الصغير الى مجتمع النساء ، كما يتعود على جوانب أكثر رقة من الحياة الاجتماعية .

وعلى الرغم من أن التعليم الدينى لم يكن شاملا ، فانه كان بكل تأكيد التجربة الروحية الكبرى التى يمر بها الشباب الصغير . فان تعاليم العقيدة وقصص الكتاب المقدس ، وترتيل المزامير ، وطقوس الأعياد الكبرى فى التقويم المسيحى ، وقرات القديسين المحليين ، والأديرة والكنائس كانت هى أكثر المؤثرات قوة على مستقبل حياته من عدة وجوه . ولم تكن القراءة والكتابة شائعة حتى فى أوساط النبلاء ، وان كان بعض النبلاء قد أعدوا للحياة الكنسية مما يسر لهم فرصة التعليم منذ الصغر . وعلى أية حال ، فان عددا قليلا للغاية من النبلاء هم الذين كتبوا خطابات شخصية أو رسمية ، فغالبا ما كان يقوم بهذا العمل كاتب أجير . وقد كانت القراءة أكثر شيوعا ، وكانت القراءة تعنى معرفة اللغة اللاتينية ، التى حفظت لنا معظم تراث أوربا . فضلا عن أنه لما كانت اللاتينية هى لغة الكنيسة ، فان معرفة اللغة ولو بشكل سطحي على الأقل ، كانت ضرورة لا بد منها ، على الرغم من أنه ليس من المشكوك فيه ان يكون النبيل عارفا حافظا لأكثر الصلوات والابتهالات شيوعا .

وفى زمن الحملة الصليبية الأولى ، وربما قبل ذلك بجيل أو جيلين ، بدأ تدوين الأدب باللغات الوطنية - بالألمانية أولا ثم بالفرنسية فالأسبانية ثم الإيطالية - التى لقيت منافسة قوية من اللغة اللاتينية . ولأن اللغات

الوطنية قد وجدت استجابة لنمط جديد من المجتمع ، فان الألب الشعبي قد عكس ازدياد اعداد من يستمعون اليه . كما عكس عادات جديدة واشكالا جديدة للحياة الاجتماعية . وهذا ، بدوره ، اوجد مطالب جديدة بتعليم ابناء البيوتات النبيلة . ولأن التجمعات التي كانت تحضرها السيدات كانت كثيرة ، فقد تعين على التابع الاقطاعى الشاب ان يكون ملما بعادات واخلاقيات البلاط . ولم يكن هذا يتضمن السلوك الخاص فحسب ، ولكنه كان يتضمن المهارات والمعرفة المطلوبة بالانماط الجديدة للسلوك الاجتماعى أيضا . وكان يتوقع من التابع الاقطاعى ان ينظم الاشعار ، او على الأقل ان ينظم قصائد المناسبات ، وان يغنى لصحبته . وهذه المهارات الثقافية ، مع ضروريات اللطف المجاملات ، كانت القاسم المشترك لتعليمه المادى والذى كان اهم شىء على الاطلاق بالنسبة لمستقبله .

ووفقا لمقولة شائعة ، فان ركوب الخيل كان يبدأ حالما يستطيع الطفل المشى . اذ كان الركوب ضرورة باعتباره رمزا للمكانة الاجتماعية . كما ان اداء الرجل فى القتال ومهارته كانا يعتمدان على مدى قدرته فى السيطرة على فرسه . وكان الركوب من أجل المتعة والصيد بمثابة تدريب للشبان الصغار على استخدام السلاح . فالسيطرة على القوس والسهم ، وهو اقل اهمية فى التدريبات العسكرية ، كانت هامة اثناء الصيد بالكلاب او الصقور . ثم يتبع ذلك امساك الحربة او الرمح وقذفهما مستخدما درعا وممسكا بقضيب او سيف او خنجر . وكانت عناصر الاستراتيجية والتكتيك يتم تحصيلها عن طريق المثل الحى حين يرافق التابع الاقطاعى الصغير احد الفرسان فى واحدة من الغارات الاقطاعية التى لا تحصى والتى يتم فيها تدمير المحاصيل فى حقول احد السادة الاقطاعيين المجاورين . ويراقب معارك الحصون وفن الحصار ، على الرغم من انه (م ١٢ - عالم الصليبيين)

نادراً ما كان يشهد فن نصب آلات الحصار ، مما كان ينمى معرفة العسكرية .

وهكذا كان الرجل الشاب يتزعزع فى اطار مزدوج للحياة ، القتال وحياة البلاط . وتقدم الروايات الخيالية التى تدور حول الفروسية وأغانى العصور الوسطى ، وأشعار البلاط هذين الجانبين للتعليم ، والهدف المزدوج للحياة ، كما تقدم مستويين مختلفين للوجود ، وتوقفنا على قيم البطولة ومثل مجتمع البلاط المترف . فالجانب الأول يعلن عن فضائل الاسلاف من انصاف البرابرة على حين يكشف الجانب الثانى عن فضائل مجتمع يعاصر الصحوة الأدبية وسرعان ما سيخلق اعاجيب الرومانسية والقوطية فى العمارة والنحت والرسم .

ونادراً ما كان السلوك فى البلاط يتأثر بالدين . وقد اتخذت أكثر من رؤية شاكة لبعض مثل البلاط كتلك المثل التى تفصل الحب عن الزواج . فالحب الذى يدفع بالرجال الى الاتيان بالمعجزات ، كان من المفروض ان يوجد بين زوجة السيد الاقطاعى التى يصعب الوصول اليها وبين التابع الشاب . وسواء أكان هذا الموقف ، الذى غالباً ما يرد وضعه فى اشعار ذلك العصر ، ابداعاً أدبياً قصد به ان يضيف عنصر الدراما أو المأساة ، أو أنه كائن يعكس ممارسة عامة للبلوغ والمراهقة ، فان حقيقة الأمر لا تزال مجالاً للتخمين . ومن المحتمل ان الحنين والشوق بين السيدات النبيلات والشباب لم يكن يصل الى حد التنهيد والغراميات ، ولكنه كان يخلق اطاراً مزدوجاً من التناسق الوثيق : الزواج العرفى وانشاء عائلة من أجل استمرار السلالة الحقيقية ذات الدم الأزرق ، والحب (الحب الرومانسى) الذى يتزعزع خارج اطار الزواج . ومن المؤكد ان الكنيسة لم تكن تتعاطف مع هذا الأسلوب فى الحياة ، بيد أنها لم تكن تستطيع التدخل بأكثر من الدعوة الى العفة

والتهديد بالحرمان • ومع ذلك ، فعلى المرء ان يضع دائما فى اعتباره حقيقة ان مثل هذا النمط من العقلية والسلوك كان محصورا فى دائرة محدوده جدا فى المجتمع •

ومن ناحية أخرى ، كما ذكرنا من قبل ، كانت الكنيسة تتولى زمام تحويل الرجل المحارب الى فارس مسيحي وعندما أصبحت مهنة العمل فى السلاح مهنة معترفا بها ، أخذت الكنيسة تتدخل فى اعظم حدث فى حياة النبيل ، وهو تتويجه فارسا • فلم يكن هناك ما هو اقرب الى قلب اناس فى العصور الوسطى من المراسم والطقوس والرموز • فقد كانت هذه العقلية جزءا من تراث الاعتقاد السابق فى سحر الطقوس والكلمة المنطوقة ، كما كانت حصيلة الحياة فى عالم توجهه العناية الالهية ، ومع ذلك فما يزال الشيطان واتباعه يسكنونه ويؤثرون فيه ، وهو عالم لا يمكن للغة أن تصفه الا بصعوبة ، على حين يمكن للرموز ان تعبر عنه فى سهولة ، وغالبا ما كانت هذه الرموز تؤخذ من الحقيقة ذاتها • وفى هذا الخصوص ، صار تنصيب الفارس اعلانا عن أن الشاب قد أصبح رجلا ، كما صار هذا التنصيب أيضا طقسا يؤدي بالرموز والاشارات الرمزية ، وهو نوع من التعليم الدينى المكثف وتلقين للفضائل التى ينبغى ان يتمسك بها الشاب الذى أصبح فارسا •

وعلى الرغم من ان تنصيب الفارس كان يركز فى أساسه على العادات القبلية الخاصة بطقوس البلوغ ، فان عناصر الاحتفال الأصلية اختلطت آنذاك بالاضافات التى حولت الفعل الاجتماعى والعسكرى الى طقس تعميد مسيحي – تعميد ثان ، يتم من خلاله اقرار البالغ بالالتزامات التى يفرضها عليه تلقيه للسر المقدس • ومثل أى طقس دينى كان لتنصيب الفارس جوانبه التأملية والطقسية • وفى أكثر اشكاله تفصيلا كان التنصيب يبدأ بقضاء التابع ليلة فى الكنيسة وفى اثناء هذا كان

المفروض عليه ان يتأمل حياته المستقبلية ويفكر فى الفضائل التى ينبغى عليه ان يتمسك بها والردائل التى يجب ان يتحاشاها . وكان هذا العزل الليلى فى رحاب معبد الرب هو المقابل للندم فى طقس التوبة ، كما كان فى ألوقت نفسه علامة تحول فى حياته . والحمام الذى يأخذه صباح يوم التنصيب يقابل طقس التعميد فى انه طقس طهارة من الناحية الرمزية والطقسية ، وهو يعتبر مدخلا للتابع الاقطاعى الى المجتمع الجديد - ليس جماعة المؤمنين فى هذه المرة ، وانما هو مجتمع الاخوة المسيحية للمحاربين الأرستقراطيين . وكان الاعتراف وصلاة القداس فاتحة الحدث الكبير . وتعلن الملابس الجديدة المتألقة فى بياضها ، والتى كانت تلبس فى هذه المناسبة ، عن طهارة القلب والقصد . وكانت جميع هذه الاستعدادات مأخوذة من الكنيسة . وعلاوة على ذلك ، كانت الكنيسة تتدخل فى جوهر الطقس ، فمنذ نهاية القرن الحادى عشر فصاعدا كان القسيس (ويمكن القول القسيس الذى يشرف على حفل التنصيب) يبارك الرومز المادية للفروسية كالسيف والحرية أو الرمح الطويل التى كانت تشمل تقريبا جميع حاجيات المحارب ، فيما عدا المهاز ، وكانت كلها تسلم اثناء حفل التنصيب .

وكان الجزء الفعلى من الانعام الفروسية يتم على يد رجل مسن من الفرسان . وقد يكون والد الشاب أو احد اقاربه . ولكن غالبا ما يكون احد من اشتهروا بمسلك الفرسان ، وفى بعض الحالات كان تنصيب الفارس يتم على يد احد رجال الكنيسة . وكان الرجل الذى يقوم بالاحتفال يساعد التابع الاقطاعى الشاب فى تقلد السيف ، ثم يعطيه حريته وخوذته ومهمازيه ، ويركع الشاب على ركبتيه ويتقبل منح درجة الفروسية أو ضربة على كتفيه ، وهو عمل رمزى معناه ليس معروفها بشكل واضح . ووفقا لاحدى النظريات ، كان المقصود به تذكرة الشاب بالحدث الجليل فى حياته ، وحسب نظرية اخرى ، كان ذلك برهانا على

ان الرجل يستطيع ان يتحمل الضربة • وايا كان الامر ، فقد كان من المفروض ان هذه هي المرة الوحيدة في حياة الفارس التي يتحمل فيها الضربة دون هجوم ودون ان يردّها •

ومن الطبيعي ان روعة احتفال تنصيب الفارس كانت تعتمد على مكانة العائلة • ففي بيوت الأمراء يصير احتفالا رئيسيا ، على حين انه كان احتفالا متواضعا في المستويات الأدنى ، وعلى الرغم من الميل الى تقنين شكل الاحتفال ، فان ثمة تقليد آخر أقدم ، وربما أكثر أصالة ، لتنصيب الفارس وتدشينه في ساحة القتال حين يثبت شجاعته ، كان لايزال موجودا • وظل هذا طريقا ، وان كان ضيقا ، للانتقال وقد سمح حتى لأبناء العامة بالدخول في زمرة النبلاء •

ومع طلوع فجر القرن الثاني عشر ، صار الدفاع عن الدين وحمايته من بين الواجبات الجديدة المنوطة بالفارس • اذ كان رجل العصور الوسطى يتطلع الى الامبراطور هرقل والى شارلمان باعتبارهما مثالين لامعين للمدافعين عن الدين • وسرعان ما ظهر مثال جديد في الخيال الشعبي ، ذلك هو مثال المكابيين ، الأبطال العظام في التاريخ المقدس الذين دافعوا بأجسادهم عن العقيدة ضد الوثنيين النسنين • وكان في مقدور المرء ان يقاتل البروسيين الوثنيين على حدود المانيا او بولندا او يحارب المسلمين في اسبانيا ولكن لم يكن هناك شيء أكثر تمجيذا للمرء من الخروج الى الحرب في الأرض المقدسة • فالحرب من اجل الدين ، ومن اجل تحرير قبر المسيح المقدس او الدفاع عنه قد صار جزءا لا يتجزأ من قانون الفروسية • وقد كان ذلك التزاما دينيا بقصر ما كان التزاما على الفارس • فالرحيل عن الحبيب في زمن الحملة الصليبية الثالثة ، جعل كانون دي بيتون Canon de Béthune يعلن : « ٠٠٠ وا اسفاه ايتها الحبيبة الجميلة ، يا له من فراق يمزق

القلب ٠٠ فراق بعيد عن أجمل وأروع من حظى بالحب والخدمة منذ الأزل ٠٠ يجب على أن اذهب الى سوريا متنهدا وعاشقا لأنه لا ينبغي لأحد أن يخذل خالقه ٠٠٠ وليكن معلوما للعظيم والحقير على السواء أنه هناك يقوم المرء بأعمال الفروسية ٠ فهناك يريح المرء الفردوس والشرف ، والمتخافة والثواب كما ينعم بحب الحبيب ٠

الفردوس والشرف ، الثواب والحب - هي مكافآت الحياة الدنيا والبركة الأبدية ٠ فقد تداخلت التعاليم الدينية مع مبادئ الفروسية وارتبط السماوى بالأرضى فى قانون منسجم متسق للحياة ٠ ومرة بعد الأخرى تظهر المثل المتداخلة فى الشعر المعاصر ، مؤكدة على أن شرف العالم المسيحى فى خطر ٠ فان سيطرة أعداء بيت المقدس الأبديين عليها يجعل من الحياة المسيحية حياة كلها الخزى والعار ٠ والفرسان الذين ينضمون الى الحملات الصليبية يفون بواجباتهم ليس تجاه انفسهم فحسب ، وانما تجاه العالم المسيحى بأسره ٠ ولنقتبس من كانون دى بيتون مرة أخرى حيث يقول : « ان القساوسة والشيوخ الذين سيقومون بأداء الأعمال الطيبة وفعل الخيرات سيكون لهم جميعا نصيب فى الحج ، وكذلك السيدات ، اذا ما عشن حياة العفة واحتفظن بالولاء لأولئك الذين فارقوهن هناك » ٠ ويضيف مستدركا وكأنه يضيف عدة سطور لا شك انها كانت ماثلة فى عقول كثير من الصليبيين ، اذ يقول : « ولكن اذا ما ارتكبت السيدات الخطيئة - فيا للأسف - لانهن سوف يخطئن مع الجبناء والاشرار ، لأن كل الطيبين من الرجال سيكونون فى رحلة الحج » ٠ وسيتردد هذا التفكير الانسانى مرة أخرى بعد ذلك على لسان شاعر التروبادور الفرنسى رتييف Rutebeuf ، الذى تعرض بالاهانة لكل من عارض الحروب الصليبية ، بما فى ذلك أولئك الذين كان الرحيل عن شخص يحبونه يمثل عقبة كبرى فى سبيل مشاركتهم ٠

ومنذ لحظة حمل الصليب والقسم بالمشاركة فى الحرب الصليبية

حتى لحظة الرحيل كان الوقت يستغرق في تمويل البعثة ، والعثور على الرفاق ، ربما أيضا في اختيار قائد للرحلة . وقد كانت هذه المهام سهلة عندما كانت الحملات الصليبية الكبرى تعلن من قبل البابا ، ويقوم على رأسها الملوك أو الأمراء . ولكن فيما بين هذه الحملات الكبرى ، شقت اعداد لا تحصى من الفرسان وعامة الناس طريقهم الى الأرض المقدسة ، مستمتعين بمكائنتهم الخاصة كصليبيين وهي المكانة التي انعمت بها الكنيسة عليهم . وكانت هذه الامتيازات تتضمن ليس فقط غفران الخطايا والذنوب وحماية أرواح المشاركين واملاكهم ، بل وتجميد الديون والمصالح حتى عودتهم ، والذهاب في حملة صليبية مثل كل شيء آخر في قانون الفروسية تحول الى طقس يتم في احتفال خاص . وكان هذا الاحتفال يبدأ بأن يقطع الفارس على نفسه قسما بالالتزام بالرحيل الى الأرض المقدسة ، ويدير الاحتفال قسيس أمام جمع من الناس في القلعة أو الضيعة . وكان على الصليبي أن يخط صليبانا حمراء في معطفه أو سترته ، غالبا ما تكون على كتفيه وظهره وصدره . وكانت هذه علامة على ان الصليبي عازم على الحرب لا لسبب سوى مجد الدين والصليب . ولكن غالبا ما كانت تمضي سنة أو أكثر قبل ان يتمكن الفارس من الاستعداد الحقيقي للسفر .

وكان الاحتفال بالرحيل يتم في كنيسة القلعة أو في كنيسة أو دير قريب وبعد الاعتراف والتناول يأخذ الصليبي أسلحته ، والسيف والحرية ، والدرع والعلم التي باركها القس في المذبح . ومن هنا يتوجه في صحبة العائلة والجيران والفلاحين الى بوابة القلعة أو حدود ضيعته ، وكان الفراق صعبا فالناس في العصور الوسطى ، على الرغم من انهم كانوا دائما على سفر ، نادرا ما كانوا يتغيبون عن بيوتهم مدة طويلة ، ما لم يكونوا تجارا محترفين (وحتى في مثل هذه الحال كانت عدة شهور بعيدا عن المنزل تعتبر مخاطرة خارقة للعادة) . فالذهاب الى الأرض

المقدسة عادة ما كان يعنى غياب سنتين ، وغالبا ما كانت السنتان تمتدان لفترة أطول . وبطبيعة الحال ، كان هذا يحدث اذا كان الرجل محظوظا بحيث يقدر له أن يعود ؛ لأن الآفا وعشرات الآلاف لم يعربوا أبدا . اذ مات البعض على الطريق من المرض أو الأرهاق ، على حين وقع البعض الآخر في عرض البحر أسير القراصنة المسلمين (واثسيحيين أحيانا) ، ناهيك عن أولئك الذين قتلوا في ساحات المعارك في أرمينيا وسوريا ومصر والأرض المقدسة أو وقعوا في يد المسلمين ينتظرون سنوات طويلة حتى تحين الفرصة لكي يعلم أقرب ملوكهم بأمرهم ويطلب افتدائهم بالمال . ويصف جوانفيل Joinville ، كاتب قصة حياة القديس لويس الشهير ، رحيله للمشاركة في الحملة الصليبية بقوله :

« في يوم جمعه قلت لهم : أصدقائي ، اننى سأرحل قريبا عبر البحار ، ولا أعلم ان كنت سأرجع على الإطلاق . ولهذا فهل لى ان أسأل اذا كان أى منكم له دعوى ضدى فليتقدم . واذا كنت قد أخطأت في حكم فسأحول خطاى الى حسنة ، ولكى لا أؤثر على قرارهم انسحبت من المناقشة ، ثم وافقت بعد ذلك بدون تردد على ما أوصوا به . ولأننى لم اكن أرغب فى أن أحمل معى نقودا لا أستحقها ، فأننى رهنت الشطر الأكبر من أراضى . واستطيع ان أؤكد لكم انه فى يوم رحيلى عن بلدى للذهاب الى الأرض المقدسة لم يكن معى دخسل يزيد عن ألف ليفر من ضياعى . وفى اليوم الذى تركت فيه جوانفيل أرسلت الى رئيس دير كيمينون ، الذى قبل عنه انه احكم رهبان النظام المستقرشيانى وأكثرهم أمانة . وهذا الراهب نفسه هو الذى تناولنى عصا الحج ورقعة الشهادة . وتركت جوانفيل بعد ذلك مباشرة - فليس لى ان ادخل قلعتى ثانية حتى عودتى من الرحلة عبر البحار - على الاقدام وساقاى عاريتان وأنا أرتدى قميصى ، وقد ذهبت وأنا فى هذا السزى الى بليكورت Saint Urbain وسان اربان Blécourt وإلى أماكن أخرى

حيث توجد بعض الذخائر المقدسة • وعلى طول الطريق الى بليكورت
وسان اريان لم ادع عينى تلتفتان الى جواناتيل مرة اخرى على الاطلاق ،
خوفاً من أن يمتلىء قلبى بالشوق لقلعتى الحبيبة وطفلى اللذين تركتهما
خلفى ، •

هكذا كان الواحد منهم يترك وطنه بقلب مثقل بالهموم وهو يرحل
عن اهل وبيته • وثمة قصيدة ساحرة مؤثرة صاغتها سيدة شاعرة
مجهولة ربما كان اسمها جان دى نيفيل Jehan (Jeanne) de Neuville
وتتكون القصيدة من السطور التالية :

أورشليم ، لقد سببت لى الكثير من المعاناة

لقد اخذت من تملكنى حبه

لذا اعلمى اننى لن احبك ابدا

لأنه ما من شيء مثله ادخل على البهجة

وغالبا ما اشعر بمدى كابتى وغضبى

لأننى اقف فى وجه الرب

الذى انتزع منى اعظم افراحى

ايها الحبيب الحلو كيف تسمح

بعذابى وانت هناك عبر البحر الملح ؟

لا شيء يستطيع وصف الألم الذى يعصف بقلبى

حين اتذكر وجهك الحلو الصافى

الذى اعتدت تقبيله ومعانقته

انها لمعزة اننى لم افقد صوابى

مثل هذه المشاعر فى سياق الحملات الصليبية تشرح لنا قطعة فنية فريدة من النحت ترجع الى القرن الثانى عشر محفوظة فى متحف الكوردليير فى نانسى ، ومن المحتمل انها تمثل شخصية تاريخية هو الكونت فنـدوم Vendôme الذى التحق بجيش مليكه لويس السابع فى الحملة الصليبية الثانية ، ولكنه لم يعد مع العائدين بعد ذلك بسنة (١١٤٨) وبعد ان اقيم الحداد عليه ، وعلن انه مفقود ، ونسى الناس ذكره عاد الى موطنه بعد خمسة عشر عاما . والنحت يصور اعادة جمع شمل الكونت العائد . . وهو ما يزال فى ثيابه المهلهلة ، مرتديا الصليب ومعه عصا الحج - وزوجته . وتبدو الأجساد المتعانقة فى اللوحة المنحوتة كما لو كانت اندمجت فى كتلة صخرية واحدة - صخر صامت ولكنه اكثر تعبيرا من أى فصل فى رواية من روايات الفروسية .

ويمكن قياس مدى قوة الرابطة بين الفروسية والحروب الصليبية من خلال الحقيقة القائلة بأن هذه الرابطة ظلت على قوتها لمدة قرنين من الزمان . هذه الرابطة ظلت - بحساب العصور الوسطى ومصطلحها - هى القوة الدافعة لحركة مستمرة تجاه الشرق على مدى ما يقرب من عشرة اجيال متتابعه . بل انها ستبقى حيه على مدى قرنين آخرين حين اخذت شكل حملات صليبية عسكرية ضد المماليك ، والمغول والأتراك ، على الرغم من ان نهايتها كانت تلوح فى الأفق .

وهناك شىء يأخذ بالالباب حول أولئك النبلاء الذين جذبتهم مغامرة الفروسية فى العصور الوسطى . فلا شك انهم كانوا يتحركون بدافع من عقيدة مهيمنة على الرغم من ان المرء قد يشك فى مدى عمق تدينهم . اذ كانت العقيدة جزءا من نظام تربيتهم وحياتهم اليومية ، وهى حقيقة لا يرقى اليها الشك كانت تفرض نفسها على الأعياد والمواسم وعلى كل الأحداث الجسام فى حياة الناس من المهد الى اللحد . لقد ولدت الحركة الصليبية من رحم الدين كما ان الدين استعاده توقيده بفضل الحروب

الصلبية ، ذلك ان محاربة الكفار وتحرير الضريح المقدس أو الدفاع عنه لم يكن مجرد شعار ، أو مجرد تبرير للحرب والقتال ، وانما كان جانباً من جوانب الحياة الداخلية وشعوراً بالالتزام داخل كل انسان .

وابا ما كان الأمر ، فان أولئك المحاربين العظماء الذين تربوا على الكتاب المقدس وقصص الفروسية الخيالية ، كانوا هم أيضاً جمهور رؤية التروبادور الطائشة للحياة ، وهي نظرة كانت تبشر صراحة بالاباحية والزنا . ولم تكن ثمة علاقة موضوعية رابطة بين الاثنين سوى واقع الحياة التي يمكن للمرء ان يمارس فيها الاثنين دون ان يضطر الى الموائمة بينهما . ومهما كانت الاحتمالات ، فان كثيرين كانوا يتجهجون السبيل الذي أوضحته بعض الكتابات ذات الصبغة الأخلاقية في ذلك العصر - وهو سبيل الندم عما حدث في سن الطيش وتجاوزات الشباب ومع ذلك فالممارسة المزدوجة للفروسية ومطارحة الغرام لم تكن هي الشكل الوحيد للسلوك . واذا كانت مطارحة الغرام اضافت سحر الحب ومتعة الجنس الى الواجبات القاسية للمحارب المسيحي عند الغالبية العظمى ، فان البعض كانوا يرون ذلك أمراً دينياً . وكان رجال الكنيسة والعلمانيون المتزمتون يرون في هذا المستوى المزدوج للأخلاق أمراً مقبولاً .

واذا كانت بروفانس ، بما اشتهرت به من اعلاء لشان الحب ، قد أسرت الشمال ، فالأرض المقدسة تفاعلت مع الغرب بأسره ووضعتته رهن محبتها حين خلقت ايدولوجية جديدة من الفارس المسيحي الكامل . فان أحلام هذا الفارس لم تكن حافلة بصورة الحب الفاني ، وانما برؤى الحب المقدس ، حب الله الخالد الذي لا يفنى . وكانت التعاليم الأخلاقية والفضائل المسيحية التي يلقنها المرء في طفولته تقوى ويشد أزرها من خلال الارتباط بالأرض المقدسة ، التي صارت مهد النظم العسكرية .

وأكثر ابتكارات الصليبيين والحملات الصليبية أصالة هي النظم العسكرية التي كانت مجالا لتحقيق الايديولوجيتين الكبيرتين في اوربا العصور الوسطى في أدق صورة - وهما حياة الرهبنة الديرية وحياة الفروسية - وأصبحت نظم الرهبنة العسكرية واحدة من أكثر التعبيرات شمولا عن طباع العصور الوسطى .

والفكرة الكامنة وراء نظم الرهبنة العسكرية لم تنشأ بين القساوسة أو الرهبان . فقد كان المبادرون بانشائها من العلمانيين . وكانت هذه النظم أحد المجهودات الباكرة الخلاقة لطبقة النبلاء في مجال الاخلاقيات والايديولوجيا . فبعد ان استولى الصليبيون على بيت المقدس مباشرة ، جمع فارس بروفنسالى يدعى جيرالد Gerald مجموعة من الفرسان لرعاية المرضى والجرحى . فقد كانت الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى الملقاة في الشوارع ماتزال تملأ المدينة حين بدأت مجموعة من الفرسان الصغيرة عملها الخيري في مستشفى فوقت . ولم يكن مفهوم العلاج والمستشفى مفهوما جديدا . ففي سنة ١٠٧٠ م تقريبا قامت مجموعة من تجار أمالفي Amalfi الذين كانوا يترددون على شرق البحر المتوسط باستمرار ، بتأسيس مستشفى للحجاج الغربيين في بيت المقدس . وتوقفت أعمال العلاج والمستشفى اثناء فترة الحصار ، وتم اجلاء الرهبان والراهبات الذين كانوا يعنون بالمرضى الى خارج المدينة . والحقيقة ان اعادة احياء هذه المؤسسة الجديدة انما تم على يد العلمانيين - وليس الرهبان والراهبات - الذين أخذوا على عاتقهم مهمة رعاية المرضى والفقراء والمعوزين . فالاحسان ، كما كانت نظرة النبلاء اليه ، كان يعنى اعطاء الصدقات للمحتاج ، وعادة ما كان هذا مرتبطا بالعطف والاكرام . وقد تلى التصوير الكلاسيكى المتأخر للصراع بين الفضائل والردائل مناظر تصور الملك والنبيل في زيارة مريض . ومن المؤكد ان الرعاية لم تكن تنصب على المرضى شسخصيا . وهكذا

حققت المجموعة الصغيرة التي التقت حول جيرالد في بيت المقدس مساهمة فريدة من نوعها في مجال الوعي الاجتماعي .

وتتمركز الفرسان من المدخل الجنوبي حتى منطقة الضريح المقدس . واستولوا على كنيسة بيزنطية عجيبة من دورين تميزها كنيسة صغيرة ثلاثية الاضلاع . وكان القديس الحامي للكنيسة هو القديس حنا مانع الصدقات John Almsgiver السكندري . ولكن الصليبيين استبدلوه بيوحنا الممدان الذي كان أكثر شعبية - بطبيعة الحال - من سلفه . ثم ادمج مبنى الاستشفاء الذي كان يتبع تجار أمالفي من قبل باسم سانت ماري في مجموعة من مباني المستشفى سرعان ما امتدت لتشغل حيا كاملا من أحياء المدينة . وفي دولة في حالة حرب يزورها آلاف الناس كل عام ، كانت العناية بالمرضى والجرحى ضرورة ملحة . وما لبثت ان وصلت الهبات والعطايا من الحجاج والبيوت الملكية والنبيلة فيما وراء البحار لتدعم المركز المالي للجماعة .

وهذا الرابطة المتطوعة من المثاليين اتخذت لنفسها القواعد التي تحكم أية رابطة ديرية . وقطع أعضاؤها على أنفسهم قسما ثلاثيا بالفقر والعفة والطاعة . وعلى مدى ما يقرب من جيل بدا وكان مستقبل هذا التنظيم سيكون مؤسسة ديرية له أهداف علاجية . وقبل ذلك ، وفي داخل أية مؤسسة ديرية لا يختلف النبيل - على الأقل من الناحية النظرية - عن أي راهب آخر ، على الرغم من أن مولده وتعليمه قد يكونا من عوامل ترقيه ووصوله الى مكان مرموق ، مثل رئيس الرهبان أو مقدم الدير . ولكن في بلد يتسم بهذا القدر الكبير من المهاجرين مثل المملكة اللاتينية في فلسطين ، وكان من الصعب الحفاظ على القواعد التي تفرق بين النبلاء وغير النبلاء . والخلاصة أنه اذا لم يكن تنظيم القديس يوحنا قد انتهج هذا المنهج في التطور وظل يحافظ على التفرقة بين الاثنين ، فقد كان

ذلك لأن رابطة جديدة من النبلاء أخذت في الظهور في الوقت نفسه ،
وهي جماعة الداوية .

وتنظيم الداوية (المعبدين Templars) - وقد سموا بهذا الاسم لأن مقرهم الأول كان في هيكل سليمان في القدس (في المسجد الأقصى) قام على أسس مختلفة في افتراضاتها ولكنها كانت أكثر ملائمة للطبقة الاجتماعية التي انضم أبناؤها إلى هذا التنظيم . وقد أسسه هـوف الباينزي Hugh de Payns ، الذي جمع مجموعة صغيرة من الفرسان في رابطة متطوعة لتقديم خدماتها في شكل قوافل مسلحة تخدم الحجاج في طريقهم من القدس إلى مدينة أريحا ومنها إلى الأماكن التي شهدت تعميد المسيح في الأردن . ولم تكن حالة عدم الأمن العامة التي سادت خلال العقدين الأولين من عمر المملكة ترجع فقط إلى الحدود التي تفتقر إلى وسائل الدفاع والتحصينات . فقد كان هذا الشعور بعدم الأمن مسيطرا تماما داخل حدود المملكة ، لأن جماهير سكان الريف ظلوا من المسلمين ، ولم تكن الدولة الصليبية قادرة على فرض سيادتها على السكان إلا بقدر ما لديها من قوة . وظل المسلمون على عدائهم للصليبيين ، بل أن بعضهم غادروا مواطنهم وهاجروا إلى سوريا ومصر ، بينما البعض الآخر ، كما نعلم من إحدى المدونات الصليبية ، تركوا فلاحه أراضيهم مفضلين العيش على حافة الموت جوعا . وبذلك يحرمون الغزاة المكروهين من مصادر الدخل . وكان السفر يمثل مخاطرة جسيمة في الأراضي الجبلية والتلية في منطقة الجليل ، وهو ما كان يحرمون الغزاة المكروهين من مصادر الدخل . وكان السفر يمثل مخاطرة محفوفة بالأخطار . ولم يكن الموقف أفضل على الطريق الرئيسي من ميناء يافا إلى بيت المقدس عبر سهل الرملة . ولحماية الحجاج ، نظم الداوية قوافل مسلحة أصبحت جزءا من الوجود الصليبي .

هذه الرابطة العسكرية الباكورة سرعان ما تطورت الى جماعة من المتطوعين ، وربما تكون بعض القواعد الأولية قد وضعت بالفعل على يد مؤسسها عام ١١١٨ م . واندجت رسميا فى قواعد التنظيم عند حصوله على موافقة الكنيسة . ولقيت الرابطة الجديدة مساندة معنوية من سان برنار الكليرفوى St. Bernard de Clairvaux الذى كان يمثل أعلى سلطة روحية فى ذلك العصر . وفى كتيب صغير يسمى « فى مديح الفروسية الجديدة » ، ترك لنا برنار وصفا للنمط النموذجي للفارس من نظام الداوية ، الذى يختلف عن الفارس العلماني . فقد كتب يصف الفارس الدنيوى الذى ينكب على الحياة الناعمة ويبحث عن المجد الشخصى ، يقول :

« انكم تكسون خيولكم بالحريز ، وتغطون دروعكم بكسوة براقية . كما أن حرايكم ملونة ، وكذلك دروعكم وسروجكم . كما انكم تطعمون مهاميز خيولكم والجمتها بالذهب والفضة والأحجار الكريمة . ومع كل هذه الفخامة تتحركون فى غضب مخز وغباء قح الى ميدان المعركة . هل، هذه هى المظاهر التى تناسب الفارس ، أم هى زينة تناسب النساء أكثر ؟ هل تظنون حقا ان سيف العدو سوف يحترم الذهب ، ويبقى على الأحجار الكريمة ، ولا يخرق الثياب الحريرية ؟ لقد علمتني التجربة ان المحارب يحتاج الى اشيء ثلاثة : يجب ان يكون فارسا شجاعا ، يقظا حريصا حتى يحمى نفسه ، كما يجب ان يكون سريعا خاطفا مستعدا على الدوام لتوجيه ضرباته الى الخصم . ولكنكم على النقيض تماما ، فقد ارسلتم شعوركم لتطول كشعور النساء لدرجة انها تحجب نظركم ، كما انكم تقيدون حركتكم بسبب السترات الطويلة الفضفاضة وتدفنون اياديكم الناعمة الرقيقة فى اكمام طويلة ترفرف حولكم » .

اما « فارس الرب » من الداوية فيصفه ويزكيه زعيم أوربا الروحي بقوله : « أولا ، نظام وطاعة لا مثيل لهما ، فكل واحد منهم يغدو ويروح

وفقا لمشينة قائده • وكل منهم يرتدى الملابس المعطاة له ، ولا يبحث أحد عن طعام أو ملابس ارضاء لنزواته • ففي مسائل الطعام والملابس يقنع الواحد منهم بما هو ضرورى متجنباً كل ما هو زيادة عن الضرورى • وهم يعيشون فى جماعة ، ينعمون بالسرور فى رزاة دون زوجة أو ولد • ولكى يصلوا الى الكمال الانجيلي ، فهم يعيشون فى البيت نفسه وبالطريقة نفسها دون أن يدعوا ملكية شىء ، حريصين على الحفاظ على وحدة الروح فى ظل روابط السلام •

أما الكلمات البذيئة ، والمشاغل التى لا معنى لها ، والضحك الخارج ، والضحكات البلهاء الهامسة أو حتى المكتومة ، فهى غير معروفة • ويكرهون الشطرنج والفرد ، ولا يحبون الصيد ولا يستمتعون بتطير الصقور • وهم يحتقرون الممثلين الصامتين والحواة ، والقصاصين ، والأغاني المأجنة والعباب المهرجين – فكل هذه أمور يعتبرونها عبث ولهو باطل ، وطيش سخيف • وهم يقصرون شعورهم لانهم يعلمون أنه من المخزى للرجل أن يرسل شعره • وهم لا يزيدون أبدا فى ملابسهم وهم نادرا ما يستحمون وهم لذلك قذرون مشعرون وقد لوحث جلودهم الشمس وطول السفر • ،

وقد أحرز التنظيم الجديد نجاحا هائلا • فقد جنده الملك والنبلاء المحليون لأنه كان يسد إحدى حاجات الملكة الملحة • وقد ظل قسم الفقر الذى قطعه الفرسان المؤسسون على انفسهم باقيا كقوة دافقة للفرد • ولكنه لم يكن كذلك على المستوى الجماعى • فالأعلام البيضاء والصلبان الجديدة للفرسان الداوية سرعان ما أصبحت رمزا للقوة والثروة • وربما كان نجاح التنظيم متوقعا ، لانه أدمج الايولوجيتين الكبيرتين فى ذلك العصر – الرهبنة والفروسية • وكان عضو الداوية قادرا على ممارسة معظم ميوله الطبيعية – التى كانت نتيجة لبيئته

الاجتماعية ولتعليمه - تحت رعاية الكنيسة مع معرفته القامة بأن وظيفته العسكرية مكرسة لمجد الرب العظيم . وهنا كان ثمة ادماج للفروسية والأخلاقيات بالنسبة لأولئك الذين تبناوا رأيا أكثر جدية لمعنى الحياة المسيحية وواجبات النبيل المسيحي . وكان النبيل والفارس يقبلون في شغف على الالتحاق بالتنظيم الجديد في أوريا . على أمل ان يأتي يوم ينتقلون فيه الى هيئة أركانه ومجال نشاطه الأساسي في المستعمرات المسيحية في الشرق . أما أولئك الذين لم تكن مشاعرهم قوية بالقدر الذي يدفعهم الى الالتحاق بالتنظيم لدى الحياة سرعان ما كانوا يجدون الوسيلة التي تمكنهم من الالتحاق به بشكل مؤقت حيث يخدمون لعدة سنوات . وكان الشعار المرسوم على لواء الداوية ، البوسان Beauseant . يحمل آية من المزامير تقول : « ليس لنا ، أيها الرب ، ليس لنا ولكن لاسمك امنح المجد » .

وسرعان ما خرجت اسطورة تحكى عن العراقة الاعجازية للتنظيم ولم يعد Hugh de Payns هو مؤسسه وانما أرجعت أصول هذا التنظيم عبر الزمان الى الف ومائتى سنة الى أيام المكابيين الذين أعادوا تأسيس الهيكل وتولوا الدفاع عنه . فأولئك الأبطال الوطنيون اليهود الذين حرروا بلادهم من الحكام الهيلنستيين في سوريا في القرن الثانى قبل الميلاد ، والذين طهروا بيت المقدس وأعادوا بناء الهيكل قد صاروا أسلافاً للفارسان الداوية .

وكان لظهور الداوية ونجاحهم المذوى انعكاساته السريعة داخل تنظيم القديس هنا . فهذا التنظيم الذى كان قد تأسس منذ جيل مضى كان عليه ان يواجه منافسة قوية بسبب حرارة القبول الذى لقيه التنظيم الجديد تنظيم الداوية . وقد واجه الاستبارية هذا التحدى بأن أضافوا اهباء عسكرية الى التزاماتهم ، وسرعان ما أخذت الرايات السوداء (م ١٢ - عالم الصليبيين)

والصليبان ذات النقط الخمس مكانها كعلامة مميزة لفرق الاستبارية وسوف تشكل ، ليس فقط جزءا من جيش المملكة ، وانما أصبحت - وهي و فرق المنظمات الأخرى - تشكل جيش المملكة الضارب . وحين تكون هناك ضرورة لتعبئة الجيش الإقطاعي لمواجهة أية طوارئ ، تكون نظم الرهينة العسكرية جيشا من الفرسان المتهيين دائما والمستعدين دائما للعمل .

ومنذ منتصف ثلاثينيات القرن الثاني عشر لم يتم التنظيم فقط بإمداد المملكة بالفرق العسكرية ، ولكنهما أيضا كانا منوطين بالدفاع عن المواقع العسكرية الرئيسية . فالنقط القوية والابراج والحصون سلمت جميعها للتنظيمين . وما لبثت شبكة الطرق والمواصلات كلها أن خضعت لدورياتهم التي تولت أعمال الحراسة . فضلا عن أنه منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ومع تفاقم التهديد الإسلامي ، تركزت فرسان الداوية والاستبارية في القلاع والحصون الضخمة التي كانت تحمي حدود المملكة والمستوطنات الصليبية الشمالية . ففي إمارة أنطاكية ومقاطعة طرابلس ، كانت مناطق الحدود كلها تقريبا مواجهة بالدول الإسلامية وتولت حراستها فرق الفرسان من نظم الرهينة العسكرية . وفي ظروف المستوطنات الشمالية خلقت نظم الرهينة العسكرية دويلات مستقلة لها سياستها الخارجية المستقلة . وكان على الأمراء الصليبيين أن يعترفوا بأن معاهداتهم مع المسلمين المجاورين لن تكون سارية المفعول بدون موافقة نظم الرهينة العسكرية .

وازاء الأهمية المتزايدة لنظم الرهينة العسكرية وقوتها وثروتها المتنامية يعجب المرء لما حدث للمثل الراقية في نكران الذات والفقر وهي المثل التي كانت تتأكد بقوة بالقاب مثل « فرسان المسيح الفقراء » أو « خدام الفقراء والمسيح » . و من خلال الامتيازات والهبات أصبحت النظم العسكرية ثرية ، فقد كان الاستبارية يملكون ثمانى عشرة ضيعة في

أوريا • أما الداوية الذين كانوا لا يكادون يقلون عنهم ثراء فمن سخرية الأقدار انهم أصبحوا صيارفة أوريا الكبار في القرن الثاني عشر ويتنافسون مع البيوت المالية في إيطاليا بل ومع اللمباريين Lombards و Cahorsins أشهر مرابيى العصور الوسطى • فمن ناحية ، كانت سلامة حصونهم وابراجهم ذات الحراسة القوية والمسماة بالمعابد على سبيل الاختصار ، تضمن أمن الودائع ، كما ان مكانتهم كأعضاء في الكنيسة حولت املاك النظم الى ملاذ وملجأ ضد التدخل العلمانى • ومن ناحية أخرى ، سهلت فروع التنظيمات العديدة عملية نقل الالتزامات والديون من مكان لمكان دون نقل المال نفسه عبر الطرق والبحار المحفوفة بالأخطار • فالودائع والمنقولات كانت تدر ربحا ، على حين استخدم رأس المال السائل المتراكم فى اقراض الملوك والأمراء • والا غرو ، اذن ، فى أن أوريا كانت تكيل المديح وتصب اللوم على هذه التنظيمات فى ان واحد • فقد كان المديح يوجه الى شجاعة أعضائها ، ومهاراتهم العسكرية واخلاصهم للعالم المسيحى • ولكن هذا الثناء كان يقابله انتقادات مريرة لثراء هذه التنظيمات وأطماعها وأدانة للصراع الذى كان يضعف من استقرار المملكة الصليبية ويؤثر على استمرارها فى الوجود •

ولم يؤسس الاسبتارية أو الداوية دويلات مستقلة فى أماكن المستوطنات الصليبية الأصلية ، ولكن الداوية أصبحوا تقريبا هم حكام قبرص فى القرن الثالث عشر ، على حين كان الاسبتارية يحكمون رودس ومالطة حتى فتحها نابليون • ولكن ثمة تنظيم مشابه كان ينمو فى بطن مكونا تنظيما جديدا مع نهاية القرن الثانى عشر ، الا ان مصيره كان مختلفا • فقد واجهت سوريا ولبنان والأرض المقدسة – التى كانت أرض الهجرات والاستعمار الصليبي – مشكلة اندماج القادمين الجدد • فقد كانت سيادة العنصر الفرنسى الاجتماعية والثقافية شاملة تقريبا • وعلى الرغم من

أن اللغة اللاتينية كانت تستخدم فى المراسلات ، فقد كانت اللغة الفرنسية منذ البداية هى اللغة التى يتحدث بها السكان . وكان الايطاليون يتكلمون بلهجاتهم فيما بينهم ولكنهم كانوا يستخدمون الفرنسية فى اتصالاتهم الخارجية . وبينما كانت اللغة الفرنسية المستخدمة فى وسط وجنوب فرنسا هى اللغة المستخدمة فى المملكة اللاتينية ، كانت انطاكية تستخدم الفرنسية النورماندية ، على حين استخدمت طرابلس الاوكسيتانية Occitan أو البروفنسالية . وظهرت مواقف لم يكن استخدام اللغة الفرنسية فيها كافيا ؛ فقد كان المرضى والحجاج ، لا سيما العامة منهم ، يبحثون عن أحد يتحدث بلغتهم الوطنية . وفى مثل هذه الظروف نشأت فى القرن الثانى عشر مستشفى ومجموعة علاجية مكرسة لسان ماري ، التى هى جزء من تنظيم القديس حنا ، وهو ما أصبح نقطة تجمع للحجاج المتحدثين باللغة الألمانية .

وكان المستشفى الألمانى ، على الرغم من كونه جزءا من تنظيم القديس حنا ، يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى . فقد كان له رئيسه الخاص . وقد توقفت أنشطته بسقوط القدس فى يد صلاح الدين عام ١١٨٧م . وقد أثار سقوط العاصمة أوربا أوربا فأخذت تنظم حملة عسكرية جديدة هى الحملة الصليبية الثالثة . وفى أثناء الحصار الذى استمر حول عكا لمدة ثلاثة أعوام وبين آلاف الجرحى الذين أصيبوا فى المعارك أو المرضى الذين سقطوا بسبب المناخ أو الجوع ، ظهرت الحاجة الى مستشفى خاص للعناية بالصليبيين المتحدثين بالألمانية فقام التجار والبحارة الوافدون من البحر البلطى ، وبريمن وهامبورج ، بتأسيس مستشفى ميدان أولى ، وهو عبارة عن مبنى خشبى تم بناؤه من أخشاب السفن المحطمة وتحميه أقمشة الأشرعة من الشمس والمطر . وعندئذ ، كما حدث منذ مائة سنة قبل ذلك فى تنظيم القديس حنا ، كرست مجموعة من الفرسان والقساوسة

الألمان أنفسهم لعمل الخير ، وبعد ذلك بسنوات قليلة صارت المؤسسة الأولية نظاما عسكريا جديدا هو نظام الفرسان التيوتون ، فرسان سان ماري التيوتون الذي، مزج الأغراض العسكرية بالخدمات الخيرية .

وهكذا أصبحت التنظيمات الثلاثة تتحكم في العالم الصليبي في القرن الثالث عشر ، وبينما كانت الاسبتارية والداوية يحافظون على هويتهم العالمية صار التنظيم التيوتوني الأداة الفولاذية للتوسع الألماني . وشارك الفرسان التيوتون ، كما هو الحال بالنسبة لفرسان التنظيمين الآخرين ، في جميع الحروب والحملات العسكرية في الأرض المقدسة ، فقد استحوذوا على الأرض والقلاع مثل قلعه مونتفورت Montfort في الجليل ، بيد ان قلوبهم كانت في مكان آخر ، فان روابطهم المباشرة مع المانيا قد وجهتهم تجاه المانيا الشرقية بدلا من المسيحية الشرقية . وقد حاولوا دون جدوى ان يقيموا لأنفسهم رأس جسر في هنغاريا ، ولكن عندما دعاهم كونت ماسوفيا Masovia البولندي (١٢٢١) تمركزوا بنجاح في حزام بروسيا البلطيقى واضعين بذلك أساس مملكة بروسيا في المستقبل وحجر الزاوية في المانيا الامبراطورية .

وسرعان ما وجد مفهوم المقاتل - الراهب سلسلة من المقلدين . فثمة نظام عسكري على وجه الخصوص ، على الرغم من انه لم يصل أبدا الى مكانة التنظيمات الكبرى ، له من الغرابة ومن نمطية بيئة الصليبي ما يجعله جديرا بالاهتمام . هذا التنظيم هو تنظيم سان لازاروس St. Lazarus الذي قام في بيت المقدس في منتصف القرن الثاني عشر . ويشير اسمه الى سماته وخاصيته المميزة ، لأنه كان تنظيم الفرسان المجذومين فقد كان مرض الجذام الرهيب مرضا بلا علاج ، ويبدو انه كان منتشرا في الشرق الأدنى ، ولأنه كان يعتبر مرضا معديا فقد كان ضحاياه يعزلون عن العالم خارج أسوار المدينة وبوابات القلعة . وقد توصل الصليبيون الى حل آخر . هو مستشفى مطلق خارج القدس

ولكن ملاصق لأسوارها وأصبح مستعمرة للمجذوبين • ولكن فرسانه وعامته نظموا أنفسهم فى تنظيم عسكرى • ويمكن للمرء ان يتصورهم وهم يهاجمون المسلمين ، ويثبون الرعب بسبب بسالتهم العسكرية من ناحية ، والتهديد بالعدوى من ناحية أخرى •

ويجب ان نمر سريعا على التنظيمات الأصغر التى قامت فى المملكة الصليبية - مثل التنظيمات العسكرية للفرسان الايطاليين او التنظيم الانجليزى لفرسان سان توماس الكانتبورى - على الرغم من أن ايا من هذه التنظيمات لم يلعب ابدا دورا رئيسيا فى المملكة • والأهم من ذلك تلك الحقيقة القائلة بأن الفكرة التى نبعت أصلا فى الأرض المقدسة ، تمسكت بها أوروبا ، وبالإضافة الى التنظيمات الدولية الكبرى ، ظهرت نظم رهبية عسكرية محلية ، لا سيما فى الأراضى التى واجهت عدوا مسلما أو وثنيا • وهكذا ، فان اسبانيا والبرتغال ، ثم ليتوانيا وبولندا فيما بعد ، كانت لها تنظيماتها المماثلة التى قامت على غرار المثال الفلسطينى • وقد لعبت بعضها دورا فى تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية ، بينما لعب البعض الآخر دورا فى تاريخ شرق البلطيق • فقد كانت هذه التنظيمات العسكرية قوة محورية للملكية التى استعانت بها فى بناء الدولة والمجتمع فى جميع الاحوال تقريبا • واختفاؤها عند غروب شمس العصور الوسطى أو بداية حركة الإصلاح الدينى لم يثر أى احتجاج لدى الرأى العام • فمنذ ذلك الحين لم تعد الرهبنة والفروسية ذات أهمية • وفى القرن السادس عشر نزل سرفانتس Cervantes بالفارس العظيم الى مجرد دون كيشوف ، الفوضوى المضلل الذى قام بمغامراته فى عصر يصف الفارس الدنيوى ، الذى ينكب على الحياة الناعمة ويبحث عن النهضة •

القلاع والشؤون الحربية

ان الأقلية التى تسعى الى حكم اغلبية معادية ليس امامها من سبيل لضمان وجودها سوى أن تتمركز فى اعداد صغيره نسبيا وفى أماكن حصينة ، سواء كانت مدنا أو قلاعاً . وعلى الرغم من ذلك فان هذه الوسيلة لم تكن كافية لاحكام السيطرة على المناطق الريفية ، ولضمان الاتصالات وجعل الوجود الفرنجى فى الأرض المقدسة حقيقة ملموسة . ولهذا ، فبالاضافة الى المدينة المحصنة والقلعة الضخمة ، فان الصليبيين رصعوا شبكة الطسرق الرئيسية والثانوية فى البلاد بالحصون ونقاط المراقبة التى هى أقرب الى مراكز الشرطة منها الى القواعد العسكرية . فقد كان من السهل ان تتصل الحصون والحاميات من الجبل الى السهل عن طريق الاشارات بالنيران أو الحمام الزاجل ، وهو أسلوب تعلمه الفرنجة من المسلمين فى الشرق . وبهذه الوسائل كانت الاخبار تنتقل بسرعة من الأرض ، عن طريق بيت المقدس الى يافا وعكا . وكانت المواقع الصليبية الحصينة بمثابة مؤسسات عسكرية ثابتة ، على حين كان الجيش هو العنصر المتحرك فيها .

فالحصن أو القلعة أو المدينة فى المملكة اللاتينية لم تكن جديدة تماماً . فقد كانت المدن على وجه الخصوص مدنا استولى عليها الصليبيون من حكامها المسلمين ، وهو ما يعنى ان الصليبيين لم يقوموا ببناء هذه المدن ، وانحصرت مساهمتهم عادة فى تطوير نظام الدفاع الموجود بها . وغالبا ما كان الصليبيون يبنون الحصون والقلاع ، ولكن حتى هذه الأبنية كانت تقام فى أماكن كانت بها تحصينات سابقة

ثم هجرها أهلها خلال فترة الثلاثة آلاف سنة التي يمتد تاريخ البلاد بطولها . وفي مثل هذه الأحوال ، فالراجع ان الصليبيين قد ساروا على التخطيط الذي قامت عليه التحصينات السابقة . كما انه من المؤكد أيضا انهم قد استفادوا من المباني التي اقيمت في الموقع من قبل . فقد كان منطق الصليبي المحلي يقول : « ان قلعة مدمرة هي قلعة نصف مبنية بالفعل » . وقد تفاوتت التحصينات الصليبية بين الأبراج الصغيرة القائمة على الطرق ، والقلاع العملاقة مثل صفد في الجليل حيث كانت حامية فرسان الداوية والجهاز الاداري العامل في خدمتهم يصلون الى حوالي ألفي نسمة . ومثل هذا العدد من السكان كان من الممكن ان يشغل احدى مدن أوروبا آنذاك . وكان حجم الحصن يتوقف على موقعه ، وعلى الأموال والقوى البشرية المتاحة ، وعلى الوظيفة المخصصة بهذا الحصن . فمركز الشرطة الذي يتولى حراسة احد الطرق ، او المركز الاداري للممالك الشاسعة لأحد التنظيمات العسكرية ، او القلعة القائمة في الأعراس في مواجهة تهديد اسلامي مستمر عبر الصحارى الممتدة ، كلها يجب ان تبني بشكل يختلف تبعا لمهامها المختلفة .

والأساس ان كل التحصينات كانت لها ثلاث وحدات دفاع رئيسية : الدفاعات الخارجية وهي عبارة عن الأسوار المحيطة والأبراج والحصن المركزي . وعادة ما كانت الدفاعات الخارجية تتألف من خندق بجرف وجرف مقابل ، واحيانا برج خارجي او نقطة مراقبة . وكان يلي هذه ستائر من الحوائط بها فتحات ونوافذ بارزة ، وعادة ما تكون الأبراج مستديرة . وأكثر نظم الدفاع تعقيدا هو الذي كان يتركز بالقرب من بوابة القلعة الرئيسية . ولم تكن الخنادق الصليبية تملأ بالمياه ، لأن « أرض اللبن والعسل » لا تسقط بها الأمطار التي تكفي للملئها . وكانت مهمة هذه الخنادق الرئيسية هي منع المنجنيقات أو أبراج الحصار من الاقتراب من الأسوار . وكانت الخنادق تبني بدقة شديدة وباتساع

حوالى ٤٥ قدما وعمق يتراوح بين ٢٤ و ٢٦ قدما . ومن قاع الخندق تبرز الحوائط الخارجية للحصن وكانت قاعدة هذه الحوائط عبارة عن لوح مائل مصقول ثقيل بالقدر الذى يمنع اية محاولات لحفر نفق فيه . وعادة ما كانت القاعدة تمثل جرف الخندق وعلى هذه القاعدة القوية الهرمية الشكل ترتفع الأسوار المنتظمة الى ارتفاع حوالى خمسين قدما (او ثمانين قدما من قاع الخندق) وتبرز منها شرفات للدفاع . وترتفع الأبراج من ستائر الحوائط ويراعى ان تكون المسافات بينها بالقدر الذى يسمح للسهم أو غيرها من المقذوفات بتغطية كل المنطقة المحيطة بالقلعة . واذا ما وجد حائط ثان ، فغالبا ما كان يبلغ ارتفاعه ضعف ارتفاع الحائط الخارجى ، ويجهز بأبراج عالية تملأ الفراغات الموجودة بين أبراج الحائط الأول .

وثمة وحدة منفصلة فى منتصف القلعة ، أو فى أكثر نقاطها ضعفا ، وربما يكون أحد أبراج الحائط الثانى مقرا للحاكم أو القائد . وكان هذا هو الحصن المركزى donjon . والحصن المركزى الباقى فى بلفوار Belvoir بالجليل عبارة عن مبنى مستطيل الشكل من دورين يضم فناء داخليا فسيحا . ولأنه مبنى من الحجارة الضخمة الممتازة ، فانه كان بمثابة الخلية الأساسية فى الحصن . وكانت حجرة الاجتماعات هذه تؤدى الى القاعة الداخلية التى تحيط بها أماكن إقامة الفرسان ، والمطبخ والبئر وغيرها من لوازم الحياة اليومية . وفى الطابق الثانى ، الذى يتوصل اليه من سلم خارجى ، توجد الكنيسة والمكاتب ، وحجرة القادة ، وأماكن الإقامة الاضافية . وكانت أركان الحصن المركزى مدعمة بالأبراج العالية التى يتم الصعود اليها بالسلالم الداخلية .

وكانت دفاعات البوابات توجد فى العادة بين الأبراج ، وهى تملو الستائر الحائطية . وكان يوجد فى قيصرية ثلاثة طوابق عالية وبها شرفه فسيحة للمدافعين وأسلحتهم الثقيلة . وكانت الحوائط والأبراج

مثقوبة بالمنافذ وقد أحصى في حصن قسطل ثمانين من رماة السهام الذين يستطيعون القذف بسهامهم في وقت واحد من المنافذ العديدة . وكانت البوابة في حد ذاتها وسيلة دفاع معقدة . فتحة قنطرة تمتد على الخندق أمام القلعة وتؤدي إلى البوابة . وكان الجسر كله أو جزء منه يشيد من الخشب تدعمه أقواس أو عامود قائم في منتصف الخندق . وكان هذا يساعد المدافعين على حرق الجسر في حالة تعرضهم للهجوم وبذلك يعزلون المدينة عن المنطقة المحيطة بها . وللبوابة ذاتها جناحان خشبيان يدخلان في فراغ بالحوائط . وخلف البوابة الخشبية المقواة بالمعادن كان هناك حاجز حديدى يتم تشغيله من الطابق العلوى بواسطة رافعة يدوية . وكثيرا ما كانت البوابة على شكل حرف "L" لى تحول دون الاقتحام المباشر في حالة نجاح الهجوم الذى تتعرض له القلعة ، وتحميها من الداخل شرفة عليا يستطيع المدافعون أن يصبوا منها وابلا من سهامهم على الاعداء المهاجمين .

ان الصدام بين الشرق والغرب في الأرض المقدسة ، والذي حدث على كل المستويات ، قد وضع الصليبيين في مواجهة تحديات أكبر من طاقة خبراتهم العسكرية الأصلية . فعلى الرغم من ان فن الحصار كان معروفا في العصور الوسطى الباكرة ، فان الشرق واجه الصليبيين بمشكلات نادرا ما واجهتهم من قبل في أوروبا . فان حجم القلاع ، وحجم المدن التى تعتمد حوائطها في نطاق يبلغ عدة أميال ، جعل حصارها والالتفاف حولها حتى يموت السكان جوعا (وهو الاجراء العسادى في الغرب) أمرا غير مناسب في حوض البحر المتوسط . بل ان المشكلة التى خلقتها المدن البحرية كانت أكثر حدة ، لان الصليبيين باعتبارهم سكان منطقة برية ، كانوا يفتقرون إلى الأساطيل وإلى الخبرة البحرية . وفي هذه الظروف ، تطور فن الحصار حول الاقتحام ، أكثر منه حول عمليات الحصار العادية واحكام سد المنافذ على المدينة المحاصرة .

حقيقة ان المرء كان يستطيع ان يرشق رؤوس الأسرى على الحراب ويستعرضهم تحت استحكامات المدينة ، كما جرت العادة بذلك فى كل من الشرق والغرب ، بيد أنه على الرغم من أن ذلك كان يخفض من الروح المعنوية للمحاصرين الا أنه لم يكن ينتهى بدمار أسوار القلعة . وبما ان مؤن المدن والقلاع كانت تكفيها ، لا لعدة شهور ، بل لعدة سنوات ، وبما ان الفرصة لتجويعهم عن طريق الحصار كانت ضئيلة ، فقد كان يتعين الاستيلاء عليها عن طريق الاقتحام .

وفى نظام التسليح الهائل المستخدم فى حصار المدن ، يحتل البرج المتحرك مكان الصدارة ، وغالبا ما كان يسمى « برج الناقوس » بسبب شكله وارتفاعه . وهذا البرج يتكون من عدة طوابق وكان أعلى من الاستحكامات المحاصرة ويتكون من سلسلة من المنصات يقف عليها المهاجمون ، حيث يجهز الطابق العلوى بمنجنقيات صغيرة وجسر يمكن خفضه الى مستوى الشرفات التى يقف بها المدافعون ، وكانت صعوبة استخدام مثل هذه الأبراج ، الى جانب ما تتطلبه من نفقات باهظة ، متعددة الجوانب ، فلم يكن هناك نجار من نجارى الضياع الاقطاعية كان يمكنه ان يبنى برجا يتراوح ارتفاعه بين ٤٥ و ٦٠ قدما ، يمكنه حمل عشرات من المحاربين ، ومن ثم كان لابد من الاستعانة بالمهندسين الخبراء ، ومن المحتمل تماما انه فى المرحلة الباكرة من الغزو استفاد الصليبيون من المسيحيين المحليين (يرد ذكر الأرمن فى هذا الخصوص) الذين يعرفون كيف يشيدون آلات الحصار . وثمة صعوبة أخرى تمثلت فى احضار برج الحصار ، الذى كان ينقل على عجلات أو جذوع الأشجار ، وتقريبه من السور بقدر الامكان . وكان هذا يتطلب ملء الخنادق التى كان عرضها يتراوح بين ٤٥ و ٦٠ قدما ، ويبلغ عمقه ستة وثلاثين قدما وتكوين الأحجار والأنقاض والاختشاب للماء اجزاء من الخندق . وقد كان هذا عملا شاقا مرهقا . وكانت القوانين الصليبية فى

المملكة تنص على ان الفارس ليس مضطرا للنزول عن فرسه حتى فى وقت الحصار . ثم كان هناك الخطر الدائم وهو الزمن وقد شهد على ذلك كتاب المدونات التاريخية ، وكان من الممكن للمحاصرين ان ينجحوا فى حرق البرج فى هجمة مفاجئة على قوات الحصار او باستخدام « النار الاغريقية » التى كانت مزيجا كيميائيا من الكبريت والراتنج وغيرهما من المواد القابلة للاشتعال من اختراع البيزنطيين . وكان هذا التركيب الكيميائى يوضع فى انية فخارية ثم يشعل ويقذف او يصلق بالبرج ويكون تأثيره قاتلا ، وغالبا ما كان يستخدم فى المعارك البحرية حيث كان يحرق كلا من الشراع والسفينة ، كما انه اثبت فعالية تامة فى معارك الحصار الأرضية . وفى بعض الاحيان لم تكن الانية بسيطة بالقدر الذى يجعل المرء يسميها قنابل يدوية ، بل كانت براميل متفجرة كانت تقذف بواسطة المنجنوقات . ويجب ان نقرأ ما كتبه جوانفيل عن تجربته فى مصر لكى يقدر الانطباع الذى كان هذا النوع من النابالم الذى عرفه عالم العصور الوسطى يتركه على الغربيين ، فهو يقول :

« كانت النار الاغريقية تبدو مثل برميل كبير من العصير ، وذيله المشتعل فى طول السيف الطويل واثناء طيرانها يصدر عنها صوت كالرعد ، وتبدو ككتين طائر فى الهواء ويصدر عنها ضوء قوى بدرجة تجعلك ترى معسكرنا كما لو كان فى وضع النار » .

وكانت وسيلة حماية البرج الوحيدة ضد هذه النار هى الجلود الرطبة الماخوذة من الحيوانات المذبوحة حديثا او اللباد المبلل بالخل ، وان كان ذلك لا يجدى كثيرا اذا ما طال الحصار .

وحين تعجز أبراج الحصار عن السيطرة على الحصون ، كان المسلمون والصليبيون يستخدمون أجهزة أخرى لاحداث ثقب فى الاسوار . واقدم هذه الأجهزة ، ولا يزال يستخدم بتأثير فعال ، هو

الكبش استخدم لدك الأسوار ، وهو عبارة عن آلة ذات رأس حديدية مدببة وقطعة خشبية تشبه الصاري معلقة بسلاسل وموجهة الى الأسوار ويدفعها عدة رجال . ولا يستطيع المحارب الواقع تحت الحصار حماية نفسه بدرعه لأن ذلك لا يجدى نفعا ، كما انه كان يعوق نشاطه . وفى مرحلة تالية تمت تغطية الكبش بنوع من البناء أو الفطاء الذى كان يراعى أن يكون قويا بحيث يقاوم الحجارة والسهم والقذائف النارية التى يرميها الواقعون تحت الحصار . وكانت هذه الآلة الفعالة فى الحصار تشارك البرج أو « الناقوس » احدى مساوئه الرئيسية ، اذ كان لا يمكن المناورة به عبر الخنادق الكبيرة المحيطة بالحصون ما لم يتم رسم الخندق جزئيا أو كليا .

وكانت هناك طريقة أخرى للحصار ، مأخوذة عن القدماء ، وهى استخدام قطع من القاذفات لقلقلة الأحجار فى الأسوار وفتح ثغرة ينفذ منها الجيش المهاجم . وكان من المعتقد ان هذا الأسلوب يرجع فى أصله الى الفرس أو الأتراك ، على الرغم من أنه كان معروفا لدى الجيوش الرومانية والبيزنطية ، وربما يكون دور الشرقيين قد اقتصر على تحسينه وتطويره . وكان هذا الأسلوب يلعب دورا حاسما فى الحصار ، وكانت المدفعية من نوعين أساسا ، كان احدهما عبارة عن قوس عملاق يتم تشغيله بحبال متينة لطلق المقذوفات والتى غالبا ما كانت قطع ملتبهة من المعادن ؛ وكان الآخر هو المنجنيق الذى يطلق الأحجار أو غيرها من المقذوفات من تركيبية تشبه الملعقة . وأخيرا كان هناك فن حفر الانفاق ، أى استخدام الانفجار فى سلاح المهندسين لحفر الانفاق تحت أسوار المدينة وإذا ما تم الوصول الى نقطة أسفل الأسوار تحرق الدعامات الخشبية وينهار النفق فتنهار معه أجزاء من الأسوار .

وعلى الرغم من أن حصار القلاع والمدن والاستيلاء عليها كان يحدد فى النهاية مصير الملكة لان فقدانها كان يقبضه بسحب الأرض من تحت

أقدام الصليبيين ، فإن المعارك التي كانت تدور على الأرض المفتوحة كانت هي أكثر الأحداث أهمية في الحوليات العسكرية للمملكة اللاتينية . وكانت المشاكل التي تواجهها الجيوش الصليبية مشاكل معقدة للغاية فلم يكن على هذه الجيوش ان تتعامل مع خصم يتفوق عليها من ناحية العدد فحسب ، وإنما كانت تواجه الجيوش الإسلامية التي كانت تنتهج أسلوباً قتالياً مجهولاً تماماً في الغرب المسيحي على الرغم من معرفة جيرانهم البيزنطيين له .

وكانت القوة الأساسية في الجيش الصليبي تتشكل من الخيالة الثقيلة التسليح . وكانت هذه الحقيقة نتيجة لتطور حدث في الغرب انبثق عن النظرية العسكرية السائدة وعن الوسط الاجتماعي الذي تطورت النظرية في رحابه في آن واحد . وكان هذا التطور قائماً على أساس التفرقة بين الصفوة العسكرية وبين صفوف العامة والاقنان . فالخيال الثقيل التسليح ، وهو من الفرسان عادة ، كان دائماً من أبناء الطبقة الأرستقراطية الحاكمة . وسواء كان سيدياً أو تابعاً إقطاعياً ، فإن حياته بأسرها كانت تتركز حول الحرب والقتال . وكان فرسه الذي كان قد تم عزله منذ زمن طويل عن حيوانات الزراعة ، يلقي تدريباً خاصاً على حمولته الثقيلة المكونه من الفارس ومعداته العسكرية . وربما كانت تستخدم خيول إضافية لنقل الفارس الى ميدان المعركة ، بيد أنه كان ملزماً على الدوام بأن يمتطي صهوة جواد حرب في المعركة . وكانت الخيول القوية السريعة تستخدم في المواجهة المباشرة بين الخيالة .

هذه السمات الأساسية لم تكن راسخة تماماً على أية حال . فالفرسان والجيوش الصليبية ، التي كانت على اتصال دائم بكل من الجيوش الأوربية والجيوش الإسلامية ، قد خضعت لعملية من التعديل والتغيير اتضحت في التكتيك وفي التغييرات الخاصة بمجال التسليح . فعلى مدى ما يقرب من مائتي عام ، ظل الغرب يرسل زهرة فرسانه

الى المملكة اللاتينية وكانت هذه الامدادات ذات تأثير فعال فى مواكبة انتسليح الصليبيى للتطورات الأوربية . وكان قرار الاستتازية يفرض على الفرسان القادمين من أوربا احضار خيولهم وأسلحتهم التى كانت تكلف هذا التنظيم مبالغ طائلة . وكان هذا القرار مفيدا فى تلك الفترة . ومن ناحية أخرى استعار الصليبيون من المسلمين بعض أساليبهم ، على الرغم من انه من المحتمل ان يكون هذا أقل مما يتوقعه المرء .

فالتغيرات فى مجال التسليح لدى المسلمين ، اذا كانت قد حدثت أية تطورات على الاطلاق ، كانت على ما نعلم محدودة بالأجزاء الناعمة من لباس الحرب ، مثل الملابس الداخلية وطريقة تفصيل الثياب الخارجية (وعلى الأقل هذا ما حدث فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر تحت حكم المماليك) . وكانت معداتهم العسكرية تعتمد على التقاليد المحلية . ففتح مصر على يد صلاح الدين واستقدام قواته الكردية ، الى جانب القوات التركية من سوريا ، ربما يكون قد ساعد على قدر أكبر من الاتساق فى المؤسسة العسكرية الاسلامية . ومع بروز قوة المماليك ابان حملة لويس التاسع على مصر صار التسليح المغولى هو السائد . وبعد ذلك بحوالى جيل ، حين استولى السلطان بيبرس الملوكى على سوريا وأعلى بلاد ما بين النهرين ، ودفع بالمغول الى داخل المملكة الايرانية توحيد الزى والتسليح العسكرى فى مملكة المماليك بل لقد تحدد شكلها واصبح ثابتا بحكم القانون .

وكانت الخوذة ، والدرع الكامل حول الجسد ودرع الذراع هى أهم القطع الدفاعية لدى كل من المسلمين والمسيحيين ، وفى المعسكر الصليبيى تعرضت هذه القطع الثلاث لتغيرات منذ زمن الحملة الصليبية الأولى . فالدرع الجسدى الذى كان فى الأصل جامدا وغير مريح ، أصبح أكثر خفة ومرونة وأمانا فى نفس الوقت . أما الدرع المسمى Broigne ، (وهو عبارة عن سترة علقت بها حراشف معدنية) فقد كان يلبس فوق

سترة من الجند أو القماش ويصل الى أسفل ركبتى الفارس ، وغالبا ما كان يصل الى كعبيه . وكان مفتوحا فى الجزء السفلى حتى يسمح بالركوب وكان يغطى جزءا من الساقين ، على الرغم من أن الفارس كان يرتدى أحيانا جوارب طويلة من نفس التركيبة لتغطية ساقية . وهذا الشكل من درع الجسد استبدل بما يسمى الهوبيرك *hauberk* وهو عبارة عن سترة من الزرد الذى كان أغلى كثيرا من سابقة اذ استبدلت الحراشف المعدنية بحلقات أو سلاسل متداخلة من الزرد وأصبحت مستقلة عن الملابس الداخلية . وغالبا ما كانت للهوبيرك ياقة واكمام طويلة تنتهى بقفازات .

أما درع الجسد لدى المسلمين فقد كان أكثر خفة ومرونة . ففي زمن الحملة الصليبية الأولى كان المسلمون يرتدون سترة تسمى بالزردية كانت تكمله جوارب وأغطية للساقين ، وعلى الرغم من أن الزردية مثل الدرع الأوربي آنذاك ، غالبا ما كانت تصل الى كعبي المحارب . وسترة الزرد ، التى طرأت عليها التحسينات بفضل فن البرشمة أو التثبيت بمسمار ، ظلت تستخدم حتى مطلع العصر الحديث . ولأنها كانت باهظة التكاليف ، كانت العلاقات تتوارثها جيلا بعد جيل دون أى تغيير يذكر . وكان الدرع الخشبي ودرع الرقائق لدى المسلمين يختلف الى حد ما عنه لدى الأوربيين ، ويبدو انه موروث عن المغول والتتار الآسيويين ، فقد كانت كل قطعة فى هذا الدرع تثبت فى الثياب التى تحقها ، وغالبا ما كانت القطع متطابقة . اما الدرع المكون من عدة طبقات ، والذي غالبا ما كانت تزيينه الصور أو الكلمات المقدسة ، فكان يصلح للاحتفالات أكثر من الاستخدام العملى . وكان الدرع الخشبي يحمى الجسد تماما ، ولكن لابد أنه كان يعوق الحركة مثل البروين *broigne* لا سيما بالنسبة للفارس . أما الرداء الأكثر راحة فكان عبارة عن سترة قصيرة من الزرد تعرف باسم بريجاندين *Brigandine* فى أوربا والقزاغند *Kazaghand*

(القرقل فيما بعد) فى الشرق • وكانت هذه السترة تصنع اما من سلاسل الصلب أو المسامير المعدنية الصغيرة المثبته فى بطانة من اللباد أو غيره ، وأحيانا من الثياب الملونة الغالية •

أما الخوذة لدى الصليبيين فقد طرأت عليها تغييرات كثيرة • اذ كان نمطها الشائع ابان الحملة الصليبية الأولى عبارة عن خوذة حديدية مخروطية الشكل بزوائد جلدية لى تغطى الرقبة ، وغالبا ما كانت لها قطعة امامية لحماية الوجه • وبينما أصبح درع الجسد أكثر قوة ولكن أكثر ليئا ، تطورت الخوذة فى اتجاهين مختلفين : فمن ناحية اتخذت شكل غطاء رأس صغير من الحديد بحافة سميت باسم Chapeau de fer ؛ ومن ناحية أخرى أصبحت خوذة ضخمة لها قمة كبيرة مسطحة أو دائرية وثقيلة للغاية وتغطى الاذنين والرقبة وتستقر على الكتفين • واستبدلت قطعة الانف بقناع به فتحات للتنفس • وكان غطاء الرأس الحديدى ، مثل الخوذة ، يلبس فوق قلنسوة من الزرد تتصل بالهوبيرك •

أما الخوذة الاسلامية فلم تتغير كثيرا خلال فترة الحروب الصليبية • وكان شكلها الأساسى يشبه البيضة المستطيلة ومن ثم اطلق عليها اسم « البيضة » • وكانت هذه الخوذة علامة على المكانة العالية عند المسلمين وغالبا ما كانت تزين وترصع بكتابات من القرآن • وكان لبعض هذه الخوذات قطع للانف واغطية للرقبة على هيئة الجمل ، ولكنهم لم يبتكروا قناعا للوجه مثل القناع الأوربي • وفى بعض الاحوال كانت سلاسل الزرد تستخدم لتغطية الوجه ولكن هذا كان يمثل استثناء الى حد ما ويبدو ان الريش أو الاعراف كانت اضافة متأخرة •

وقد خضع الدرع اليدوى الصليبي لأكثر التغييرات عمقا وجذرية •
(م ١٤ - عالم الصليبيين)

فخلال الحملة الأولى ، كان عبارة عن قطعة كبيرة صلبة من الخشب المغطى بالجلد أو الخشب بالروابط الحديدية التى تنبتق كالأشعة من نقطة مركزية . وكان على شكل الحدأة ، مستدير عند أعلاه ويغطى المحارب من رقبته حتى قدميه . ولا شك ان الدرع كان أكثر عملية فى القتال على الأقدام منه على ظهور الخيل ، حيث كان يعلق فى الاكتاف بحزام جلدى وقد كان ذلك مريكا للمحارب ولكنه مفيد طالما ان الدرع الجسدى كان غير كاف . وفى حالة احكام الدرع الجسدى ، أصبح الدرع الطويل لا جدوى منه واستبدل بدرع دائرى أو مثلث صغير الحجم يغطى صدر و بطن الفارس . أما الدرع الاسلامى فكان يختلف منذ البداية . فحينما كان مقاتلو الحملة الصليبية الأولى ما يزالون يحملون دروعهم الكبيرة ، كانت الخيالية الاسلامية تستخدم درعا خفيفا مستدير الشكل يسمى الترس . وكان من المعتاد ان يشبك بحزام أفقى من الداخل وكان من السهل استخدامه . وكانت هذه الدروع تختلف تمام الاختلاف عن دروع الصليبيين بحيث صارت من ملامح التصور الغربى التقليدى للمقاتلين المسلمين .

والأدوات الثلاث الرئيسية للدفاع عن الجسد – الخوذة والدرع والترس – اضيف اليها مع الوقت سترة خارجية وهى عبارة عن قميص ابيض بلا اكمام يلبس فوق الدرع الجسدى . وفى وقت ما قرب نهاية القرن الثانى عشر ، صارت السترة والدرع وغطاء الرأس ، فى أغلب الاحوال ، تحمل العلامات المميزة للفارس . وكان هذا ميلادا لفن الدروع وعلاماتها لدى كل من المسلمين والصليبيين . وهو الفن الذى استمر فى الوجود بشكل أو بآخر حتى وقتنا هذا . فالرسوم الهندسية ، والزهور ، والوحوش وما شابه ذلك توضع على السترة ، والدرع والبيارق . ومصطلحات « شعار النبالة » و « درع النبالة » مستمدة من السترة الخارجية والدرع اللذين كانت ترسم عليهما العلامات المميزة للسلاح .

ويبدو أن شعار النبالة كان يستخدم فى الأصل لتسهيل التعرف على الفارس المدرع ولكنه تطور الى شعار عسكري للعائلة النبيلة . وقد أصبح فن الدروع العسكرية فنا تعليميا وكانت الشعارات العسكرية اعلان عن الأصل وتذكرة دخول فى طبقة النبلاء . ولم يقتصر هذا الفن على اوربا على اية حال ، فقد ظهر بين المسلمين فى القرن الثانى عشر وصار شائعا تماما بين افراد الارستقراطية المملوكية الحاكمة . وغالبا ما كان يرتبط بالوظائف التى يقومون بأدائها فى القرن الثالث عشر . وفى ذلك الوقت ، اضاف فن رسم الشعارات النبيلة الألوان والتصميمات الى جيوش الغرب والشرق ، وأصبح المظهر العسكري نموذجا مألوفا يتضح فى البيارق التى كانت ترفرف على الحراب ، والسترة الخارجية وعلى كسوة الحصان .

وكانت الأسلحة الهجومية لدى كل من المسلمين والصليبيين متماثلة . باستثناء القوس الذى كان يستخدمه الفرسان المسلمون . وكان الرمح أكثر شيوعا لدى المحاربين المسلمين ، وكان يستخدم كسلاح للطعن وان كان يستخدم فى القذف كذلك . وقد استخدم المسلمون ، وربما الصليبيون كذلك ، رمحا طويلا مركبا فى بعض الاحيان . أما السيف ذو الحدين والمقبض المستدير أو المفرطح ، فكان يوضع فى جراب جلدى يعلق فى الرقبة والكتف . ولكنه صار يعلق فى الوسط فى مرحلة لاحقه . وكان السيف التقليدى مستقيما ، ولكن بعض أسلحة المسلمين كانت مقوسة . أما السيف الاحدب ذو الحد الواحد ، الذى صار فيما بعد سلاحا شرقيا نمطيا فلم يظهر الا بعد الحروب الصليبية . وكان الجراب الخشبي الذى استخدمه المسلمون يغطى بالجلد أو القماش الفاخر ، على حين كان السيف ذاته يزين ويحلى بالمجوهرات . ومن الغريب تماما ، على الرغم من شهرة السيوف الدمشقية ، أن السيوف الاسلامية الممتازة كانت مجلوبة أصلا من الهند أو الصين . وكان تعبير « دمشقى » ينطبق فى

الواقسح على الزخرفة وتزيين السيف بالجواهر ، وهو ما كان يتم فى سوريا وليس التصل المعدنى نفسه (الحديد والصلب أو السيف الحديدى المحفور بالصلب) .

أما الدبوس ، فكان يصنع من الحديد أو الصلب ، ويستخدمه المقاتل المسلم والمقاتل الصليبي على حد سواء . وهو عبارة عن قطعة سلاح كروية الشكل بها نتوءات وتجاويف ، وكانت تستخدم لسحق الخوذات أو كسر العظام . أما البلطة المسماة بالبلطة الدنماركية ، وهى بلطة ذات حدين فقد كان يستخدمها الصليبيون ، ولم يعرفها المسلمون الذين كانوا يفضلون استخدام « الطبر » وهو عبارة عن بلطة ذات حد واحد وعلى شكل نصف دائرة . وكان للقوس والقوس المنجنيقى مكانة فى ترسانة الأسلحة الإسلامية واشتهرت دمشق بصناعة الأقواس الجيدة وقد ذهب إليها حنا الأرمنى الذى كان مدير المراسم للملك لويس التاسع لكى يشتري الغراء والقرون من أجل صناعة الأقواس المنجنيقية .

ولم يكن التغيير الذى طرأ على التكتيك العسكرى لدى الصليبيين أو حتى التعديلات اللازمة لمواجهة الجيوش الشرقية ، نتيجة للصدام مع القوة العسكرية المصرية - التى كانت أقوى خصم فى الشرق - وإنما كان نتيجة للصدام مع الجيوش السورية وجيوش ما بين النهرين . إذ لم يكن المصريون أبدا أمة عسكرية . ومنذ القرن الثانى عشر حتى الغزو التركى العثمانى لمصر ، كان كل أوربى يزور مصر يخرج بانطباع عن طبيعتها المسالمة . وقبل الفاطميين بوقت طويل ، كان حكام مصر يجندون قواتهم المحاربة الرئيسية من بين القبائل البدوية فى المقاطعات الشرقية وشبه جزيرة سيناء . وكانت بعض القبائل مثل بنى كنانة لهم شهرة ذائعة لمهاراتهم القتالية وشجاعتهم ، واستخدمهم الحكام المصريون للدفاع عن حدود مصر الشرقية . ومن الغريب أن الصليبيين الذين اعتادوا على قتال البدو ؛ بل ونجحوا فى تحويل بعضهم الى حلفاء (حول عسقلان وغزة

على حدود صحراء سيناء وفيما وراء نهر الأردن عند مدخل شبه جزيرة العرب) ، كانت فكرتهم قليلة عن صفاتهم العسكرية والأخلاقية . فقد كان البدو يعتبرون أدلاء ممتازين وقوات مساعدة ، ولكن حين يشتغل القتال فانهم لم يكونوا يصمدون امام الأسلحة الغريبة . وكان الصليبيون يعتقدون انهم جبناء لا يعتمد عليهم ينضمون الى الجانب الرابع فى اللحظات الأخيرة لكي يساهموا فى القتل وينالوا نصيبهم فى نصر لا يستحقونه . وبالإضافة الى قواتهم المحلية ، كان حكام مصر يعتمدون على القوات المرتزقة الى حد كبير ، أو على الجماعات العسكرية من العبيد الصغار الذين اعتنقوا الاسلام وتدريبوا منذ الشباب على المهارات العسكرية ، وكان أولئك هم أسلاف المماليك ، الذين استولوا فى النهاية على المملكة المصرية من ايدى خلفاء صلاح الدين الضعاف (١٢٥٠ م) ، كما انهم ايضا كانوا أسلاف جيوش الانكشارية القوية . وكانت مثل هذه الفرق تجلب من داخل افريقيا ويجلب الرقيق الأبيض من مناطق البحر الأسود . وكان الأفريقيون يعرفون باسم العبيد ، وغالبيتهم من أصل سودانى (السودان اسم مشتق من الكلمة العربية سواد) ، على حين كان يطلق على العبيد البيض اسم المماليك .

وقد واجه الصليبيون القوات المصرية برماة السهام الرجالة والفرسان من حملة السلاح الخفيف . ولم يكن أى من هذين النمطين من الجنود جديدا على الصليبيين ، على الرغم من أنه عند نهاية القرن الحادى عشر كان رماة السهام الرجالة قد فقدوا أهميتهم فى فن القتال الغربى . وكانت الغيالة الخفيفة عند المصريين أكثر حركة منها لدى الصليبيين ولكن عند القتال المتلاحم قلما كسب المصريون معركة ، ما لم يكن عددهم ساحقا فى كثرته ، أو يقوموا بهجمة ناجحة أو يحتلون موقعا يجعل لهم ميزة واضحة . وعادة ما كانت القوة المركزية فى جيش الخليفة أو وزيره (نادرا ما كان الخلفاء الفاطميون يتركون قصورهم وحريمهم)

تتكون من قوات ذات أصول مملوكية . وكانت هذه القوات تتفوق في مهاراتها القتالية وعادة ما كانت تدعى بالولاء لقائدها . وغالبا ما كانت المعركة تحسم بهذه القوات المختارة ، اذ ان فرارها او نجاحها كان يؤثر بشكل مباشر على بقية فيالق الجيش المصرى .

وكان الموقف مختلفا تماما وعلى النقيض من ذلك بالنسبة لجيوش ما بين النهرين وسوريا وفارس ، التى كانت تشترك احيانا في القتال ضد الصليبيين . فبالاضافة الى القبائل العربية التى كانت تقطن ربوع بلاد ما بين النهرين وسوريا وحاميات المدن المحلية ، كان العسكر ، وهم القوة الاساسية لهذه الجيوش ، من الاثراك السلاجقة . وعلى الرغم ان اكثر من مائة سنة كانت قد مضت على تركهم لوطنهم فى وسط اسيا بحثا عن حياة افضل فى الشرق الأدنى فان هؤلاء البدو لم ينسوا ابدا اساليبهم التقليدية فى القتال ، وكان العنصر الرئيسى فى هذا الاسلوب القتالى *à la turque* هو رامى السهام الراكب ، وهو نمط من القتال قديم ، بل وورد وصفه فى الكتاب المقدس : « هكذا قال الرب . هو ذا شعب قادم من ارض الشمال وامة عظيمة تقوم من اقاصى الارض . تمسك القوس والرمح . هى قاسية لا ترحم . صوتها كالبحر يعج . وعلى خيل تركب مصطفة لمحاربتك ، (ارميا ٦ : ٢٢ - ٢٣) . وكان الاثراك بتجهيزاتهم الخفيفة وخيولهم السريعة القوية يمثلون التحدى الحقيقى امام الجيوش الصليبية ، فلم يكونوا اكثر حركة من خيالة الغرب الثقيلة فحسب ، ولكن مفهومهم عن الحرب والقتال كان مختلفا .

وكانت قوة الجيوش الصليبية تكمن فى خيالتهم الثقيلة ، التى كانت مهمتها القضاء على أى شىء فى طريقها . وكانت صدمة قوتها والتاثير الذى يتركه الفرسان المدرعون بالحديد لا يمكن مقاومتها . وغالبا ما كانت نتيجة المعركة تتحدد خلال المواجهة الاولى ، ما لم يستطع الخصم ان يدفع بتميزات جديدة او تقوم اجنحة جيشه بالاطباق على

الجيش المهاجم ومهاجمته • ولكن الخصم التركي كان يفتقر الى التعاون ونادرا ما اتفق على معركة خاطفة وكون جبهة مغلقة لكي يدمرها الصليبيون • ولم يكن الأتراك خفيفي الحركة فحسب ، ولكنهم احضروا معهم من بدارى منغوليا القوس القاتل • ولم يكن الأتراك يلتحمون في قتال مباشر ولكنهم يطلقون وابلا من السهام من مسافة تقرب من ثمانين مترا حيث لا تستطيع اسلحة الصليبيين الوصول اليهم • ولم تكن السهام لتخطيء تلك الجمهرة الكبيرة من الفرسان المتجمعين سويًا • وكان الصليبيون في وضع ثابت كالبط الرائد ، وكانت محاولة الهجوم على جيش اسلامي اشبه ما تكون بمطاردة الريح ، ذلك ان هذا الجيش كان يختفي ببساطة وراء خط الأفق • ولم يكن الموقف افضل اذا ما تحرك الجيش الصليبي • فبين الآونة والأخرى ، كان الخيالة المسلمون يظهرون وكأنما انشقت عنهم الأرض ويدورون حول الجيش الصليبي المتحرك ويطلقون عليه سهامهم ثم يختفون ليظهروا مرة أخرى بعد وقت قصير وقد امتلأت جعابهم بالسهام من جديد •

وفي هذه الظروف كانت سلامة الفارس الصليبي تعتمد على درعه وخوذته وترسه • فلم تكن السهام لتخترق خوذته أو ترسه بسهولة • كما لم تكن تنفذ خلال درعه المكون من السلاسل ببساطة ما لم تضرب في نقطة ضعيفة مثل الرقبة أو الوجه • بيد أن التغييرات التي أدخلت على الدرع الجسدي وعلى الخوذة سرعان ما جعلت هذه الأهداف صعبة الى حد ما • الا ان هذا لم يمنع المسلمين من قذف الخيول من أسفل الفرسان • فالفرس المترجل لا يكون فارسا على الإطلاق • اذ لا يكون كبرياؤه قد جرح فحسب ، ولكن فعاليته القتالية أيضا تتضاءل الى لا شيء •

وسرعان ما استجاب الصليبيون للتحدي الاسلامي بانتهاج أسلوب الأتراك في القتال بشكل جزئي • ولم يكن هذا بالأمر السهل ، فالصليبيون

الذين لم يتميزوا بالمرونة فى اساليبهم عولوا على الموهبة المحلية وكونوا
فرقا من السكان المحليين اطلقوا عليهم اسم التركوبلى Turcoples
(اى ابناء الأتراك) الذين كانوا يقلدون الأتراك السلاجقة فى تسليحهم
واسلوب القتال عندهم . فالخيول السريعة والأسلحة الخفيفة وجعبة
السهم والقوس كانت أهم ما يميزهم . وربما كان المقاتلون الأصليون
فعلا من الأتراك أو المولدين من الأتراك والبيزنطيين ، ولكنهم فى نهاية
الأمر صاروا يجندون من المحليين كالأرمن والبدو ، وربما جندوا فيما بعد
من السكان الصليبيين اى البولان . ولم تكن هذه القوات تحارب فى المعارك
الصليبية الحقيقية ، ولكنها كانت تلقى تقديرا أكثر كوحدات اضافية
احتياطية مساعدة ، على الرغم من أن مهمتها الرئيسية كانت دفع الهجمات
المفاجئة التى يشنها الأتراك السلاجقة ومنعهم من الافادة بميزة القوس
والسهم . كذلك كانت لفرق الرهبة العسكرية فيالقها الخاصة من
التركوبلى وكان هناك ضابط خاص مسؤول عن تجنيدهم وقيادتهم .

والى جانب النجاح الذى يمكن ان يكون قد حققه استخدام فيالق
التركوبلى فان الصليبيين استجابوا للتحدى التركى عن طريق ابتكار
طريقة جديدة للقتال تقوم على رد الاعتبار لرامى السهم العادى . وقبل
مائتى سنة من حسم اقواس الويلزيين الطويلة المعارك لصالحهم فى
مواجهة الفرسان الفرنسيين ، كان الصليبيون قد جعلوا من رماة السهم
الراجلين جزءا أساسيا فى جيوشهم . وبينما كان القوس والسهم فى
أوروبا القرن الثانى عشر يرتبطان بالصيد أو يتركان لاستخدام العمامة
كطريقة قتال مستهجنة الى حد ما ، انشأ الصليبيون فيالق من رماة
السهم لجيوشهم . وقد صار الرماة هم طليعة الجيوش فى المواجهة
بتجهيزاتهم الخفيفة التى تشتمل على غطاء الرأس الخشبى أو الجلدى ،
وصديرى ، ودرع خشبى والقوس ، والسهم . وكان المشاة الذين يحيطون
بفيالق الفرسان من الامام والجانبين والخلف مسؤولين عن ابقاء العدو

على مسافة معقولة ومنع الرماة الراكبين السـلاجقة من استخدام اسلحتهم على نحو فعال . وفى المعارك الكبيرة كانوا يقومون بدور الحائط الواقعى الذى يتجمع الفرسان داخله حتى يحين الوقت المناسب ويصبح الوضع مناسباً للقتال . وإذا ما أطلقوا سهامهم ، أفسحوا الطريق أمام الفرسان الثقيلة التسليح من الصليبيين لى يتحركوا ضد العدو . وكان الرماة يجندون من بين سكان المدن والمؤسسات الكنسية أى من الفرنجة دون مستوى النبلاء . وعادة ما كانت المدن والمؤسسات الكنسية تضطلع بواجب تجهيز فيالق الرماة للجيش وكان أولئك هم الجنود المشاة الذين كان بعضهم يقوم بالقتال أيضا ضمن الخيالة الخفيفة .

وكان استخدام الرماة المشاة ، سواء أثناء السير أو فى خصم المعركة ، يعتمد على وجود نظام محكم بين مختلف التشكيلات . وكانت هذه مشكلة صعبة تجابه كل الجيوش فى العصور الوسطى والتي كانت تتألف من النبلاء الذين يصعب قيادتهم . فالشباب الذين تستحوذ عليهم الرغبة فى أثبات وجودهم والصعود الى المجد أمام أقرانهم لم يكن من السهل أبدا السيطرة عليهم . بل ان المشكلة كانت أكثر صعوبة فى الجيوش الصليبية ، لأن معدل السير ولحظة الهجوم كانت مرهونة الى حد كبير بالرماة وحاملى الحراب بخطواتهم الوثيدة . وكان هذا يعوق حركة الفرسان ، وفى مواجهة العدو لم يكن من السهل كبح جماح حماسة المقاتلين العسكرية ، لا سيما أولئك الذين تجشموا عناء الطريق الطويل من أوروبا لمحاربة الكفار . ومع ذلك فقد كان هناك نظام يحتم عدم اختراق صفوف النبالة وعليه كانت تتوقف سلامة الجيش بأسره .

وسرعان ما اكتشف العدو نقطة الضعف فى التشكيلات الصليبية ، وبقدر الامكان ، كان المسلمون يتحاشون أية مواجهة مباشرة مع الصليبيين ، لأن ذلك كان يعنى ان تكتسبهم الخيالة المدرعة الثقيلة . وكان هذا يعنى تجنب المعارك فى السهول المفتوحة ، والتي كانت تسمح

باستخدام الخيالة المدرعة بشكل فعال ، وكان المسلمون يفضلون الأرض
التلية والجبلية أو الاغوار لما توفره لهم من ميزات . ومن ناحية أخرى
كانوا يناورون لضرب الأجنحة وفصل النبال المشاة من فرسان الصليبيين .
وإذا ما تم الفصل بينهما كان الفارس الصليبي يتجرد من حماية الرماة
وبذلك يصبح هدفا لسهام الخيالة الأتراك . وقد وعى المسلمون هذا
الدرس تماما وكانت هذه المناورة هي السبب الرئيسى فى هزيمة الجيوش
الصليبية فى معركة حطين الفاصلة .

مغامرة التجارة والعالم المتنامي

« اذا كان هناك من يقصد الرسو في مدينة عكا السالفة الذكر ، دعه يبحر على مسافة ثلاثة أميال من كنيسة سان أندرو بسبب الصخور القريبة من سطح الماء والتي عند مرتفع تلك الكنيسة . ثم ليبحر بعد ذلك مباشرة حتى يرى ما وراء « برج الذباب » الذي كان يوما مقرا لرئيس الشرطة . ثم يستطيع بعد ذلك ان يذلف الى الميناء . وحين يدخل الميناء المذكور فليبحر من هناك بطريقة تجعل قلعة حيفا او بورفوريا Porphyria تبقى في منتصف مؤخر السفينة وتجعل « برج الذباب » في منتصف مقدم السفينة طوال الوقت واذا ما حافظ على هذه الاتجاهات يمكنه ان يبحر في سلام داخل الميناء . »

كانت هذه هي التعليمات التي تضمنها دليل ملاحي يرجع الى القرن الثالث عشر لارشاد السفن التي تقترب من شاطئ البحر المتوسط الشرقي . وفي اللحظة التي تظهر فيها إحدى السفن على خط الأفق في نهاية رحلتها ، التي كانت تستغرق ثلاثة أسابيع من ايطاليا حتى هذا المكان ، يرسل حراس البرج او حراس القلعة اشارات الى رؤسائهم ، وتبدأ أجراس الكنائس في الدق ، ويشق ممثلو مواطني السفينة وجمع غفير من سكان المدينة طريقهم الى منطقة الميناء . وكانت الألوان الحية التي كان قباطنة السفن في العصور الوسطى يفضلون طلاء سفنهم بها ، تتوج بصاريات تخفق عليها أعلام القديس مرقس ، أو القديس بطرس أو القديس لورانس ؛ وهم القديسون الرعاة الروحانيون للبحرية الإيطالية ، وذلك الى جانب البيارق التي تحمل الصليب الأحمر الذي كان يعلن عن

عقيدة الصليبيين وعن الامتيازات التجارية فى نفس الوقت • وكان يوم وصول السفينة أو الأسطول البحرى ، وهو ما كان يحدث عادة ، يوم عيد بالنسبة لأصحاب الحانات والفنادق والتجار وكل من عداهم فى المدينة • فالحجاج والأقارب ، ورجال الأعمال الذين يحملون الانباء من الوطن سرعان ما كانوا يتركون السفينة الى ميناء المدينة الداخلى • ولا تلبث الصفقات التجارية ان تعقد وتتحدد مواعيد المقابلات ، وتتداول الأيدى صكوك التبادل ، وصكوك القروض – جميع لوازم التجارة – وتسرى الحركة فى الشرايين التجارية فى المدينة • وغالبا ما كان فى وسع المرء ان يرى عددا قد يصل الى مائة سفينة فى موانئ صور وعكا وفى ميناء يافا الصخرى الخطر • وكانت السفن الأكبر حجما تستطيع ان تحصل الفا من التجار والحجاج ، فضلا عن حوالى خمسمائة طن من البضائع • وكانت البضائع التجارية تفرغ على السلالم الخشبية أو الواح الخشب المحمولة على ظهور الحمالين ، الذين كانوا فى الغالب من الأوربي – أسبويين الذين كانوا يعرفون باسم بولان الميناء Poulain of the Port، لى توضع على الأرصفة المزدهمة فى منطقة الميناء الضيقة جدا • وكانت هذه المنطقة تتميز برائحة كريهة نفاذة تقوح فى أرجائها ، لان الساحل كان المكان الطبيعى لتصريف فضلات وبقايا المدينة والمذابح والدباغين والصباغين الذين كانوا يسكنون المنطقة • وإذا ما تم تفريغ بضائعهم ، كان التجار يؤدون عليها الرسوم المعتادة فى شرق البحر المتوسط بعد مساومات مع سلطات الجمارك • ولم يكن هناك شىء يتفوق فى التعقيد والفوضى عن الرسوم الجمركية فى العصور الوسطى ، لا سيما فى الموانئ الصليبية • فلم تكن الرسوم تختلف فقط حسب نوع البضاعة ، وانما كانت هناك رسوم مختلفة وفقا لاماكن جلب البضائع وجنسية سفينة التاجر • فقد كان على نفس البضائع المنقولة على السفينة نفسها ان تخضع لرسوم جمركية تتراوح ما بين ٢٪ الى ١٥٪ حسب جنسية السفينة وجنسية مالكها •

وحيثما توجد الرسوم الجمركية ، توجد محاولات التهريب ،
والشهادات الزائفة بقيمة البضاعة ، فضلا عن الشهادات المزيفة الخاصة
بالهوية والجنسية التى يتبعها التاجر ، وغالبا ما كان تمييز هذه الأمور
متروكا للتخمين الذكى : وغالبا ما كانت رشوة موظفى الميناء تدفع من أجل
الحصول على اعفاء من الضرائب . فقد كان أهم التزامات المسؤولين عن
الكوميونات ان يضمنوا أن مواطنيهم المحترمين – البنادقة والجنوية
واهل بيزا وغيرهم – سيتمتعون بامتيازات الاعفاء . ومع ذلك ، فإن
التجار الوافدين من تسكانيا غالبا ما كانوا يعلنون انهم من بيزا أو كتلان
أو من مواطنى برشسلونة لكى يستفيدوا من اعفاءات الكوميون الذى
يدعون الانتفاء اليه . وعلى الرغم من صرامة الاجراءات ، الا انها كانت
صعبة التنفيذ .

واذا ما انتهت المساومة على الرسوم الجمركية ، يشق التاجر
ببضاعته طريقة الى الفنادق ، التى كانت تقابل الخانات ، لدى الصليبيين
والوكالات الشرقية ، فى المدينة . وكانت هذه الفنادق تبنى بالقرب من
الميناء على قدر الامكان . وكما يحدث فى أى مكان آخر ، كانت منطقة
الميناء هى « الحى الأحمر » فى المدينة ، على الرغم من ان محترفات
الدعارة كن يتواجدن حتى فى الفنادق ذات الحراسة الجيدة للكوميونات،
بل وحتى فى المنازل التى كان يؤجرها رجال الدين (بسبب الايجار الباهظ)
على الرغم من التائب والتوبيخ الذى كان يوجهه اليهم بابا روما . وكان
السوق المريع أو الشارع الطويل الضيق ، الذى تقوم على جانبيه البيوت
المتعددة الطوابق ، وبه المحلات والحوانيت فى الطابق الأرضى ،
والمساكن فى الأدوار العليا ، بمثابة قلب مؤسسة الكوميون . وكانت
الكوميونات بمثابة مدن داخل المدن . فقد كان لها كنائسها الخاصة ،
ومخابزها وحماماتها . كما وجدت الاصطبلات للخيل والبغال والجمال
واماكن السقاية (الاسيلة ، جمع سبيل) لشرب الانسان والحيوان .

وكان أكبر مبنى ، يتألف من ثلاثة أدورا أو أربعة ، هو القصر Palazzo ومحل إقامة الفسكونت أو قنصل الكوميون . وكان هذا المبنى أيضا مقر المجلس الاستشارى حيث تقام العدالة وفقا لقوانين البندقية او جنوة ، أو بيزا أو أمالفي أو مارسيليا أو برشلونة . وكان علم الكوميون يرفع فوق القصر ليعلن استقلاله السياسى والقضائى . وكانت بعض القصور مجهزة بدهاليز مظلمة يحبس فيها المساجين أو يعدمون فى بعض الأحيان .

وعلى الرغم من أن بعض الاحياء التجارية كانت لها أسواق الطعام الخاصة بها ، فإن المركز التجارى الكبير ، أو مكان السوق كان يخضع لسيد المدينة . وفى مدينة كبيرة كمدينة بيت المقدس ، كانت هناك أسواق متخصصة فى بضائع بعينها . وكانت الرسوم الجمركية تدفع على الطعام الوارد الى المدينة عند بواباتها ، فى برج داود ، ولكن ثمة رسوم اضافية كان يدفعها البائع والمشتري وهما يتفاوضان بشأن صفقتهم . فالمقاييس والأوزان والمكاييل السائلة والجافة كانت تتقرر مقابل رسم معين من قبل موظفى السوق الذين كانوا يخضعون لاشراف المحتسب . أما سوق الغلال التى كان الانسان ودوابه وربما ماشيته يتعيشون منها ، فكانت مكانا فسيحا حيث القمح والشعير والشوفان وغيرها مما يقدمه الفلاحون المسلمون والمسيحيون الشرقيون . وفى بيت المقدس كان سوق الغلال بالقرب من بوابة يافا بجوار سوق لحم الخنزير ، على حين كانت الماشية واللحوم تباع بالقرب من منطقة الهيكل . ومن المؤكد تماما ان الجزارين والدباغين قد استقروا فى هذا المكان لكى يكونوا بالقرب من مصادر والدباغين قد استقروا فى هذا المكان لكى يكونوا بالقرب من مصادر امدادهم ، وليكونوا فى نفس الوقت قرب المصرف الطبيعى للمدينة وهو وادى يوشافاط ، حيث كانوا يصبون فيه المياه القذرة ، والسوائل المستخدمة فى تجارتهم .

وقد كانت كل مدينة تفخر بأسواقها . وكانت أسواق القدس وعكا

وصور عبارة عن ابنية عالية ذات قباب حيث كانت تقسم بمختلف البضائع على منطقة الحوانيت . وكان التاجر والصانع يعرض بضاعته فى الأبواب المفتوحة على الشارع حيث حشود المشترين رائحة غادية . وكانت الأسقف ذات القباب ، أو المظلات القماشية فوق الشارع تحمى رواد السوق من الشمس والمطر ولكنها تضيف على السوق جوا معتما . وحوار المساومة والنقاش فى كل لغة تحت الشمس وروائح التوابل المتضوعة كانت تختلط بالروائح الكريهة النفاذة التى تفوح من المطاعم المفتوحة . وكانت هذه من سمات المدن الصليبية . وكانت هذه المطاعم المقامة فى الشوارع ، على الرغم من أصلها الشرقى ، قد برهنت على كونها ذات فائدة عملية للغاية فى أماكن يفد إليها الحجاج باستمرار ، أى أنها كانت تفى بحاجات بلد كانت نسبة كبيرة من سكانه (فى البداية على الأقل) تتألف من العزاب غير المتزوجين .

وكان فى جميع المدن الكبرى تقريبا يوجد شارع أو منطقة مخصصة للصرافين بالقرب من الأسواق . وكانت الصيرفة مهنة ترتبط بالمدن . للصرافين بالقرب من الأسواق . وكانت الصيرفة مهنة ترتبط بالمدن . إلا أنها فى الأرض المقدسة كانت ضرورة يومية بسبب سيل الصليبيين والحجاج والتجار الوافدين من شتى أنحاء أوربا . وفى المصرف بطاولاته التى اتخذت شكل الصف كان يتم تبادل العملات الأوربية بالعملة المحلية والتعامل بمختلف النقود وأصنافها التى لا تحصى والتى سكت فى مئات دور سك النقود الأوربية ، وكان يتم تقدير قيمتها الأساسية كمعدن ، ثم تحويلها الى عملة محلية . وكان على المرء أن يتذكر أن العملة الأوربية - الفرنسية على سبيل المثال - كانت تخضع دائما للتخفيض من قبل الحكومة (هذا هو المرادف الوسيط لعملية تخفيض سعر العملة) أو التزييف من قبل التجار المحليين . وغنى عن القول أن كثيرا من الحجاج كانوا يشعرون بأنهم قد خدعوا فى عملية الاستبدال .

وبالإضافة الى ذلك ، فان الصيارفة كان عليهم ان يتعاملوا بالعملات الموجودة فى الشرق الأدنى الى جانب عملات أوريا . وكانت العملة الرئيسية فى البلاد قبل الغزو الصليبي هى العملة المصرية اى الدينار الذهبى والدرهم الفضى الفاطميين . وكانت هذه العملات تختلط ، لا سيما فى المدن البحرية ، بعملات سوريا ، وبلاد ما بين النهرين ، بل وعملات فارس . وكانت كميات من مثل هذه العملات ، ان لم تكن مدخرة ، ترد الى دور السك الخاصة بالنقود الفرنجية من خلال الضرائب ، بيد انها ظلت متداولة بعد الغزو . وقد حاولت دور سك النقود الفرنجية ان تقلد ، بطريقة ساذجة وفجة ، العملة الاسلامية ايضا . وبالتالى ، فان تبادل العملات الاسلامية والفرنجية كان يحدث يوميا حتى فى الاعمال العادية . ومن ناحية أخرى ، لم تكن العلاقات التجارية مع البلاد الاسلامية المجاورة مقطوعة انقطاعا كليا ، حتى فى اوقات الحرب والحصار . وكانت هذه العلاقات تنتعش وتزدهر ابان اوقات السلم . هذا الموقف ، مثل التجارة البحرية مع شمال افريقيا ، جعل العملات الاسلامية محلا للتداول . وقد نضيف اليها العملة المجلوبة مع الحجاج من المسيحيين الشرقيين ومع المسلمين واليهود . وهكذا فان الصيرفى الصليبي كان بمثابة الوسيط بين العملات الأوربية وغير الأوربية . ولكي يعالج الصيارفة مشاكلهم على نحو فعال ، فانهم كانوا يميلون الى التخصص . ففي بيت المقدس مثلا ، كان الصيارفة الفرنجة يحتلون شارعا ، على حين كان نظراؤهم فى الجانب الآخر هم الصيارفة السوريون وهم من المسيحيين الشرقيين الذين يحتمل انهم تخصصوا فى العملات الشرقية .

ومع مرور الوقت ، ضرب الصليبيون عملاتهم الذهبية والفضية والنحاسية . وكانت العملة الذهبية الصليبية تسمى denarius وهو ما يذكرنا بان اول العملات الذهبية التى عرفها الأوربيون كانت بيزنطية ، حيث ان العملات الذهبية التى كانت متداولة فى مستعمراتهم

كانت عملات الدول الإسلامية المجاورة . وسرعان ما أخذ الصليبيون بعدها يقلدون الدينار والدرهم المسلمين . وبمرور الزمن تحسن التقليد السائد الذي عرفته العملات الباكورة ، بيد أن خاصية العملات الصليبية ظلت دون مستوى العملات البيزنطية والإسلامية من حيث الوزن والسبيكة خصوصاً . وليس من المؤكد ما إذا كان طراز العملة الصليبية يخفى عن أى تاجر محترف قيمتها الحقيقية ، ولكنها مع ذلك كانت تقبل في التجارة العالمية في حوض البحر المتوسط . وعلاوة على ذلك ، فإن العملات الصليبية في سوريا صارت هي العملة المعول عليها في معاملات سكان البلاد . وفي الوقت نفسه ، كان الصليبيون يسكنون عملاتهم الخاصة من الفضة والنحاس على نمط العملة الفرنسية المعاصرة لها . فالى جانب اسم الملك الحاكم الذي كان يكتب على الاطوار ، والصليب المنقوش في الوسط ، كانت مثل هذه العملات تحمل على الوجه الآخر صورة برج داوود أو صورة الملك الحاكم . وكانت أغرب العملات الصليبية طرافة هي تلك التي سككت بعد منتصف القرن الثالث عشر وعليها كتابة عربية بمجد الثالوث المقدس ! لقد كان ذلك حلاً عملياً يسمح لدار سك النقود المسيحية ان تعلن عن عقيدتها دون حنث أو عبث بالمقدسات ، وان تستفيد في الوقت ذاته من السوق العالمي .

وإذا كانت الأسواق المحلية تموج بالحركة فإنها كانت تخدم أساساً حاجات السكان المحليين . وكان هذا الموقف في فلسطين وسوريا قبل قدوم الصليبيين . ولكن غزوهم للمنطقة أضاف بعداً جديداً الى الحياة الاقتصادية للبلاد ، وأهميتها التاريخية تتعدى حدودها غير الثابتة .

ولن نقع في شباك المبالغة اذا ما قررنا ان فترة الحروب الصليبية توافقت مع الكشف الكبرى للمناطق المأهولة من العالم . ولم يكن الدافع الى اكتشاف المجهول نتيجة مباشرة للحروب الصليبية ، ولكن هذه الحروب (م - ١٥ عالم الصليبيين)

كانت أداة لخلق الظروف المادية والنفسية التي أدت الى هذه الانطلاقة الاولى نحو الاستشكاف ، قبل حوالى ثلاثمائة سنة من عصر الاستكشاف العظيم . وقد تحول أبطال حركة الكشف صوب الغرب والجنوب يجوبون المحيط الاطلنطى . ولكن لن ينسى أنهم كانوا يريدون الوصول الى نفس الأهداف التي وصل اليها التجار والمستكشفون والمبشرون فى ترحالهم قبل قرون ثلاثة فى عصر الصليبيين .

وفى بداية القرن الثانى عشر ، كانت التجارة قائمة ومستمرة مع حوض البحر المتوسط الشرقى ، وشواطئ أفريقيا الشمالية والشرقية ، بل ومع اواسط آسيا والشرق الأقصى (على الرغم من قلة حجم هذه التجارة) . فقد حافظ التجار والبحارة فى جنوب أوربا على حلقات الاتصال مع أسواق الشرق المتوسط الكبرى . وكانت القسطنطينية هى أكبر هذه الأسواق التى كانت الى جانب منتجاتها التى تطلب الالباب ، نهاية رئيسية للطرق التجارية العظمى على محور الشمال - الجنوب ، من اسكندنافيا الى شرق المتوسط (وأفريقيا أحيانا) وعلى محور الشرق - الغرب من الشرق الأقصى الى البحر المتوسط . وكانت الاسكندرية تنافس القسطنطينية فى أهميتها ، وبينها عدد كبير من الموانئ الأصغر حجما مثل دمياط وانطاكية .

وفى العصور الوسطى الباكرة ، كانت أمانلى والبندقية هما المدينتين الأوربيتين الرئيسيتين اللتين تتوسطان الطريق الى أوربا الكاثوليكية ، وبيزنطة الأرثوذكسية ، والعالم الاسلامى . وكان أحد الملامح الرئيسية لهذا النشاط التجارى الباكر متمثلا فى حقيقة ان التجار الأوربيين لم يكونوا قادرين على التوغل خلف نطاق التجارة . فالابوثيكاي البيزنطية والفنادق الاسلامية فى المدن البحرية وعند نهايات الطرق التجارية ، كانت هى أبعد ما يمكن للتاجر ان يصل اليه . وكان أى مكان خلف هذه

النزل بمثابة منطقة محرمة على الأجانب . وكان هذا الاجراء يسمح للسلطات المحلية بالتحكم فى سيطرتها على الصادرات والواردات والأسعار والضرائب والرسوم الجمركية ، فضلا عن الاحتفاظ باحتكار طرق التجارة العالمية الكبرى للمواطنين وللتجار أصحاب الامتيازات .

وقد انهار هذا الحائط الخفى ، والقوى فى الوقت نفسه ، الذى كان يفصل أوربا عن مناطق الامداد خلال عصر الحروب الصليبية . ومع حلول القرن الثانى عشر لم يعد التاجر الأوربى ينتظر فى القسطنطينية أو انطاكية أو عكا أو حتى فى الاسكندرية ودمياط حتى تصل قوافل الجمال أو السفن المحملة بالبضائع . فقد شقوا طريقهم فعلا الى الاراضى الداخلية القريبة - مثل دمشق وبغداد وأرمينيا - ومع بداية القرن الثالث عشر وبعد قيام امبراطورية المغول الآسيو - أوربية ، وصلوا الى مناطق الحدود بين أوربا وآسيا ، وابتحروا فى المحيط الهندى بل ووصلوا الى أرض التوابل العجيبة فى الهند الصينية . وهكذا خرج العالم المسكون ، الذى عرفه الاغريق بفضل غزوات الاسكندر الأكبر والذى وصل الى مشارف الهند ، خرج عن حدوده الضيقة وفتح قارة بأسرها . وما أدى الى الزحف الهائل تجاه الشرق كان سحر الريح الخلاب . وكانت هناك بعض المحاولات الغامضة فى مجال الدبلوماسية العالمية والجهود التبشيرية لنشر المسيحية ، الا أنه من المناسب ان نقدم لقصة عالم العصور الوسطى المتسع بوصف صحيفة فى كراسة حساب ايطالية عنوانها « باسم الله وباسم الريح » !

فى بداية الأمر كانت الأسواق الكبرى فى حوض البحر المتوسط هى الهدف المنشود . ويمكن فهم مدى تأثير هذه الأسواق على المعاصرين من خلال فقرة نقتبسها من وليم الصورى مؤرخ الحروب الصليبية الكبير اذ يقول :

« للاسكندرية شهرتها حيث انها تستقبل عددا من البضائع من كل شكل أكثر مما يرد الى أية مدينة أخرى . فكل ما يفتقر اليه عالمنا من التوابل ، والجواهر والكنوز الشرقية والبضائع الأجنبية كان يرد الى الاسكندرية من الهندين وسابا وبلاد العرب بل ومن اثيوبيا ومن فارس وغيرها من البقاع القريبة . وهكذا فان جماهير الناس من الشرق والغرب تتجمع هناك . ويجعلون من الاسكندرية سوقا عامة للشرق والغرب . »

ومؤرخ آخر معاصر لوليم الصوري ، هو بنيامين التطيلي الذي كان أكثر اعتيادا على المدن الكبيرة المزدهرة في موطنه بالاندلس ، ولكنه لا يجد الكلمات التي تسعفه في وصف مدينة القسطنطينية :

« التجار من كل شكل يأتون الى هنا من أرض بابل ، وجميع أنحاء شنعار وفارس ، وميديا ومملكة مصر ، وهم يقدون أيضا من أرض كنعان (ربما يعني أرض السلاف) ومملكة روسيا (كييف) ، ومن المجر ومن أرض البتشنج Petchenegs ، ومن أرض الخزر ومن لمبارديا واسبانيا . انها مدينة تموج بالحركة والنشاط ، ويقد اليها التجار من شتى الأنحاء عن طريق البر والبحر . وليست هناك مدينة تشبهها سوى بغداد ، مدينة اسماعيل الكبرى . »

وثمة أوصاف مشابهة لأسواق أخرى كبيرة في شرق البحر المتوسط يمكن ان نجعلها في سهولة ويسر من المصادر المعاصرة الا ان قليلين من الأوربيين هم الذين توغلوا خلف الحشود المصطنعة لهذه المراكز التجارية . اذ كان كل امرئ يعلم ان الثروات الكبرى والتنوع المذهل في السلع لم يكن انتاجا محليا ، وانما قد اتى من الجنوب والشرق . وفي بعض الاحيان كانت الأماكن التي جلبت منها بعض المواد معروفة ، وفيما عدا ذلك كانت المعلومات شحيحة للغاية . اما المعرفة الأوسع ، فكانت بين العاملين من الناس المشتغلين بالنقل والتجارة ، أكثر مما توجد

بين العلماء • فيالنسبة لهؤلاء ، شأنهم فى ذلك شأن رسامى الخرائط فى العصور الوسطى الباكرة ، كان الفردوس موجودا فى مكان ما صوب الشرق • وادم وحواء ، اللذان كانا يستتران عوريتهما فقط ، يحتلان الركن العلوى من خرائط العصور الوسطى (الجزء العلوى يشير الى الشرق وفقا لاستخدام اهل العصور الوسطى) • وغالبا ما كان اثنان من الانهار الأربعة المذكورة فى سفر التكوين ٢ ، ١٠ ينبعان من هذا المكان ، ويختفيان فى التربة ، ثم يظهران بشكل اعجازى مرة أخرى فى هيئة دجلة والفرات • ولأن هناك بعض التخطيط بشأن النهرين الآخرين ، فليس هناك شك فى ان نهر النيل واحد منهما ، على حين كان نهر الجانج هو النهر الثانى احيانا ، وكان الأكثر استنارة يرسم شعلة وطفلا ملائكيا « شروبيم » قرب هذا الفردوس (تكوين ٢ ، ٢٤) او يعزلها عن الأرض المسكونة بواسطة الجبال واللهب والصحراء • والاسكندر الأكبر فقط (حسب احدى الروايات الخيالية التى نسجت حوله فى العصور الوسطى) هو الذى وصل ، بعد فتحه للهند ، الى مدينة حيث أخبره أحد اليهود انها الجنة الأرضية !

وعلى أية حال فإن عصر الحروب الصليبية ، قد شهد اختفاء الحانات البيزنطية عند نهاية الطرق التجارية والخانات التى كان التجار الأجنبى يلقى فيها نوعا من التسامح والتى كان يخضع فيها للمراقبة ابان اقامته المحدودة فقد ضمنت الفنادق التى انتشرت آنذاك من القسطنطينية عبر أرمينيا المسيحية ، والمستوطنات الصليبية ، بل وحتى فى الاسكندرية الإسلامية •• ضمنت هذه الأماكن السكن والعلاقات الخارجية والمحلية الضرورية للتجار • وبعد ذلك بفترة ، كان التجار يدخلون حلب ودمشق وبغداد عند نهايات الطرق البرية والبحرية الآسيوية وبعدها وصلوا الى طرابيزون ، وكافا وتانا على البحر الأسود • وفى ذلك الحين كانت طرق تجارة التوابل قد أصبحت معروفة ، وقدر اللاتويين الأوائل الوصول

الى الهند والصين ، وجزر اندونيسيا . وعلى مدى قرن كامل كانت آسيا ترتبط بأوريا بحجاب من الغموض ، كان يحيط بها منذ اجتاحت البرابرة أوريا فى القرن السادس ، وقد أن لهذا الحجاب ان يزول ولكن هذا لم يعمر طويلا ، وبعد ذلك بمائة سنة . دخلت آسيا فى الظلام من جديد ، انتظارا لاعادة استكشافها على يد الايطاليين والأسبان والبرتغاليين فى القرن السادس عشر .

وليس هناك ما يمكن ان يعبر عن الآفاق الآخذة فى الاتساع بطريقة أفضل مما جاء فى الصحيفة الأولى لأحسن مذكرات رحالة فى العصور الوسطى ، وربما فى أى عصر آخر ، والتي أملاها سجين فى أحد سجون جنوة على رفيق له فى السجن ١٢٩٨ م وهو روستشيللو البيزى Rusticello of Pisa اذ يقول : « منذ خلق آدم الى يومنا الحالى لم ير انسان ، سواء اكان وثنيا أو مسلما أو مسيحيا أو غير ذلك من أى جنس أو عصر ، مثل هذه الأشياء الكثيرة جدا والعظيمة جدا ، . وهكذا يدعو ماركو بولو سامعيه ليقروا عن « تنوع ممالك واقاليم الشرق . . واكثر الخصائص والميزات ايثارا للدهشة والعجب لا سيما فى أرمينيا وفارس والهند وتارتاي ، ولكن ماركو بولو لم يكن أول من توغل فى آفاق آسيا اللامحدودة . وبحلول سنة ١٢٤٥ م كانت هناك سفارة مسيحية قد سافرت بالفعل الى الشرق على أمل عقد تحالف مع المغول ضد المسلمين ، فقد قام جيوفانى Giovanni of Piano Carpini (١٢٤٥) واندريه اللونجـوموى André of Longumeau (١٢٤٩) ووليم الـريروكسى Willam of Rubruquis (١٢٥١) برحلاتهم قبل ماركو بولو . ولكن رحلته هى التى حظيت بالشهرة عبر التاريخ لأنها اطلعت أوريا على اسرار الشرق العجيب .

والذى كان يجذب الأوربيين تجاه الشرق يمكن تلخيصه فى كلمة

بكثير من معناها الحديث . فلم تكن تحتوى فقط على التوابل والعطور ،
ومواد الصباغة والمواد الطبية من الشرق ، ولكن أيضا على كل أنواع
الواردات من آسيا وأفريقيا . وثمة كاتب من القرن الثالث عشر هو
هيون دى ميري Huon de Méry يصف تاجرا بأنه « بائع التوابل
والأطعمة الأجنبية » وربما يكون هذا الكاتب هو أدق من اقترب من
تحديد مصطلح « توابل » الذى شاع فى العصور الوسطى .
ولكن فى عصر الحروب الصليبية حين لم تكن « التوابل » من مواد
الرفاهية ولم تكن شائعة فى أوروبا ، كان الطلب عليها كافيا لإدارة
عجلة الحياة الاقتصادية الأوروبية لعدة قرون .

وكانت مواد الصباغة مطلوبة فى مراكز النسيج الكبرى فى شمال
إيطاليا وفى انوال اقليم الفلاندرز ، ومراكز النسيج الصغرى فى فرنسا
وألمانيا وإنجلترا . وكانت الاصباغ ذات أهمية أساسية لان جزءا منها
فقط كان ينتج محليا ، وكانت الاصباغ المحلية اقل عادة فى جودتها .
و « التوابل » الأخرى كانت تتضمن العطور وكافة أنواع البخور . وفى
هذا النمط من البضائع الشرقية خلقت ذكريات الماضى القديم مع ارتباطها
بالكتاب المقدس صورا قدر لها ان تستمر فى الوجود حتى العصور
الحديثة . ولم يكن كل زبائن العطور من النساء . بل على العكس من
الاعتقاد الشائع ، كان الرجال فى العصور الوسطى ، بما فى ذلك رجال
الكنيسة ، يستخدمون العطور . والدليل على ذلك ان رجال الكنيسة
الفلسطينيين أثناء زيارتهم لبلاط الملك هنرى الثانى ملك إنجلترا وبخوا
فى قسوة بسبب سحابة العطر التى كانت تحيط بهم فيما يبدو .

وفى المعنى الأدق للكلمة ، كانت التوابل تتضمن الأعشاب ،
والأعشاب العطرية ، ومستخرجات النباتات والفواكه أو عصيرها
المستخدم كبهارات أو كمادة لتركيب الصلصة ومن أهم استخدامات

التوابل على أية حال كان حفظ الطعام لأطول فترة ممكنة . وكانت بعض التوابل ، وربما كان القفل أهمها ، تستخدم كبهارات وكحافظ للطعام . ومن هنا لم تكن هناك الا خطوة بسيطة تجاه صيدلة الأدوية وهى خليط من المعرفة القديمة والتراث الكلاسيكى والوسيط فضلا عن الملاحظات التطبيقية . بل ان التوابل المجلوبة من اقصى بقاع الأرض كانت موجودة باستمرار فى مخزن بائع العقاقير ، الذى كان يضم الذهب والفضة بين محتوياته . واذا ما اعتبرنا اسعار التوابل المرتفعة أدركنا مدى تكاليف العلاج .

وكانت المنسوجات ، ولا سيما أكثرها فخامة ، تحتل مكانة تقترب من مكانة التوابل فى التجارة مع المشرق . ومن الطبيعى ان الفلاندرز ، وانجلترا فى وقت لاحق ، وشمال ايطاليا ، كانت من اكبر مراكز انتاج النسيج ، ولكن المشرق كان هو الذى يفرق الغرب بالمنتجات الفاخرة منه . وعلى الرغم من الحقيقة القائلة بأن المنسوجات القطنية والكتانية كانت تنتج فى أوربا ، فان الجودة التى تميزت بها المنتجات الشرقية كانت تجد لها سوقا فى الغرب فى سهولة ويسر . وكانت اقمشة المشرق الفاخرة ، مع دائرة المستهلكين المحدودة نسبيا ، هى السبب فى اضعاف جو خاص على التجارة الشرقية ، فالحري من أجود الاصناف ، بل والاقمشة الحريرية المطرزة ، والقصب بخيوط الذهب والفضة والبالديكينو baldechino (الذى يشير الى صناعتها فى بغداد) والدمشقي (من دمشق) والسامائيت من اليونان أو بيزنطة ، والتفتاه من فارس ، والستان من زيتون ، وهى مدينة تسوين - تشاو - فو فى مقاطعة فو - كين الصينية ، والمنسوجات الأرخص مثل البكرم من بخارى والكاميلوت (من وبر الجمل) ، وما أشبهها ، كانت غريبة على العين والملمس على حد سواء . ولم يكن تفوق المواد الأولية الخام وحده ، ولكن الصناعة العجيبة والرسوم والتصميمات هى التى ساعدت المنسوجات الشرقية ،

فضلا عن ان الالوان الزاهية - الأزرق والأحمر ، والارجواني ، والاخضر بدرجاتها المختلفة - ميزت الثياب الكنسية والملكية وثياب الأمراء . وكانت المجوهرات والأحجار الكريمة تأتي مع الأقمشة من الشرق على الرغم من انه في هذا المجال كان الغرب يبيع المرجان للشرق .

وكانت المنتجات الأجنبية ، سواء طبيعية او صناعية ، تحمل الاسماء الغربية الرنين للبقاع البعيدة . وقد كتب مؤرخ معاصر ان ثمة أوديسا للتجار كانت تسير في خطى موازية للبايزة الفريسيان الصليبيين . فمن الشرق الأقصى ، ومن جزيرة زيبانجو (اليابان) التي تحدث عنها ماركو بولو ، ومن اليافاس Java (بوزينو وسومطرة) وكاتاي ، وتارتاري والهند الصينية ، كان من المعتاد ان تسافر البضائع التجارية عبر الطريق البحري الأطول والأرخص والأكثر امنا في الوقت نفسه ، وتتغير السفن ، واطقمها والبجارة عدة مرات حتى تصل الى سواحل البحر المتوسط . وكان البحارة والتجار الصينيون الذين يستخدمون سفنا كبيرة تمخر عباب البحار ، وهي التي حازت اعجاب ماركو بولو ، يحضرون البضائع من سيلان او مالابار على الساحل الجنوبي الغربي للهند ، ومن هناك يواصل الرحلة البحارة والتجار الهنود اذ كانوا يبحرون باتجاه الغرب عبر المحيط الهندي ، الذي كثيرا ما كان يشار اليه في ذلك الزمان باسم البحر العربي . وكان المجرى البحري لهم الى الغرب يتجه اما الى اتجاه هرمز والخليج الفارسي او يستمر نحو الغرب حتى عدن في شبه جزيرة العرب . وكان الطريق الرئيسي ، اذا لم يتعرض لعبت قراصنة الخليج الفارسي ، يستمر شمالا حتى دلتا نهر الفرات عند راس الخليج . الا ان البجارة غالبا ما كانوا يبحرون هذا الطريق القصير بسبب القراصنة الذين كانوا يمارسون نشاطهم من قواعد على الجزر الصغيرة المحيطة بمدخل الخليج الفارسي . ومن ثم كانت السفن الهندية تفرغ حمولاتها عند مدخل الخليج وتواصل الرحلة بها سفن اصغر حجما

يقودها بحارة من الفرس أو العرب • والطريق البحرى كان ينتهى فى
 البصرة ، الميناء الرئيسى فى جنوب العراق ، وهنا كانت البضائع تفرغ
 ثانية وتنقل الى القوارب النهرية التى تسير بها فى نهر الفرات حتى
 بغداد • وكانت بغداد أو دمشق هى عادة المحطة النهائية بالنسبة للطرق
 الشرقية • وكان على التجار الأوربيين ان يقوموا بالتعاقدات على أعمالهم
 هناك وينقلون مشترياتهم على ظهور الجمال الى انطاكية أو صور ،
 أو عكا أو اياس (فى ارمينيا السفلى) • وفى بعض الأحيان ، كان
 التجار المسلمون أو المسيحيون الشرقيون مثل « الموصليين » يقدون الى
 الموانى المسيحية فى المستوطنات الصليبية ، بل وربما كانت هناك فروع
 لشركاتهم هناك • وحينئذ تقوم بضائع الشرق النفيسة بالشطر الأخيرة
 من رحلتها صوب أوربا • وكانت السفن الأوربية تحمل الحمولة الغالية
 من محطات العبور (الترانزيت) فى المستوطنات الصليبية ، وبفضل
 ارادة الله والرياح تصل الى البندقية أو بيزا أو جنوة بعد فترة تتراوح
 ما بين ثلاثة وخمسة أسابيع •

وكان الطريق البحرى الثانى يتفرع من المحيط الهندى ، وبدلاً من
 الأبحار فى الخليج الفارسى يسير بحذاء ساحل مسقط وعمان
 وحضرموت ، لتفرغ السفن حمولاتها فى عدن ، وربما تبحر خلال مضيق
 باب المندب بين شبه الجزيرة العربية واثيوبيا وتفرغ حمولاتها فى زبيد •
 وكان ميناء زبيد هو محطة الوصول الأخيرة لسفن المحيط الهندى •
 وهنا تنتقل الحملة الى سفن أخرى أخف وزناً تصلح للملاحة فى البحر
 الأحمر قبل ان تواصل رحلتها صوب الشمال • وكانت الجزر والشعب
 المرجانية والمياه الضحلة فى البحر الأحمر تتطلب سفناً صغيرة الحجم
 كما تتطلب وجود بحارة معتادين على اخطار هذه المياه • وهناك كانت
 سفن التجار تقابل سفن الحجاج وهى تشق طريقها الى ينبع وجدة ،
 مينائى المدينة ومكة • وكانت السفن المحملة بالبضائع تبحر صوب

الشمال الى الموانئ المصرية فى عيذاب والقصير ومنها تنقل بقوافل الجمال عبر الصحراء الى الجنادل عند أسوان أو عند قفط • ومن هنا تحمل القوارب النيلية الحمولة حتى سمياط أو رشيد أو الاسكندرية • ومن هذه الموانئ كانت السفن الأوربية تحمل البضائع الى موانئ جنوب اوربا •

وعلى الرغم من ان هذا الطريق كان اكثر الطرق التجارية امنا واكثرها استخداما ، فقد كان هناك محور شرقى - غربى تجارى ثالث ينقل البضائع الشرقية من الشرق الأقصى الى الغرب على ظهور الجمال • وكانت محطاته النهائية فى الغرب هى مدن كافا فى كريميا ، وتانا وطراييزون على شواطئ البحر الأسود والقسطنطينية وایاس فى ارمينيا السفلى • ومن هذه المحطات النهائية كان التجار الايطاليون يبدأون رحلتهم الطويلة صوب شواطئ بحر الصين • وعلى حين كان الطريق البحرى يستغرق حوالى عامين ، كانت الطريق البرى اقصر او تستغرق الرحلة عليه حوالى تسعة اشهر • وعلى الرغم من ان الطريق البرى - الذى غالبا ما كان يطلق عليه اسم طريق الحرير لتأكيد جاذبيته الرئيسية - كان معروفا منذ العصور القديمة فان استخدام الأوربيين له لم يصبح واقعيا الا بعد تأسيس وتدعيم امبراطورية المغول الكبرى (حوالى ١٢٥٠) • وعندها ، كما لوحظ فى احد كتب الارشاد التجارية الايطالية ، صار فى امكان المرء ان يمر فى تلك البقاع الشاسعة وهو امن تماما ، سواء اكان مروره ليلا أو اثناء النهار •

وكانت هناك بعض المنتجات الأوربية القليلة التى تصدر الى الشرق الأقصى مباشرة فى مقابل الحرير النفيس • وكان الاجراء العادى هو تبادل المنتجات الأوربية بالمنتجات المحلية على طول الطريق • وكان هناك طريقان بصفة اساسية يؤديان الى الشرق ، احدهما شمالى والثانى

جنوبي ثم يتفرع الأخير أيضا باتجاه البحر العربي أو الهند . وغالبا ما كان التجار يهتمون رحلتهم الشرقية في مدينة سراي Sarai على نهر الفولجا أو استراخان على بحر قزوين أو مدينة أوجينج على بحر آراك ؛ على حين لم يكن الآخرون يغامرون بالدخول الى ما وراء تبريز في فارس . أما الأكثر مغامرة أي أصحاب الشركات التجارية الكبيرة فكانوا يعبرون حتى أمالينج ومنها الى بكين . وكان الاتجاه الجنوبي من آياس وتبريز يسير بحذاء شاطئ بحر قزوين ثم يعبر ميرثي ، وبخاري ، وسمرقند وكشغر ويستمر حتى يركند وخوتان وبكين ، ما لم يختار التاجر ان يعرج على كابول ويصل الى الدولة الإسلامية في الهند وعاصمتها دلهي .

وكانت الحروب الصليبية ، وجرأة الايطاليين ومهارتهم بالاضافة الى الغزو المغولي ثلاثة عوامل مختلفة ، تفاعلت سويا لتخلق مجموعة المراكز التجارية التي أرست أسس الاتصالات الأوربية الآسيوية . وبالنسبة لانسان العصور الوسطى ، الذي كان يشعر شعورا عميقا بأن الأعاجيب ، والعالم الجديد الذي يسمع عنه مغلفا بوصف ضبابي ، فضلا عن السلع والبضائع الشرقية التي تؤكد وجود هذا العالم ، كان هذا بالنسبة له معجزة أخرى من معجزات الرب . حقيقة لقد كان هناك من يشكون في هذا ولكنهم كانوا شكاك لأسباب خاطئة وحينما ضغط على ماركو بولو وهو على فراش الموت لكي يعترف بأن حكايته عن رحلته حافلة بالأساطير والخرافات ، لم يستطع ان يقول سوى انه لم يرو كل ما عاشه وراه حقا .

خاتمة

« قبل نهاية العالم ستتحقق كل النبؤات وتنتشر الأناجيل في كل العالم وتعود اورشليم المقدسة الى الكنيسة المسيحية » . هذه الكلمات لم يكتبها متصوف أو نبي من العصور الوسطى . لقد كتبها كروستوفر كولومبوس ، الملاح الايطالى الذى كان يعمل فى خدمة اصحاب الجلالة أكبر ملوك أسبانيا كاثوليكية بعد اكتشاف العالم الجديد . وقد حملت سفنه الشراعية اشراعية بيضاء بصليبان حمراء وهو الرمز التقليدى للصليبيين . وكان على ظهر احدى سفنه يهودى تحول الى المسيحية ويدعى لويس دى توريز وكان يعمل مترجما للعربية .

لقد مضى قرنان من الزمان بين سقوط عكا واكتشاف العالم الجديد ومع ذلك فالفكرة الصليبية ، وان ضعفت ، لم تمت . اذ ان العداوة بين الشرق والغرب لم تختف ، كما ان فكرة الحرب المقدسة لم تهجر تماما . الا ان الظروف غيرت فكرة الحرب المقدسة من حرب هجومية ضد الاسلام الى حرب للدفاع عن الدين الصحيح ضد قوى الاسلام المعادية . ومن ناحية أخرى لم يعد الاسلام تمثله فقط البلاد العربية . بل تمثله الآن الامبراطورية العثمانية العظيمة وقد كان صاحب القسطنطينية التى سميت استنبول منذ ١٤٥٣ م أكثر خطورة من سابقه .

ولم يمح سقوط عكا ، وهو الحدث الذى ختم مصير المملكة اللاتينية ، كل المكاسب الاقليمية للصليبيين . فقد كانت هناك مملكة قبرص القوية التى حكمها ورثة ملوك بيت المقدس الصليبيين . كما كانت

هناك كذلك مملكة أرمينيا المسيحية في آسيا الصغرى ، والتي تدين بوجودها وحضارة بلاطها للولايات الصليبية في الشرق على الرغم من ان الصليبيين لم يؤسسوها أو يستقروا فيها . كما كانت هناك أيضا جزر بحر ايجه وبعضها جزء من مملكة البندقية البحرية ، وبعضها الآخر حكمته الأسر الصليبية الحاكمة مع ظهور الحملة الصليبية الرابعة ، وأخيرا كانت هناك جزيرة رودس التي حكمها فرسان القديس حنا منذ بداية القرن الرابع عشر . وعندما طرد الصليبيون من الأرض اليابسة التصقوا باطرافها على ممر بحري فرق بين آسيا وأوربا .

وخلال القرن الرابع عشر ، ظل الاحساس باقيا بأن حملة صليبية جديدة ستتحرك من أوربا لتوجيه ضربة قاضية ضد الاسلام مستفيدة بحكمة من التجارب السابقة المؤلمة بأخطائها . وبهذا المنظر بدت جزر شرقي البحر المتوسط كجسور ومعابر لغزو الأرض المقدسة . وزادت الثقة التي دعمها الانتاج الأدبي عن « استرداد الأرض المقدسة » ، فمنذ المجمع الكنسي الثاني في ليون عام ١٢٧٤ ، عندما قدم البابا جريجورى العاشر اقتراحات بشأن كيفية انقاذ المملكة الصليبية والخطط الكثيرة توضع في المجالس الملكية في أوربا ، وكانت بعض هذه الخطط مجرد خيالات وهمية خالصة تجمع بين الكتاب المقدس واللاهوت ، والتفكير المعبر عن رغبة أملة لا أكثر . وبعض الخطط الأخرى كانت أكثر جدية استمدت نقائجها من التاريخ بما فيه التاريخ الصليبي الحديث ، بالاضافة الى معرفة ممتازة بالتجارة واثرها واحتياجاتها وطرقها وتقييمات للقوة العسكرية للأعداد المسلمين . ولم تكن هذه مجرد حجج في يد المدافعين والقائمين بأمور الدعاية ، فقد أثرت تأثيرا مباشرا على تفكير رجال الدولة والقادة . وفي ظل العلاقات التجارية والسياسية ، كان استرداد الأرض المقدسة أمرا ضروريا ، وغالبا ما كانت الرغبة في فعل هذا ليست أكثر من نوع من الاعتقاد الثقافي . ولكن

كثيرا ما كانت تصاحب هذه الرغبة الاعتقاد المخلص بأن الوسائل العسكرية والاقتصادية ستحقق فى النهاية هدفها .

وفى النهاية أدت المشروعات النظرية المتعددة والاعداد العملى الى ظهور حملتين جديدتين يمكن اعتبارهما من الحملات الصليبية .
الأول يقودهـا بطرس الأول ملك قبرص ١٢٦٥ م . وكانت الثانية حملة نيكوبوليس الصليبية عام ١٢٩٦ م . وكلاهما مميز للقرن الرابع عشر ؛ فبطرس الأول الذى حاول بمساعدة البابوية تعبئة الغرب لحملة صليبية جديدة زار البندقية وستراسبورج وباريس ولندن وبراغ وكراسكو . وقد استقبل البابا والامبراطور وملوك فرنسا وانجلترا وبولندا والمجر الملك الشهم الذى زادت شهرته بعد قتاله المشرف للترك على ساحل آسيا الصغرى . ولم تكن النتائج كلها مخيبة للآمال . وكانت القوى المجتمعة غاية فى التأثير ولكن كانت روح الفروسية هى المحركة للحملة بدلا من التفكير السياسى .

وانطلق الأسطول الصليبي المتمركز فى قبرص الى الاسكندرية فى ٩ اكتوبر ١٢٦٥ م ، وفوجئت المدينة وليومين كاملين تعرضت المدينة للسلب الذى لم تنج منه الاحياء المسيحية . وبعد اسبوع ، ومع اقتراب الجيوش الاسلامية من القاهرة ، ترك الملك والفارس وجندى المشاة المدينة المحترقة من أجل سلامة سفنهم . وكانت هذه نهاية الحملة التى كانت منقسما للمطامع الفروسية لفرسان اوريا . ولكنها كانت عملا فى القرصنة أكثر منها حملة صليبية .

وفى الوقت الذى كان فيه بطرس الأول ملك قبرص يحرق بوابات الاسكندرية ، كان الأتراك العثمانيون يهددون أوربا فى خطوة لم يسبق لها مثيل . فمن قواعدهم بالقرب من ضولوريوم Dolorium وهى موقع انتصار الحملة الصليبية الأولى ، وصل الأتراك بسرعة الى شواطئ

اليوسفور وايجه والبحر الأسود • وعند موت عثمان في ١٣٢٦ م كان الأتراك مسيطرين في نيقية ، المدينة التي بوركت بالمجلس المسكون الأول في تاريخ الكنيسة • وسرعان ما أصبحت الاناضول في الداخل وأيدين Aydin على ساحل البحر الأبيض المتوسط تركية • وفي النصف الثاني من القرن غزا الأتراك ثراقية Thrace واستولوا عليها ، كما استولوا أيضا على رومليا Rumelia وبلغاريا وأجزاء من مقدونيا • وكان الاسلام هو المسيطر الآن متغلغلا في أوروبا من خلال البلقان • وقعت تحت التهديد المباشر كل من قبرص ورودس وجزر بحر ايجه وأرض السلاقيين وحاول البابا ، بدون جدوى ، خلق تحالف مسيحي باسم حملة صليبية • وكما أن للتاريخ نكساته وسخرياته أصبحت الحرب الصليبية حربا دفاعية ضد الكافر المعتدى • وكانت النتيجة الوحيدة الملموسة لالتماسات البابا الحملة المشنومة التي دعا اليها البابا بونيفيس التاسع Boniface IX وقادها يوحنا دوق بورجوندى • واشترك في الحملة الفرنسيون والألمان والانجليز والتشيكيون • وقد نزلت الحملة الى الدانوب من بودا لمقاومة الجيش التركي بقيادة بايزيد في معركة حامية في نيكوبوليس في سبتمبر ١٣٩٦ م • وانتهت المعركة بالدمار والفتاء للجيش المسيحي • وفي النهاية لم تكن حربا صليبية او جيشا مسيحيا الذي أوقف الغزوات التركية ؛ ولكن ظهور تيمورلنك المرعب مؤسس الامبراطورية المغولية الثانية والذي شل حركة الأتراك لمدة جيل بأكمله ، وأجل استيلاءهم على القسطنطينية حتى ١٤٥٣ م •

كانت موقعة نيكوبولس آخر الحملات الكبيرة ضد الاسلام • وقد اصمت أوروبا أذانها في وجه هؤلاء الذين حاولوا تحريك حملة صليبية جديدة • وكان مناخ الرأي العام بالتأكيد مضادا للمحاولة • وكانت هناك أسباب عديدة لتدهور الحماس للحروب الصليبية • فأولا وقبل كل شيء كانت هناك خيبة الأمل واليأس حول فشل الحركة • فقد كلفت الحروب

الصليبية بمجالها الواسع مئات الآلاف من البشر والثروات دون أن تحقق نتائج مستديمه . وبالإضافة الى هذا ، أصبحت الحروب الصليبية نشاطا مع تطور الحياة الاوربية فى النصف الاخير من القرن الثالث عشر وفى القرن الرابع عشر . وكانت الحركة الصليبية قد خلقت كتعبير عن ايدولوجية مسيحية موائمة للقرن الحادى عشر . ويعد مائة سنة ، ومع موت انوسنت الثالث ، كانت أوربا أكثر مسيحية من قبل . ولكن الممالك الاقطاعية الخاصة فرضت نفسها فوق هذه القاعدة العامة من الدين والثقافة . وقد كانت السليل المباشر للممالك القومية . وفى منتصف القرن الثالث عشر ، دخلت القوتان ، اللتان تجسست فيهما فكرة « مناصرة المسيحية » ، وهما قوة البابوية وقوة الامبراطورية أو القوة الروحية والقوة الدنيوية لأوربا المسيحية ، فى صراع جعلهما عاجزتين تماما . فقد نظرت الممالك الاقطاعية التى استقطبت ولاء الشعوب نظرة جادة الى مستقبلها المباشر . ووجدت ان هذا المستقبل لا يكمن فى عظمة ومجد المسيحية ، ولكن فى تقوية وتدعيم ممالكها القومية . وكان الوجود اللاتينى فى الشرق أمرا يدعو للفخر ، ولكن القليل قد بذل للحفاظ على استمراره حيث أن الممالك الصليبية لم تخلق قومية خاصة بها . وفى القرن الثالث عشر أصيبت هذه الممالك بالفوضى المدمرة كالحركة التى أثت بها الى الوجود .

ولم تكن العوامل السياسية والاقتصادية الأسباب الوحيدة التى وضعت نهاية الحروب الصليبية . إذ لم يكن يقل عن هذه العوامل أهمية ، على الأقل بين الدوائر التى نصفها اليوم بالدوائر المثقفة ، ذلك العامل الذى تمثل فى النقد والمعارضة النامية ضد الصليبية كايديولوجية . فقد بدأت أصوات المعارضة فى الظهور منذ الحرب الصليبية الثانية . وقد أثت كل حملة تائيسة بموجة جديدة من النقد . وقد امتدت قاعدة (م ١٦ - عالم الصليبيين)

المعارضة للحملات الصليبية من القروبادور ، خفيى الروح ، سـليطى اللسان ، الى المفكرين السياسيين الذين أسفوا لاستغلال الحركة من أجل تحقيق المصالح البابوية (مثلا الحملة ضد فردريك الثانى) وكذلك انتقدها النساك والمتصوفة من المسيحيين ، وأهل الورع والتقوى ، الذين شكوا فى الالهام الالهى الذى ادعته الحركة ، وذلك لأن سفك الدماء يعارض التعاليم الانجيلية . وقد ظهرت فى هذه الدوائر فكرة جديدة ، وهى تعليم الاناجيل للكفار وهدايتهم . وقد ألهمت هذه الايديولوجية الجديدة بالتبشير السلمى الخيال وسرعان مانافست فكرة الحرب الصليبية .

ومنذ منتصف القرن الثانى عشر ، كان القرآن قد ترجم الى اللاتينية بواسطة رئيس دير رهبان كلونى العظيم « بطرس المبجل » وبهذا جعل القرآن معروفا للغرب فى سبيل فهم الاسلام وكقاعدة أساسية للمجادلات المضادة للاسلام . وقد داعبت البعض فكرة انه طالما أن الاسلام لم يرفض الانبياء ولم يرفض عيسى المسيح ، فانه يكفى الإشارة الى أخطاء محمد حتى يتم ادخال المسلمين فى حظيرة المسيحية . وكانت الارساليات المبعوثة الى المغول فى منتصف القرن الثالث عشر ارساليات دينية أساسا هدفها تحويل هذه القوة الجديدة الى المسيحية . وكان ريموند لول عند بداية القرن الثالث عشر أكثر رسل فكرة التبشير بلاغة ، وتحت تأثيره قرر مجمع فيينا عام ١٢١١ م تأسيس ست مدارس للغات الشرقية لتدريب ناشرى الدعوة والمبشرين ووصل الدومنيكان والفرنسيسكان الى مناطق من العالم لا توجد على الخريطة يعظون ويناقشون ويعمدون ويؤسسون جماعات محلية صغيرة . وعلى الرغم من أن بعض مآثرهم يمكن تصنيفها على انها أخاذة ، إلا أن ارسالياتهم لم تصبح أبدا حركة جماهيرية . ومع ذلك فقد قوض وجودهم فكرة

الصليبية ، التي أوجدت القاعدة النظرية للمعارضة أو الرفض .

وعلى الرغم من العراقيل فقد استمرت ايدولوجية الحروب الصليبية ، ولكنها مع الزمن حددت لها أهدافا جديدة ، وبالتالي وضعت وسائل جديدة للعمل . وقد حدث التغيير الرئيسى عند نهاية القرن الرابع عشر . وأصبح رئيسيا بعد منتصف القرن الخامس عشر عندما ارتبطت فكرة الحروب الصليبية بحركة الاستكشاف العظيمة . ومن الصعب معرفة درجة الاخلاص فى هذا المثال الجديد . اذ يبدو أن حركة الاستكشاف استمدت وحياها من مصادر مختلفة ، ولقيت قبولا لدى مستويات متنوعة من الناس .

ولقد بدأت حركة الاكتشافات العظيمة فى بداية القرن الخامس عشر بالمكتشفين البرتغالىين الذين وصلوا الى جزر الاطلنطى فى الغرب ، وداروا حول الشاطئ الغربى لأفريقيا فى الجنوب وكان Infante Enriques البرتغالى الروح المحركة لتلك المقاصد الخطيرة التى غيرت مصير الانسان فى أقل من مائة عام . فقد كانت الاكتشافات البرتغالية للساحل الأفريقى امتدادا لحرب الاسترداد ، وتحويلا للحرب المقدسة - التى هى الآن فى آخر مراحلها فى شبه الجزيرة الايبيرية - الى الأراضى المجاورة للإسلام والوثنية . وربما يكون بمثابة خطأ فى قراءة التاريخ اذا حددنا أهدافا تبشيرية خاصة بهذه الاستكشافات أو حتى ان نفترض ان التحول الى المسيحية - كان عاملا أساسيا فيها . ومع ذلك فليس هناك شك فى أن القادة القباطنة والمكتشفين والتجار قد اعتقدوا ان هناك هدفا أسمى لمشروعاتهم عن مجرد البحث عن Eldorado . فقد ارتبط الجانب الروحى للاستكشافات بالاعتقاد فى مسئولية الرجل الأبيض الخاصة بنشر الانجيل فى كل العالم السكون . وكان رسل هذه الأيام الأخيرة مسيحيين متعمقين فى إيمانهم ، ولهذا فقد رأوا أن هداية الكفار ، وتعميد

الوثنيين جزء لا يتجزأ من مهمتهم • ومن مميزات هذا الشعور أنه بعد اكتشاف العالم الجديد وقع كولومبس باسم كرسطوفيرنز ، حامل أنباء المسيح السارة الى العالم الجديد • وهذا الجانب التبشيري واضح خلال كل فترة الاكتشافات الكبرى، فقد كان كرسطوفر كولومبس وفاسكودى جاما ومؤسس الامبراطورية الكبير البوكريك يشعرون جميعا به : بل واعتبروه جزءا من مهمتهم •

وقد قامت بعثة كولومبس وتوقعاته جزئيا على اعتقادات خاطئة عن حجم الأرض ، وعلى فكرة أنه بالابحار تجاه الغرب يصل الانسان مباشرة الى الهند ، وبناء على هذه الفروض نشأت فكرة الهجوم على الاسلام من بابه الخلفى ، أى من الشرق • وقد أبت اسطورة مملكة القديس يوحنا ، التى حددت بالتبادل فى الشرق وفى افريقيا ، وكذلك الاوصاف الخيالية لثرواته وقوته العسكرية الى افتراض أن تحالفا شرقيا سيسهل الهجوم على الاسلام من جبهتين •

وعندما اتضح الخطأ بدأ التعبير عن فكرة الصليبية فى الفاظ اقتصادية بمعنى ان الاتصال المباشر بجزر التوابل والهند سيجعل أوربا مستقلة عن مصر تجاريا • وفى نفس الوقت تقوض موارد مصر الاقتصادية الرئيسية ، وهو الدخل الوارد اليها من الضرائب المفروضة على التجارة الدولية ، التى كانت تنتهى بطريقها للأسىوى الأفريقى فى دلتا النيل • ولم تنجح أوربا مطلقا فى تحقيق هذا البرنامج ، ولكن حققه الأتراك العثمانيون بعد فتحهم لمصر (١٥١٧) ، وتحويلهم للطرق التجارية الى عاصمتهم الجديدة استنبول • وبينما دمر هذا مصر دفع بأوربا الى جهود كشفية جديدة من أجل كسر الاحتكار التركى للتجارة مع الشرق الأقصى • ومع ذلك فالسيادة على التجارة مع آسيا واكتشاف

الذهب فى العالم الجديد ، كل هذا كان فى خدمة رؤيا الصليبيين الموتى ،
فعند الابحار غربا وتوسيع المسافات بين العالم المسيحى والارض
المقدسة دون كولومبوس فى دفتر حسابات سفينته : « اقترح على جلالكم
أن كل الربح الذى سأحصل عليه من مشروعى يجب أن يستخدم للاسترداد
بيت المقدس » .

تعقيب

الموقف الديئودى من الحروب الصليبية والأسس الدينية للحركة الصليبية

لقد حظى موضوع الحركة الصليبية بكثير من الدراسات التى حاولت جادة البحث فى أصول فكرة الحركة الصليبية وما نشأ عنها من حملات وحروب استمرت لقرنين من الزمان وأصبحت أحد المعالم البارزة فى تاريخ العصر الوسيط . وقد ساهم فى هذه الدراسات عديد من المؤرخين والمفكرين المسلمين والمسيحيين على السواء ، كل يحاول من وجهة نظره ووفقا لخلفيته الدينية والثقافية أن يحلل الفكرة الصليبية ويعلل نشأتها ويبحث عن أسباب استمرارها ويبحث أيضا عن مبررات لفشلها فى تحقيق أهدافها . كما اهتمت بعض الدراسات الأخرى بتقييم الحركة الصليبية وتحديد مكانها داخل الإطار العام للتاريخ الأوربي فى العصر الوسيط من ناحية ، والتعريف بدورها وأثرها فى توجيه العلاقات بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى لفترة طويلة من الزمان من ناحية أخرى .

والكتاب الذى قمنا بترجمته هنا لا يخرج عن هذا الإطار الا ان المؤلف هذه المرة ليس مسلما أو مسيحيا ، ولكنه يهودى من اسرائيل ، وهذا يضيف على عمله أبعادا جديدة غير مألوفة فى الكتابات الاسلامية والمسيحية عن الحركة الصليبية . فموضوع الحركة الصليبية من الموضوعات التى أثارت حساسية المسلمين والمسيحيين لقرون من الزمان ، ولا نكون مغالين اذا قلنا انها كدورت صفو العلاقات الاسلامية المسيحية لفترة طويلة . ولهذا لم تخل الكتابات الاسلامية والمسيحية

من اشارات تعكس خليفة الكاتب وثقافته الدينية . والحقيقة ان موضوعا حساسا كهذا يجعل من الصعب على المؤرخ ، مسيحيا كان ام مسلما . ان يلتزم بالموضوعية العلمية فى معالجته له الا انه لا يتفى وجود هذه الموضوعية لدى بعض المؤرخين . ولهذا فقد يظهر بين الحين والآخر ما يعكس خلفية المؤرخ . ونستطيع ان نقول بشكل عام ان معظم الكتاب المسلمين الذين ارحسوا للحروب الصليبية او كتبوا عنها التزموا عن حق بموقف الدفاع هذا فى الوقت الذى تأرجحت فيه كتابات المؤرخين المسيحيين بين اتخاذ مواقف التبرير احيانا والادانة للحركة الصليبية احيانا اخرى .

ومؤرخنا ، هذه المرة ، ليس مسلما او مسيحيا . وهذا يعنى انه عاطفيا لا ينتمى الى اى من الطرفين صاحبى النزاع ، وانه قد تم له التحرر من قيود هذا الانتماء ، فهو ليس فى حاجة الى تبرير ما حدث او الحكم بالادانة او اتخاذ موقف دفاعى وان كان هذا لم يمنع الكاتب من التعبير الحر عن رايه واتخاذ وجهات نظر معينة طالما ان هذا لم يخرج به عن اطار الموضوعية العلمية المطلوبة فى البحث التاريخى . ونحن نرى ان هذا قد تم فى صورة مرضية فى هذا العمل الذى ألفه الأستاذ يوشع براور الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس فقد قدم الكاتب دراسة تحليلية متكاملة للفكرة الصليبية وتطورها واظهر فى ثنايا عمله كثيرا من صور الاحتكاك الثقافى والحضارى بين عالم الصليبيين وعالم الشرق الاسلامى . وهو وان اتفق مع المؤرخين المسلمين والمسيحيين فى وصف كثير من الاحداث الرئيسية المتعلقة بالحملة الصليبية والظروف التى نشأت فيها الا انه يضيف على تحليله التاريخى عناصر غابت من ادراك المؤرخين المسلمين والمسيحيين ، او لنقل انها ربما لم تكن موضع اهتمامهم ، ولذلك اغفلوها فى ابحاثهم الخاصة بالحركة الصليبية ونحاول فى الصفحات التالية ابراز اهم هذه العناصر .

الموقف اليهودي من الحروب الصليبية

من أول الأمور التي اهتم بها المؤرخ براور في تحليله محاولته تحديد ما نسميه بالموقف اليهودي وهو أمر ذو شقين الأول : تحديد الموقف الصليبي من اليهود سواء في الدول الأوروبية ابان ظهور الحركة الصليبية أو الموقف الصليبي من يهود فلسطين بعد وصول القوات الصليبية الى الشرق وتأسيسها للمملكة الصليبية في القدس . والشق الثاني هو تحديد موقف اليهود من الحركة الصليبية وتحديد الدور الذي لعبه اليهود في هذه الفترة ايجابيا كان أم سلبيا . ومن الواضح هنا ان خلفية المؤرخ وثقافته اليهودية قد املت عليه ضرورة البحث في الأوضاع اليهودية في فترة الحروب الصليبية ودراسة هذه الأوضاع في الدول الأوروبية التي تزعمت فكرة الحركة الصليبية وفي الشرق الاسلامي . ولا شك ان هذا جانب من الدراسات التي لم تجذب اهتمام المؤرخين المسلمين والمسيحيين للحركة الصليبية وهنا يجب ان نشير الى ان معظم الدراسات المتعلقة بالحروب الصليبية وتاريخها لم تعالج هذا الموضوع الخاص باليهود داخل اطار الدراسة التاريخية أي لم تعالجه ضمن معالجتها الكلية للحروب الصليبية وان كنا لا ننكر انه قد عولج بشكل أو بآخر في اطار دراسات أخرى كالدراسات الخاصة بالعلاقات اليهودية المسيحية عبر العصور بما فيها فترة الحروب الصليبية(١) أو الدراسات الخاصة بتاريخ اليهود والتي اقررت فصولا للتاريخ اليهودي في العصر الصليبي(٢) أو الدراسات الخاصة بظاهرة المعاداة للسامية . ان عادة ما يفضل المؤرخون اليهود بالذات مناقشة الموقف الصليبي من اليهود ضمن الموضوعات المتعلقة بتاريخ المعاداة للسامية(٣) . والحقيقة ان هذه ظاهرة لا تقتصر فقط على المؤرخين اليهود ولكنها تشمل أيضا بعض الكتاب المسيحيين الذين انشغلوا بالتاريخ

للمعاداة للسامية وافردوا فصولا فى كتاباتهم لمعالجة الفكرة الصليبية كجزء من تاريخ المعاداة للسامية (٤) .

وبصرف النظر عن طريقة المعالجة فان غالبية المؤرخين يتفقون على انه مع بداية الحروب الصليبية ، التى كان هدفها الاول المسلمين فى فلسطين والشرق عامة ، ظهر عنصر جديد ومأساوى فى تاريخ العلاقات المسيحية اليهودية فقد كانت الجماعات اليهودية فى اوربا اول من عانى من ظهور فكرة الحركة الصليبية . وقد بدأت هذه المعاناة فى اوربا ذاتها وقبل ان تصل الجيوش الصليبية الى الشرق الاسلامى اذ اثارت فكرة الحرب الصليبية المشاعر الدينية لدى الجماهير الاوربية المسيحية وشحنتها بالعاطفة الدينية المتطرفة وقد صور قادة الحركة المسلمين فى صورة الكفرة اعداء المسيح والمسيحيين واصطدمت هذه الروح الدينية الجديدة والمتطرفة اول ما اصطدمت بيهود اوربا الرمز الاول للكفر والعدو التقليدى للرسالة المسيحية فى نظر اهل العصور الوسطى من المسيحيين فى اوربا . فمارست الجماهير النائرة الاضطهاد فى شتى صوره ضد الجماعات اليهودية فى محاولة « لتطهير البيت من الداخل » ، كما ادعى بعض زعماء الحركة ، قبل تطهيره من الخارج والداخل هنا يرمز الى يهود اوربا اما الخارج فهو عالم الاسلام والمسلمين . ووقعت التجمعات اليهودية فى اوربا ضحية الفوضى التى استشرت بين القوات الصليبية وعدم انتظامها وانقيادها اثناء خروجها من اوربا متجهة الى الشرق فنهبت وخربت كل ما صادفته فى طريقها وكان يهود المدن الواقعة على طريق الحملات الصليبية اول من تعرض لهذا النهب والسلب . ولم تسلم بعض الجماعات المسيحية من هذا اذ لم يكن فى قدرة الجيوش المتحركة التمييز بين اليهودى والمسيحى وهى فى طريقها الى الارض المقدسة وكانت النتيجة ان عرف اليهودى والمسيحى الارثوذكسى حصد السيف الصليبنى قبل ان يعرفه المسلم .

هذا السلوك من جانب القوات الصليبية المتجهة الى الشرق لا يمكن
 باى حال أن يكون ممثلا للموقف الصليبي الرسمي من اليهود فى
 المجتمعات الأوربية وفى فلسطين . واذا رجعنا الى اقدم الوثائق الصليبية
 الرسمية وهو خطاب اربان الثانى فى كليرمونت لما وجدنا اشارة واحدة
 الى اليهود ومن هنا لا نستطيع التأكيد على وجود موقف رسمى من اليهود
 وان ما حدث يمكن تفسيره على أنه يرجع الى قوى غير عقلانية فى حالة
 جنون من الحماسة المسيحانية خبرت جماهير الصليبيين الشعبية العنيدة
 اليهود بين الروة أو الموت على حد تعبير براور الذى يقول ان « ما بدأ
 كتعبير عن شعور دينى سرعان ما تحول الى مذبح دموية قصد منها
 القضاء التام على الجماعات اليهودية فى ارض الراين » وهى جماعات
 قديمة يعود بعضها الى عصر الامبراطورية الرومانية كما نشأ بعضها
 بناء على طلب بعض الأساقفة المحليين الذين ارادوا تعمير المدن الناشئة
 وتحويلها الى مراكز تجارية بمساعدة اليهود وخبرتهم فى هذا المجال
 وقد ازدهرت بعض هذه التجمعات اليهودية وبلغت شأوا عظيما فى العلم
 وظهرت من بينها مدارس لتفسير العهد القديم وتفسير التلمود . وهكذا
 يبدو أنه لم يكن فى صالح النظام السياسى فى أوربا ولا فى صالح
 الكنيسة ذاتها أن ينتهى الوجود اليهودى فى أوربا . ولكن الكنيسة ومعها
 الدولة لم يستطيعا الوقوف فى وجه ما يشبه بالثورة الشعبية ضد
 اليهود ووجدت كراهية اليهود مخرجا لها فى أعمال النهب والسلب
 التى أصبحت جزءا لا يتجزأ من كل حملة صليبية خلال مائتى عام ؛ فانتهت
 جماعات يهودية بأكملها وقتل كثير من اليهود ممن رفضوا التعميد . ومع
 الحملة الصليبية الثانية وازدياد حركة الاضطهاد ضد اليهود ظهر بين
 اليهود طقس جديد يسمى طقس الاستشهاد قطع فيه الرجال رقاب
 زوجاتهم واولادهم وهم يتلون الصلوات الخاصة بذبح الحيوانات ثم
 يقتحرون هم بعد ذلك . وبهذا الاضهاد الصليبي دخل يهود أوربا فى عصور

الظلمة التي استمرت في بعض المناطق من أوروبا الى بداية القرن العشرين .

ومن الناحية الدينية حرمت السياسة الرسمية للكنيسة التعميد الاجبارى ولم يرض رجال الدين عن الاضطهاد الواقع باليهود اذ كان يهمهم في نفس الوقت الاحتفاظ بالعنصر اليهودى كشهادة على الايمان المسيحى وانتصار الكنيسة . ولهذا نجد بعض الاساقفة حاولوا منع جماهيرهم الناثرة من الاضرار باليهود ولم تمنع هذه المحاولات الفردية من اضطهاد اليهود وان كانت قد خففت من حدته في بعض المناطق . ولكن الجماهير في حماسها غير العقلى لم تصنع لأوامر الكنيسة وجدت المبرر لذلك في خطاب اربان الثانى فى كليرمونت والذى حدد العدو بأنه « الكافر » . وكان المقصود بالكافر هنا المسلمين الا ان الجماهير الشعبية لم تفرق في الكفر بين اليهود والمسلمين واتخذت شعارها تطهير المنزل من الداخل قبل قتال الكفار في الخارج وكان لهذه الحملة الجماهيرية ابطالها امثال فولكمار Volkmar و جوتشوك Gottschalk واميكو Emicho وغيرها . وقد اثارت هذه الاحداث الحساسيات القديمة بين اليهود والمسيحيين فبمجرد الحديث عن « الكفرة » واعداء المسيح ورد ذكر اليهود وخطرت على البال احداث العلاقات اليهودية المسيحية القديمة ورفض اليهود لرسالة السيد المسيح عليه السلام بل واتهامهم بقتله . . . ولا شك في ان كل هذه المشاعر ظهرت من جديد مع الدعوة الجديدة الى الانتقام من « اعداء المسيح » وطبيعى ان تكون العامة اكثر الجميع حماسة واندفاعا الى الانتقام . وفى هذا يقول المؤرخ بولياكوف Poliakov ان المذابح التي تعرض لها اليهود لم تكن من فعل الجيوش الصليبية المنظمة التي قادها البارونات ولكنها كانت من فعل الرعايا الذين لا نظام لهم والذين سبقوا الجيوش المنظمة اثناء الزحف الى الشرق (٥) وقد وجدت هذه الاعمال تشجيعا من بعض الكتاب في

العصر الوسيط الذين عاصروا الحملات الصليبية فيها هو المؤرخ الصليبي Guibert de Nogent يؤكد بل ويشجع على اتخاذ موقف الانتقام من اليهود فيقول : « نحن نريد الذهاب وقتال أعداء الله في الشرق ولكن أمام أعيننا هنا بعض اليهود وهم جنس أكثر عداء لله من أى جنس آخر » (٦) ويقول Richard of Poitiers : « قبل الرحيل الى هذه الأماكن (يعنى الشرق الاسلامى) قضى (الصليبيون) بالذابح على كل يهود الغال فيما عدا هؤلاء الذين قبلوا التحول الى المسيحية وقد قالوا (الصليبيون) انه ليس من العدالة ان نسمح لأعداء المسيح بالبقاء أحياء فى بلادنا وقد حملنا السلاح لطرد الكفار فى الخارج (٧) وما بدأ كثورة شعبية ضد اليهود فى الحرب الصليبية الأولى أخذ شكلا مختلفا مع الحرب الثانية فقد استغل الرهبان الوعاظ من الصليبيين هذا الموقف عقائديا فنجد مثالا Abbe Pierre of Cluny يقول : « ما الفائدة من الذهاب الى نهاية العالم وخسران الرجال والمال لمحاربة المسلمين بينما نسمح لكفار آخرين أننبوا ألف مرة تجاه المسيح عما فعله المسلمون » (٨) وكذلك قال الراهب Rudolf فى المانيا : « فلننتقم أولا للمصلوب من أعدائه الذين يعيشون بيننا ثم نذهب لقتال الأتراك » (٩) . وما لا شك فيه أنه الى جانب هذه الدعوات الواضحة الى الانتقام من اليهود كان هناك أيضا بعض من دعوا الى حماية اليهود من غضب العامة بل لقد ذهب Bernard of Clairvaux الى أبعد من هذا حين استدعى بعض الذين أثاروا العامة للتحقيق مبينا لهم « المخاطر اللاهوتية » لعملهم الانتقامى ضد اليهود : « ألم يخاطروا بأثارتهم للقضاء على اليهود بالقضاء على أهل الكنيسة فى هداية اليهود الى المسيحية » (١٠) .

أما عن الموقف اليهودى من الحركة الصليبية فهو فى حقيقة الأمر موقف تنبئى للغاية على الرغم من كل محاولات براور لاثبات غير ذلك .

ونحن لا ننكر ان تركيز الكاتب على ما لقيسه اليهود من اضطهادات متواصلة طويلة مائتتى عام جعله يتخذ موقفا موضوعيا تجاه المسلمين الا أنه يغالى عندما يحاول تصوير النزاع على أنه نزاع مسيحي من ناحية واسلامى يهودى من ناحية أخرى فنحن نرى أنه ليس هناك مبرر لاعطاء اليهود دورا مشابها لدور المسلمين فى المعارك الصليبية . وذلك بدليل ان حركة المقاومة ضد الصليبيين التى بدأها المسلمون لم تجذب انتباه يهود الشرق أو يهود فلسطين بالذات فلم يقوموا بدور يذكر فى الصراع السياسى العسكرى الدائر حينئذ بين الصليبيين والمسلمين .

حقا لم يفرق الصليبيون بين اليهود والمسلمين فقد كانت النظرة الصليبية الدينية نظرة موحدة تجاه المسلمين واليهود فهم « الكفرة » أعداء المسيح القاطنون فى الأرض المقدسة التى يجب تطهيرها ، خاصة الأماكن المرتبطة بحياة السيد المسيح ومماته وقيامته ، من دنس اليهود والمسلمين . ولكن هذه النظرة الصليبية الموحدة لا تعطى الكاتب الحق فى التسوية بين دور اليهود ودور المسلمين فى النزاع ، فهو يتغاضى تماما عن السلبية التى اتصف بها الموقف اليهودى منذ بداية الحركة الصليبية حيث قبلت الجماعات اليهودية الاضطهاد الذى حل بها . حتى المقاومة التى أبدتها بعض هذه الجماعات كانت مقاومة سلبية بلغت دروتها فى الانتحار الجماعى الذى ارتكبه بعض افراد من هذه الجماعات هروبا من التعميد الاجبارى وان كان التاريخ اليهودى قد اعتاد ان يطلق على مثل هؤلاء الأفراد اسم الشهداء كما فعل المقاتلين اليهود فى الحرب الرومانية اليهودية ٦٦ - ٧٢ ق م . الذين فضلوا الانتحار على السقوط أسرى فى يد القوات الرومانية المحاصرة لقلعة ماسادا ومما لا شك فيه ان هذا الانتحار الجماعى وتفضيل الموت على التحول الى المسيحية تعبير رائع عن مدى قوة الشعور الدينى لدى أفراد الجماعات اليهودية ولكنه فى نفس الوقت لا يعد من باب المقاومة التى أوقفت المد الصليبي أو ساعدت

على تغير سير الأمور فى ذلك الوقت . وانصافا للحق نقول أنه ربما ان الظروف اليهودية فى أوريا لم تسمح فى ذلك الوقت بقيام اليهود بحركة مقاومة منظمة للاضطهاد الصليبي الذى بدأ كتعبير عن شعور شعبى وانتهى الى سياسة منظمة فالوجود اليهودى فى أوريا كان وجودا ضعيفا من النواحي السياسية والاقتصادية فالأوضاع الاقتصادية بالذات لم تكن تسمح لليهود ان يلعبوا الدور الاقتصادى الذى لعبوه أكثر من مرة وفى ظل ظروف أفضل فى تاريخ العديد من الشعوب .

ولكن اذا كانت هذه ظروف الجماعات اليهودية فى أوريا فماذا نقول عن يهود الشرق ويهود فلسطين بالذات ؟ لقد كان عليهم أن يلعبوا دورا مختلفا عن دور رفاقهم فى أوريا نظرا لاختلاف ظروفهم . فبما ان المسلمين كانوا هدف الحملات الصليبية وبما ان اليهود كانوا اول ضحايا التحرك الصليبي الى الشرق فهذا يعنى ان واقع الأمر كان يتطلب نوعا من وحدة الهدف تجمع بين اليهود والمسلمين طالما ان العدو مشترك بينهما وأنه كان على اليهود أن يلعبوا دورا ملحوظا فى حركة المقاومة الاسلامية للغزو الصليبي . ولكن واقع الأمور يشير الى غير ذلك فالمصادر التاريخية اسلامية كانت ام مسيحية بل المصادر اليهودية ذاتها لم تذكر شيئا عن محاولات يهودية للوقوف فى وجه الغزو الصليبي سواء باشتراك مع المسلمين أو فى محاولات يهودية فردية ولا يعطى براور فى دراسته عن عالم الصليبيين أية أمثلة عن المقاومة اليهودية على الرغم من محاولة اللاشعورية لخلق دور لليهود . وهناك عبارة ذكرها براور ومرت دون أدنى تعليق من جانبه وهى عبارة تثير الشكوك فى حقيقة الدور الذى لعبه اليهود فى فلسطين وفى القدس بالذات اثناء دخول الجيوش الصليبية الى المدينة المقدسة فقد ذكر براور ان الجيش الصليبي قد دخل المدينة المقدسة من الحى اليهودى . وهذه الواقعة التاريخية تتطلب

ضرورة اعطاء الوصف الكامل للاحداث التى صاحبت سقوط القدس حتى تتضح لنا دلالة هذه العبارة التى ساقها براور وسنستخدم هنا وصف براور نفسه للظروف التى صاحبت سقوط القدس . يقول براور : « وكان الفصل الأخير من الحملة الصليبية حصار القدس الذى استمر خمسة أسابيع (٧ يونيو - ١٥ يوليو ١٠٩٩) وقد استعدت المدينة لحصار طويل نظرا لأن المدينة محاطة بالوديان العميقة من كل جوانبها فيما عدا الجانب الشمالى ونصب الصليبيون معسكراتهم حول الأسوار الشمالية والغربية والجنوبية للمدينة ولكنهم فشلوا فى اغلاق المدينة من الشرق (بين ساحة الهيكل وجبل الزيتون) وقد تصوروا ان الحصار سيكون عاديا ولكن سرعان ما اتضح ان قواتهم سوف لا تستطيع تنفيذ مهمتها بسهولة ولم يكن هناك شىء أكثر مناسبة لمناخ هذا الفصل الأخير من ملحمة الحملة الصليبية الأولى سوى حدوث بعض الرؤى الالهية واشتراك القديس جورج فى المعارك ٠٠٠ وهنا كان قادة الحملة الصليبية أبطال مئات المعارك والمقاتلون المحنكون يسألون نصيحة راهب عاش فى أحد كهوف جبل الزيتون عن كيفية الاستيلاء على المدينة فالغارات الفاشلة على الأسوار وموكب المشاة حولها وتوقع سقوطها كما سقطت أسوار أريحا ٠٠ كل هذا اثبت عدم جدواه فقد مضت خمسة أسابيع قبل ان تكون آلات الحصار مستعدة وقد شن هجوم عام فى يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ م ففى وقت الظهيرة ، ساعة الصלב التقليدية ، نجح برج المحاصره التابع لجودفراى فى الاقتراب من الجانب الشرقى لل سور الشمالى وانزل كوبرى على رأس الشرقات ودخل الجيش المدينة من الحى اليهودى ٠٠٠٠ »

يتضح من هذا الوصف الذى قدمه براور ان الاستيلاء على القدس لم يكن امرا سهلا ، وكانت النتيجة الحتمية ان سقطت بقية اركان المدينة للقادة

الصلبيين المحيطين بها . وإذا أضفنا الى هذا عبارة أخرى فى نفس الصفحة وهى تخص السكان المسيحيين لبیت لحم لأدركنا مدى سلبية كل من يهود ومسيحيي القدس والمدن المجاورة . يقول براور فى موضع سابق : « وكانت الحملة الصليبية تقترب من نهايتها ووصل وفد مسيحي من بیت لحم وطلب الحماية فقد أصبح وجودهم مهددا بالتعصب الاسلامي والرغبة فى الانتقام وامتطى تانكرد صهوة جواده ليلا وفى الصباح التالى رفرغ علم نورماندى على كنيسة الميلاذ قبل ان يدخل أى غربي مدينة القدس المباركة » . ولا ندعى هنا ان موقفا موحدا قد اتخذ من جانب اليهود والمسيحيين فى فلسطين فى ذلك الوقت فالواضح ان كل جماعة قد تصرفت بمفردها اذ ليس هناك ما يدعو الى اتحادهما فى هذه اللحظة . والنتيجة التى نصل اليها من مثل هذه التصريحات هى أن الموقف اليهودي بالذات كان موقفا سلبيا للغاية فى المقاومة والدفاع عن المدينة المقدسة وان الحى اليهودي كان نقطة الضعف التى استفاد منها الصليبيون المحاصرون للمدينة والتى شقوا منها طريقهم الى بقية جوانب المدينة وأسوارها . ومن هنا فنحن لا نرى دليلا مقنعا على ان اليهود لعبوا أى دور يذكر فى تاريخ الوجود الصليبي فى فلسطين وانه اذا كان هناك دور فهو سلبى للغاية . كما توضح الأدلة التى سردناها .

الأسس الدينية للحركة الصليبية

وإذا كنا نختلف مع براور فى نظريته للموقف اليهودي من الحركة الصليبية الا أننا نجد أنفسنا متفقين معه فى التحليل الذى يقدمه من خلال بحثه لكى يثبت ان الحركة الصليبية لم تقم على أسس دينية قوية كما ادعى أصحابها أو كما يبدو من المظاهر الخارجية للحركة . ومن هذا التحليل لدوافع الغزو الصليبي للشرق الاسلامي يتضح كيف لبست الحركة الرداء الدينى الذى ظهرت به امام الجماهير الأوربية لتكسب

عطفها وتأييدها ولتكسب أيضا عون رجال الكنيسة الروحية والمادى فى نفس الوقت .

والمتتبع للحركة الصليبية منذ بدايتها وانطلاقها الى الشرق يستطيع ان يميز عدة براهين وأدلة على ابتعاد الحركة ومؤسسيها عن أهداف الدين وعلى وجود دوافع سياسية واقتصادية اختفت وراء الدوافع الدينية لكي تحقق مآربها فى ظل حماية الدين وتشجيع رجال الكنيسة ومعونتهم . ومن أول هذه الأدلة موقف الجيوش الصليبية كجيوش ممثلة للمسيحية الغربية من المسيحية الشرقية وأتباعها . فهذا الموقف يؤدى الى الاعتقاد فى أن القضاء على مسيحية الشرق كان أحد أهداف الغزو الصليبي ولا نكون مغالين اذا ألحقنا أتباع المسيحية الشرقية الى قائمة « الكفرة » الذين تحدثت عنهم المصادر التاريخية الصليبية . ويبدو من سلوك القوات الصليبية المنظمة وغير المنظمة فى المناطق المسيحية التى تم فتحها فى الطريق الى الشرق الاسلامى ان هذه القوات لم تكن ملتزمة بسلوك مسيحي أخوى تجاه السكان المسيحيين . وحتى قبل ان تخرج هذه القوات من أوروبا بدأت فى نهب السكان وسلبهم بمجرد انتهاء المؤن وقد حدث هذا فى فرنسا وألمانيا وبوهيميا وفى المجر والبلقان حيث تصرفت الفرق السائرة كجيش غاز فى مقاطعة العدو مما اضطر أهل المجر مثلا الى تنظيم المقاومة المسلحة والدخول فى معارك ضد الجماعات الصليبية التى قامت بأعمال السلب والنهب . كل هذا والقوات الصليبية لا تزال تصير فى أرض مسيحية غربية ، ويزداد الأمر سوءا مع دخول القوات الصليبية الى أرض المسيحية الشرقية فى البلقان ، وهى من أراضي الامبراطورية البيزنطية ، اصطدم الصليبيون باختلاف العادات الدينية وغير الدينية واختلاف اللغة . . . وقد حول هذا لقاء مسيحية الغرب بمسيحية الشرق الى واقعة عسكرية على حد تعبير براور ولجا البيزنطيون (م ١٧ - عالم الصليبيين)

الى وسائل عدة للتخلص من أعمال السلب والنهب فأمدوا الصليبيين بالطعام والمؤن حتى يتجنبوا شرم بل ولجأوا الى ارسال قوات تكونت غالبا من الاتراك الذين يعملون في خدمة البيزنطيين لقمع عصابات النهب الصليبية وأصبح الطريق الى القسطنطينية تميزه القرى المحترقة والمدن المنهوبة والجثث الملقية على مارة الطريق . . الى هذا الحد عانت بيزنطة من سوء سلوك الفرق القادمة من الغرب المسيحي والتي كان من المفروض انها قادمة لنجدة بيزنطة والمسيحيين بها . وقد نجح الامبراطور الكيسوس كومينيوس في ان ينتزع وعدا بالحفاظ على حقوق امبراطوريته في الغزوات الصليبية التالية داخل المقاطعات البيزنطية السابقة . وقد اضطر الامبراطور الى استخدام الحيل والتهديدات والرشوة للحصول على هذا الوعد بعد ان امد القوات الصليبية بالمرشدين وبالمال والامدادات ونقلهم عبر المضائق الى الاراضي الآسيوية .

وقد اشار سير الاحداث فيما بعد الى ان الصليبيين لم يكونوا جادين في اقامة تحالف مسيحي مع بيزنطة مع ان بيزنطة أبدت منذ البداية استعدادها للتعاون وكان اسطولها على استعداد للتحرك الى مصر . ولم يدم التحالف طويلا فقد اعتقد الصليبيون انهم يستطيعون بمفردهم احراز النصر والانفراد بالمكاسب . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل لقد طمع الصليبيون في أملاك بيزنطة وسعوا الى ضمها لاملاكهم . وقد اقنع الكيسوس الرابع انجيلوس الصليبيين في الحملة الرابعة بغزو القسطنطينية واعادته الى السلطة واعدا القادة الصليبيين بوضع موارد بيزنطة تحت تصرفهم بالاضافة الى مكافأة مجزية للجيش وقد وجدت البندقية في هذه الفكرة فرصة عظيمة لتوطيد نفسها في بيزنطة فتم لها بهذا السيادة على أعظم المراكز التجارية في العالم . ولم يكن هذا القرار المتخذ ضد القسطنطينية ممكنا لولا العداء الموروث بين الغرب والامبراطورية البيزنطية والذي بدأ ظهوره خلال الحملة الاولى ثم سرعان

ما تحول الى عداوة صريحة خلال الحملة الثالثة عندما اتهمت بيزنطة صراحة بالتستر على صلاح الدين . ويعتقد براور أن الفكرة الأساسية ربما كانت إجبار بيزنطة على الدخول في تحالف لمساعدة المملكة الصليبية الا ان الحملة غيرت من هدفها بعد حطول الصليبيين في القسطنطينية وعندما لم ينفذ الكسيوس الرابع انجيلوس وعده عصف الصليبيون بالمدينة في ابريل ١٢٠٤ وتأسست مملكة القسطنطينية اللاتينية واصبح بلدوين أول امبراطور للمملكة الجديدة واصبح أحد البنادقة أول بطريرك لاتيني لها وقسمت الامبراطورية ، مثلها مثل كل الاسلاب ، بين المنتصرين .

اذن كان تقويض الوجود البيزنطي المسيحي أحد الأهداف الأساسية للحركة الصليبية ولأن هذا الهدف لم يكن معلنا عنه في أوربا فقد اثار هذا السلوك الصليبي تجاه بيزنطة المسيحية غضب الرأي العام الأوربي للهجوم الذي شنه الصليبيون على الامبراطورية المسيحية حيث فضل الكثيرون الرحيل الى القسطنطينية الغنية والأقل خطورة من الوجود الصليبي في الأرض المقدسة . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد من الاخضاع السياسي لبيزنطة ولكن بدأ تدهور الوجود المسيحي الارثوذكسي وتعرض للخطر بسبب الوجود الصليبي . ولناخذ مثالا على ذلك بالطائفة اليونانية التي كانت من أكبر التجمعات المسيحية في الشرق وقد تركزت قوتها في المقاطعات الشمالية وبخاصة في انطاكية وكان لها وجود قوى في المملكة اللاتينية في فلسطين وكانت كنيستها قبل وصول الصليبيين من أغنى الكنائس المسيحية في الشرق وأكثرها نظاما تحت الحكم الاسلامي ومن المحير أن الصليبيين الذين أقسموا في كليرمونت على تحرير المسيحيين الشرقيين من خطر الاسلام يتحولون الى منافسين على الحكم ويصارعون من أجل وضع المسيحيين الشرقيين تحت سيادتهم السياسية ووضع الكنيسة الشرقية تحت سيادة الكنيسة اللاتينية . فاليونان

لم يكونوا هراطقة من الناحية العقائدية بل كانوا فى رأى اللاتين منشقين فقط ومتفصلين عن روما مؤقتا كما تعشم اللاتين الذين لم يكونوا يتصورون موقفا يكونون فيه تحت سيادة رجال الدين اليونان . كما لم يكن ممكنا على أساس لاهوتى تصور قيام سلطة دينية موحدة يونانية لاتينية . ونتيجة لهذه التطلعات حل بطريرك لاتينى مكان البطريرك اليونانى فى انطاكية والقدس بعد الغزو الصليبي مباشرة كما خلع الصليبيون أساقفة الكنيسة الارثوذكسية اليونانية واصلحوا خلوا الكراسى الأسقفية ثم عينوا أساقفتهم وطالبوا رجال الكنيسة اليونانية بالاعتراف والخضوع للبطاركة والأساقفة اللاتين الجدد .

وقد أدت هذه القرارات الى زيادة حدة الصراع الدينى بين اليونان واللاتين واضطر رجال الدين اليونان الى الانسحاب والرجوع الى القسطنطينية بعد حرمانهم من كراسيهم الأسقفية وتوالى وصولهم الى العاصمة البيزنطية كأساقفة اسميين للبلاد التى هزمها الصليبيون بينما بقيت الطبقات الدنيا من رجال الدين فى المقاطعات الصليبية معلنة خضوعها الأسمى للكنيسة 'اللاتينية' . وقد مرت الكنيسة اليونانية بمرحلة تدهور فى ظل الحكم الصليبي حيث تعرضت للاضطهاد الصليبي المستمر . ومن وجوه هذا الاضطهاد ان تأسيس الكنائس اللاتينية فى الشرق كان يصحبه عادة ائتلاف وتخريب الكنائس اليونانية . وقد اتضح هذا فى الكنائس الكبيرة وفى المدن بالذات وقد وجدت هذه الأعمال تبريرا لها فى ان اللاتين هم الوريث الشرعى للاملاك اليونانية السابقة كما اعتقد .

وبالاضافة الى هذا الموقف الذى اتخذته الصليبيون من الكنائس الشرقية عامة ، على الرغم من دعوى تحرير المسيحيين الشرقيين من خطر الاسلام ، نجد كثيرا من المظاهر التى تعطى لنا صورة عن الافلاس الايديولوجى للحركة الصهيونية والاضطراب المعنوى الذى عانى منه

الصليبيون والذي يدل فى نفس الوقت على ان الاسس الدينية التى ادعاها القادة الصليبيون أسس واهية كما ان شعار تحرير الأرض المقدسة لم يكن الا شعارا زائفا سقط عند أول اختبار . فالطريق الطويل الشاق الى الشرق واللوان المعاناة والأمراض التى عانت منها القوات الصليبية خاصة خلال حصار انطاكية ٠٠ كل هذا سبب نوعا من الاضطراب المعنوى بين صفوف الصليبيين فنشبت الصراعات بين قادة الصليبيين وظهرت اطماعهم الحقيقية حيث بدأت التحديات بين بوهيموند مخطط نصر انطاكية وريموند حيث ادعى كل منهما المدينة لنفسه متجاهلين الاتفاق المفقود مع الامبراطور البيزنطى . واثناء هذا الصراع انطلق القادة الصليبيون والرؤساء والفرسان الى الريف المجاور لانطاكية كل يحاول ان يحصل لنفسه على بعض الاملاك الخاصة ونظرا لضعف مقاومة الوطنيين سرعان ما أصبحت القرى والمدن وقلاع افرنجية وقد اعجبته الحياة فى انطاكية وضواحيها أضحت اقامة دائمة وساد الاحساس بان انطاكية قد حلت محل القدس كما ان نهر العاصى اخذ مكانة نهر الأردن فى عيون الصليبيين . ولولا يقظة المستويات الشعبية من افراد الصليبيين وحماسهم الدينى الذى ادى الى ثورتهم ضد زعمائهم وقادتهم لاستقر هؤلاء فى انطاكية واصبحت نهاية المطاف بالنسبة لهم ؛ ان لم يتنازل القادة عن اطماعهم وصراعاتهم الا عندما هدد فقراء الصليبيين بحرق انطاكية وهدم اسوارها اذا لم تتحرك الجيوش الى القدس .

نتيجة لهذه المواقف التى اتخذها القادة الصليبيون بدأت تظهر فى أوروبا موجة من التآمر بسبب سلوك الصليبيين تطورت الى نقد شديد للحركة اخذ الطابع الهجومى فى البداية ثم تحول بعد ذلك الى تحليل جاد للأزمة الايديولوجية التى وقعت فيها الحركة وقد بدأ البعض يتساءل عن الالهام الالهى الذى ادعاه الصليبيون وفى ظل هذا النقد بدأ الاستعداد للحملة الرابعة التى اشارت اكثر من غيرها الى عمق الانقلاص الايديولوجى

للحركة فقد أثبتت الحملة الرابعة أكثر من غيرها ان الاطماع المادية هي التي تحرك القادة الصليبيين فبعد سنوات من الاستعداد تجمعت قوات الصليبيين في البندقية وبعد عام تم حصار القسطنطينية المسيحية وبدأت حملة من الاتهامات والاتهامات المضادة بين قادة الجيوش الصليبية . ولا يزال المؤرخون يبحثون عن الأسباب التي دفعت بالقوات الصليبية الى الاستيلاء على القسطنطينية المسيحية وهي ليست هدفا للحملة وليس هنا سبب واضح سوى اطماع القادة وخاصة بارونات الشمال بالاضافة الى الاطماع الخاصة بالبنادقة حيث أصبح بلدوين اول امبراطور لمملكة جديدة هي مملكة القسطنطينية اللاتينية كما أصبح أحد البنادقة اول بطريك لاتيني للمدينة كما أسست البندقية امبراطوريتها البحرية في بحر أيجة على حساب القسطنطينية المسيحية .

وتعطينا الحملة الخامسة مثالا آخر . فقد وضحت هذه الحملة الصراع الخفي بين الكنيسة والدولة والذي تمثل في التحدى الصارخ لسلطة البابوية والذي أبداه الامبراطور فردريك الثاني . فقد حمل فردريك القسم الصليبي منذ عام ١٢١٥ م ولكنه ظل يؤجل حملته عاما بعد عام مدعيا اعتقال صحته ووجود مشاكل تواجه حكمه في مملكة صقلية وفي الامبراطورية . وأخيرا عزم فردريك الثاني على البر بقسمه ولم يكن هناك مفر من ذلك لأسباب عدة منها قسمه الصليبي وكونه امبراطورا في عالم مسيحي ثم لقبه كملك القدس من خلال زواجه من ازابيلا وريثة الملكة . وهكذا فرضت هذه الحملة نفسها فرضا على فردريك الثاني وقد زادت الظروف السياسية من غرابة هذه الحملة فقد حدث ان تبرم الباسا جريجورى التاسع من تقاعس فردريك الثاني وعدم بره بما حمله من اقسام صليبية فأصدر قرارا بحرمان فردريك الثاني وقد كان هذا ، على حد تعبير براور ، الفصل الأول في مشهد غريب : الامبراطور المحروم حاكم العالم المسيحي يقود حملة صليبية الى الشرق . ولئن هنا

فقد تصرف فردريك الثانى بطريقة لا تظهر اى التزام بالكنيسة او احترام للسلطة البابوية اذ اتصل فردريك الثانى بالملك الكامل حاكم مصر فى محاولة للدخول معه فى معاهدة وادى نجاحه الى زيادة غضب البابا وتقدم فردريك الثانى الى القدس واستولى عليها دون اشتراك قوات النظم العسكرية وقد أسكتت أجراس المدينة وأصبحت المدينة المقدسة مدينة محرمة لان فاتحها ملك حكمت عليه الكنيسة بالحرمان . ومع عودة فردريك الثانى الى اوربا رفع عنه البابا قرار الحرمان الا ان الملكة الصليبية عانت الأمرين من الصراع بين ممثلى الامبراطور وممثلى البابا والاستقرارية الصليبية . وبدأ تحلل الملكة داخليا وتحولت الى اقطاعية كبيرة فى يد قلة حاكمة .

وهكذا وضحت الحملات الصليبية بصفة مستمرة عدم التناسق بين الدين والدولة وتصارع المثل الدينية والأطماع العلمانية وتفاقم النزاع بين البابوية من ناحية وحكام الملكة الصليبية من ناحية اخرى بالاضافة الى اظهار الصراع بين الواقدين الجدد من الصليبيين مع كل حملة صليبية جديدة والاستقرارية الصليبية التى استقرت فى الملكة منذ الحملة الاولى وكيف ان الحكم قد تركز فى يد اقلية اقطاعية حاولت ان تقيم فى الشرق ما لم تستطع تحقيقه فى بلادها . فقد تكالب الحكام الصليبيون على انشاء الاقطاعات الجديدة فى ارض بعيدة لأمرأء ونبلاء ازدهمت بهم اوربا ولم يجدوا مكانا داخل النظام الاقطاعى الأوربى العتيذ .

وبالاضافة الى هذا توافرت بعض الأمور الأخرى التى تجعلنا نحكم على الحركة الصليبية بأنها لم تكن حركة دينية أصيلة ولكنها كانت حركة سياسية معبرة عن واقع اوربا السياسى فى ذلك الوقت ليست رداء الدين لتحقيق مطامع سياسية اقتصادية ولتفتح المجال أمام نبلاء اوربا وترفع من شأن الاقتصاد الأوربى فى نفس الوقت . ومن هذه الأمور التى تثير

الشك حول الأصول الدينية للحركة الصليبية أنه من بين الاقطاعات العديدة التي تم تكوينها في المملكة الصليبية في فلسطين لم تنشأ اقطاعات دينية تناسب الادعاء الديني والمساندة البابوية للحملات الصليبية وتوافق الشكل الديني الظاهري الذي اخذته الحركة والشعارات التي تشدقت بها من تحرير للارض المقدسة واستعادة بيت المقدس وتاديب « الكفرة » الى آخره من النداءات التي اعطت الحركة شكلها الديني الذي ظهرت به امام الراى العام الأوربي . وهنا يجب ان نشير الى انه كان من المتوقع بعد قيام المملكة الصليبية ان نرى المملكة تنظم على شكل يعكس الدعاية الدينية السابقة للحركة ويعبر عن الدعوى الدينية التي انطلقت الحملة الصليبية لتنفيذها ولكن ما حدث عدم جدية هذه الدعوى وظهرت الايديولوجية الصليبية على حقيقتها وتم الاستغناء تماما عن كل التطلعات المسيحانية والآمال الكنسية وبدأت عملية تنظيم شؤون المملكة الجديدة في الاراضى المهزومة على اساس النظام الاقطاعى الأوربي فقد نظم الصليبيون دولتهم وفقا للتراث الذى نقلوه معهم من اوريا على الرغم من ان الظروف الاقتصادية الجديدة هيات للقادة الصليبيين فرصة الابتعاد عن تطبيق النظام الاقطاعى الأوربي فى الشرق . فبعد جيل كامل من الصعوبات والمشاكل نتج عن ادخال الاقطاع كنظام حكومى ان قسمت المملكة الى عدد من الاقطاعات الاميرية التابعة للتاج فى القدس وكان واضحا منذ البداية ان اللوردات والبارونات الصليبيين كانوا اكثر انتظاما وتديريا من رفاقهم الأوربيين نتيجة لحالة الطوارئ المستمرة من ناحية ونظرا للبناء الاجتماعى الغريب لنبل الصليبيين حيث ان معظم الذين قرروا البقاء فى الارض المقدسة لم يكونوا يقيمون اصلا الى البيوتات الكبيرة من بيوتات نبلاء اوريا بل كانوا فى معظم الاحوال من طبقة فرسان اقل فى نبالتها من طبقة النبلاء الذين اغتصت بهم بلاطات الحكام الأوربيين . وقد سهل هذا مهمة الحكم اذ لم يجد الملك الحاكم فى

القدس معارضة من البارونات خلال الجيل الأول من الوجود الصليبي .
 وظلت الاملاك والاقطاعات الملكية واسعة وغنية . ولكن الظاهرة الغربية
 هي انه على الرغم من الدوافع الدينية التي ادعاها الصليبيون خلت المملكة
 الا من القليل جدا من الاقطاعات الدينية وقد كانت على قلتها صغير وفقيرة
 ومحصورة في بعض بقاع من الد وبيت لحم والناصره .

ومن الامور الأخرى التي تؤكد علمانية الحركة الصليبية غياب
 التبشير الديني بين سكان فلسطين من مسلمين أو يهود فالادارة الصليبية
 لم تبذل أى جهد يذكر في هذا الاتجاه . ولا شك ان الرغبة في تحرير
 الأرض المقدسة من قبضة « الكفرة » كان لابد وان تتلوها محاولة تحويل
 هؤلاء « الكفرة » وهدايتهم الى المسيحية لو كانت هذه الرغبة أصيلة في
 نفوس القادة الصليبيين . ولكن الظاهرة الواضحة ان الصليبيين في
 الأرض المقدسة لم يهتموا بالتبشير للمسيحية بل لقد عزلوا عن الوطنيين
 ولم يختلطوا بهم اجتماعيا وتركوهم لشأنهم فيما يتعلق بآدارة شؤونهم
 الداخلية ولم يفرضوا عليهم أى نظام خارجي فيما عدا بعض الأمور
 المتعلقة بالحكم والادارة . وقد كان هذا قرارا خطيرا كان من نتيجته
 هجر أى عمل تبشيري منظم على مستوى المملكة ككل بين المسلمين أو
 اليهود أو حتى بين المسيحيين الشرقيين . وهذا هو السبب المباشر في ان
 الأرض المقدسة ، على الرغم من وقوعها تحت السيادة الصليبية الا انها
 لم تصبح مسيحية . فقد ظل غالبية سكان غير مسيحيين . ويعلق براور
 على هذه الظاهرة التي يعتبرها غريبة بقوله : « ومرة أخرى يصطدم المثال
 بالواقع ويملى الواقع شروطه القاسية للاستسلام . فقد كانت هناك فرصة
 ان تعود الساعة ثلاثة مائة عام الى الوراء . ويعاد خلق الدولة المسيحية
 كما وجدت تحت الحكم البيزنطي قبل ان يقهرها القرسان البعرو القادمون
 من اعماق الصحراء ليقبضوا الحكم الاسلامي . ولكن الصليبيين
 لم يستغلوا هذه الفرصة فالتحويل الى المسيحية لم يكن أبدا هدفا من

أهداف الصليبيين ولا جزءا من برنامجهم كما لم تسمح موجات الهجرة الأوربية بالتغطية على السكان الوطنيين ، • والحقيقة أن سياسة عدم التدخل في شؤون الوطنيين التي اتبعتها الإدارة الصليبية أدت إلى عدم أحداث أى تغيير جذرى فى النظام الإدارى الإسلامى السابق على قيام المملكة الصليبية ومن الناحية الدينية ضمنت الجماعات الدينية والطوائف المختلفة استقلالها الدينى فى ظل الحكم الصليبي • وقد ساعد على ذلك غياب الاهتمام الدينى لدى جماعات الصليبيين وخلو غزوهم من الهدف التبشيري هذا وإن لم تسلم بعض الطوائف من مضايقاتهم كما ذكرنا من قبل •

أما التبشير كحركة منظمة فلم يبدأ إلا بعد قرنين من سقوط عكا ومع اكتشاف العالم الجديد • ومع ذلك الوقت كانت فكرة الحرب الصليبية قد ضعفت وانتهى عهدا ولكنها لم تمت تماما حيث استمر العداء بين الغرب والشرق ولكن الظروف غيرت فكرة الحرب المقدسة من هجوم مسلح على الإسلام إلى حرب للدفاع عن المسيحية ضد قوى الإسلام المحيطة بها خاصة وأن الإسلام فى ذلك الوقت كان يمثلته العرب من أهل الشرق والأتراك العثمانيين أيضا ويمكن القول هنا بأن هذا التغيير ربما كان تأثيرا إسلاميا مباشرا على التفكير المسيحي حيث اقتبس المسيحيون فكرة الجهاد الإسلامية ولا تستطيع تحديد الفترة الزمنية التي تم فيها اقتباس هذا المبدأ الإسلامى إذ من الممكن أن يكون المسيحيون فى أوربا قد عرّفوا من اختلال احتكاكهم العسكرى بالمسلمين خلال فترة الحروب الصليبية وربما كان أيضا من نتائج الاحتكاك المسيحى بالإسلام فى الأندلس ومهما كان الأمر فإن المواجهة الجديدة بين المسيحية والإسلام ارتبطت بحركة التبشير التي كانت عنصرا غائبا فى سياسة الصليبيين • ويمكن القول بأنه إذا كانت الحركة الصليبية قد هجرت التبشير بين المسلمين إلا أن الحركة التبشيرية التي بدأت بعد ذلك كانت واحدة من

النتائج غير المباشرة للحركة الصليبية • فشل هذه الحركة وافلاس
الايديولوجية الصليبية والنقد اللاذع الذي تعرض له الصليبيون • كل
هذا كان له دوره الهام في وضع نهاية للحروب الصليبية ولكنها لم تضع
نهاية للعداء بين الغرب المسيحي والشرق الاسلامي • وقد تسبب هذا
النقد في تحويل العلاقات المسيحية الاسلامية من علاقات حرب عنيفة
لا تبشير فيها الى حرب تبشيرية عنيفة • فقد عارضت الطبقة الاوربية
الثقافة الايديولوجية الصليبية ابتداء من الحملة الصليبية الثانية وبدأت
توجه تقدما لقادة الحركة ولتورط البابوية فيها والى جانب المثقفين
عارض كثير من النساك والرهبان والمثبطين من المسيحيين سياسة
الحملات الصليبية المتتالية وراوا فيها انتهاكا لرسالة الحب والسلام التي
هي من صلب الدعوة المسيحية وابدوا شكوكهم فيما ادعاه الصليبيون
من الهام الهى لحركتهم وذلك لان سفك الدماء يناقض التعاليم الانجيلية •
ومن داخل هذا النقد بدت فكرة جديدة وهي التبشير بالانجيل للمسلمين
وتحويلهم سلميا الى المسيحية • وقد بدأت هذه الحركة التبشيرية بحملة
علمية ترجم القرآن الكريم على اثرها الى اللاتينية حتى يتمكن علماء
الغرب المسيحي ورجال الدين من قراءته وفهم الاسلام للرد عليه ومهاجمته
وسرعان ما انشئت مدارس اللغات الشرقية في الجامعات المشهورة في
اوربا في ذلك الوقت لمعرفة لغات العالم الاسلامي واللغة العربية على
وجه الخصوص وقد خرجت هذه المدارس اجيالا متعاقبة من المبشرين
والوعاظ الذين حملوا رسالة التبشير وانتشر الدومنيكان والفرنسيسكان
في ربوع العالم الاسلامي يبشرون ويعظون ويجادلون ويعمدون بانئين
بهذا حركة تبشيرية واسعة النطاق ارادت غزو العالم الاسلامي بالكلمة
بعد ان فشل السيف في فرض السيادة الغربية المسيحية ووضعت اساسا
نظريا علميا للمواجهة مع الاسلام بدلا من المواجهة العسكرية التي تبناها
الصليبيون •

وبعد ٠٠ فقد قدمنا في الصفحات السابقة بعض المظاهر التي دللنا بها على عدم صحة الدعاوى الدينية التي تبناها زعماء الحركة الصليبية في محاولة منا لإثبات الاسس السياسية الاقتصادية للحملات الصليبية وبقي ان نضيف الى هذه الأدلة آراء علماء اللاهوت والمفكرين المعاصرين للحروب الصليبية في صلاحية هذه « الحملات العسكرية وشرعيتها والحق ان أشهر رجال اللاهوت المسيحي في العصر الوسيط أمثال لومبارد Lombard واكويناس Aquinas وبوناڤنتير Bonaventure لم يتعرضوا في كتاباتهم اللاهوتية لمسألة شرعية أو عدم شرعية الحروب الصليبية . ولا نعلم ان كان هذا الصمت من جانبهم يعنى موافقتهم على الدعائم الدينية التي استندت اليها الحركة الصليبية حتى ان أحد رجال الدين المسيحي المعاصرين وهو الأب ادوارد سنان علق على هذا الأمر بقوله : « انه اذا كان معظم المسيحيين المعاصرين يعتبرون الحروب الصليبية فضيحة فان غياب الحديث عنها في الأعمال اللاهوتية العظيمة في العصور الوسطى يعصب لنا بعض الاضطراب » (١١) ويوجه سنان نقده بالذات الى توماس اكويناس اذ كان من المتوقع ان يمرض اكويناس لموضوع الحروب الصليبية في عمله الرئيسي Summa Theologia . وكان أخوه الأكبر ايمون Aimone

قد انضم الى صفوف الصليبيين واشترك في حملة فردريك الثاني ووقع في الأسر عام ١٢٢٢ والغريب ان المسيحيين في قبرص هم الذين أسروه وطلبوا منه فدية وقد توسط له وانتقذه البابا جريجورى التاسع في ١٢٢٢م ولتوماس اكويناس أخ آخر يدعى رينالدوس Raynaldus وهو من التروبادور وقد انضم الى البابا ضد الامبراطور ودفع حياته ثمنا لولائه للبابا . كل هذه الأسباب كانت كافية لكي يهتم توماس اكويناس بالحروب الصليبية ولكنه تجاهلها تماما والاشارة الوحيدة اليها تبين انه كان يعتبر الحروب الصليبية امرا لا غبار عليه ففي هذه الاشارة يدافع

اكويناس عن حق نظم الرهبنة العسكرية كفرسان الداوية **Templars** والامتبارية **Hospitallars** في الوجود على أساس ان الكنيسة اعتادت ان تفرض على الراغبين في التوبة فرصة الاشتراك في حملة لمساعدة الأرض المقدسة ويعتبر الموت بعد العودة من الأرض المقدسة والوفاء بالقسم الصليبي أفضل من الموت أثناء الذهاب . وينتهي الباحث الى ان الراغب في معرفة الآراء الخاصة بشرعية الحروب الصليبية عليه ان يبحث عن ذلك بعيداً عن كتب اللاهوت (١٢) .

وقد لقيت الحروب الصليبية معارضة من الرأي العام الأوربي عبر عنها في كتابات مختلفة ففي **The Wurzburg Annals** لعام ١١٤٧ نقراً : « قضى الله على الكنيسة الغربية ان تعذب بذنوبها لأن بعض الأنبياء الكذبة ٠٠٠ أساءوا هداية المسيحيين وأغروهم بالكلمات الخاوية والوعظ الباطل وأجبروا كل الجنس البشري على الخروج ضد المسلمين من أجل تحرير أورشليم » (١٣) ويعلق **Gerhoch of Reihersberg** على خسائر الحملة الثانية بين الفرق الألمانية والفرنسية من الجيش الصليبي متعجباً بقوله : « أورشليم ٠٠٠ أورشليم ٠٠ قتلت ورجعت الأنبياء الذين أرسلوا اليها ٠٠ ماذا كنت تنوين فعله لتزيدى قتلى جدد ، من المسيحيين هذه المرة ، الى القتلى القادمى » (١٤) ومن النقد الذاتى نجد أحد المسؤولين عن الحملة وهو **Abbot Bernard of Clairvaux** يقول معلقاً بعد فشل الحملة : « ٠٠٠ الرب اثارت ذنوبنا فأدان العالم قبل الأوان وقد أدانته فى عدالة ولكن بدون رحمة اذ انه لم يبق على شعبه ولم ينقذ اسمه أليس يقولون بين الأمم : أين هو الههم ؟ » (١٥) .

وبعد عامين من سقوط القدس كتب رالف نجر **Ralph Niger** حوالى ١١٨٩ م ينقد الاستعداد للحملة الصليبية الثالثة للأسباب التالية وهى ان الالحاد والهرطقة فى أوربا تهدد الديانة المسيحية أكثر من

خسارة أورشليم الأضية في فلسطين ويقول : ما الفائدة ان تبني اورشليم الأرضية بينما امنا صهيون تنهار وما الفائدة ان تتحرر فلسطين من المسلمين ويتنشر شر الكفر في الداخل وبينما نهاجم الكفر في الخارج تداس طهارة الايمان تحت الأقدام ويسخر بها في الداخل ، (١٦) و رالف هنا يشير الى حركات الالحاد والهرطقة التي انتشرت في أوروبا في ذلك الوقت والتي اعتبرها أكثر خطورة على المسيحية من خطر الاسلام .

ويعطى رالف سببا آخر يتعلق بمعنويات السكان المسيحيين في فلسطين فقد تدهورت أخلاقياتهم وأصبحت حياتهم الدينية لا تتعدى المظاهر الشكلية لأسباب كثيرة منها الثراء الفاحش والترف الذي ينعم فيه رجال الدين وبخاصة البطريرك الذي جاء على حد تعبيره يشحذ في الغرب لمساعدة المسيحيين ضد المسلمين وهو نفسه غير مستعد لرفع اصبع او ان ينفق من ماله الخاص ضد المسلمين . لقد فقدت الأماكن المقدسة في رأى رالف بسبب ذنوب المملكة اللاتينية ومنها الخيانة والتعاون مع العدو المشترك لدرجة تسليم صليبيين غربيين اليه . والسبب الثالث الذي يقدمه رالف هو ان فلسطين أصبحت ملجأ لمجرمي الغرب والهاربين من العدالة ولم يمدح رالف أحدا في المملكة اللاتينية في الشرق سوى النظم العسكرية اما البقية فتستحق ما وقع بها من مصائب في فلسطين ، اما بالنسبة للمسلمين فقد تحدث رالف في صالحهم وضد شرعية الحروب الصليبية فهو يقول « ربما كان أمن المسلمين وسلامتهم من ارادة الله وذلك لان الأرض جميعها ملك لله يعطيها لمن يشاء ويأخذها ممن يشاء » (١٧) .

ولا يعنى هذا ان رالف لا يود هزيمة المسلمين ودخولهم في المسيحية ولكنه ساخط على السلوك الصليبي واستخدام الحرب كوسيلة لقهر المسلمين . وينصح رالف بضرورة غزو المسلمين بالكلمة حتى يدخلوا المسيحية عن طواعية « لأن من يسعى لنشر الدين بالقوة والضعف فهو يذهب بعيدا عن الدين بالاضافة الى ان الله لا يريد موت الآثم والمسلمون

بشر مثلنا ومن المعقول ان نرد هجومهم ولكن يجب ان نكون معتدلين في ذلك ، (١٨) وينقد رالف أيضا زعماء الحركة الصليبية ويسميهم الأنبياء الكذبة ويتهمةهم وعلى رأسهم القديس برنارد بأنهم سبب الدمار الذي نتج عن الحملة الثانية والخطر الذي تعرضت له الأرواح ويعتبر الحملة الصليبية الثانية حملة لم يباركها الله كما لم يبارك حملة آحاب الذي سار حسب نصيحة الأنبياء الكذبة ويوجه نقده أيضا الى رجال الدين فيقول ان رجال الدين لا يحق لهم الذهاب مع الحملة لانهم لا فائدة منهم في الحرب بالاضافة الى العبء الذي يمثلونه على الجيش المقاتل فهم لا يفعلون شيئا ويلتهمون من الطعام ما يجب ان يكون من نصيب الجنود المقاتلين . ويواصل رالف نقده للنظام الصليبي فينصح ان تبقى النساء في بلادهم ولا ترحلن الا بعد ان تظهر نتائج الحملات ومن بلا شك عنصر ضروري لتعمير البلاد المفتوحة . كما ان الفقراء يجب ألا يذهبوا لانهم أيضا عبء ولا يستطيعون تسليح أنفسهم أو امداد أنفسهم بالمؤن الكافية . أما عن قدامى الفرسان فذهبهم أيضا ليس ضروريا فهم وان كانوا يعطون للحملة الهيبة والشرف الا انهم بدون منفعة ويجب عليهم البقاء فالشباب من الفرسان أكثر نفعا وأكبر قدرة على القتال .

رواضح من هذا النقد الصريح للحملات الصليبية ان رالف لا يوافق اساسا على سياسة الصليبيين العسكرية ولكنه يعلم ان رفضه لا تأثير له على زعماء الحركة فيكتفى بتقديم النصيحة ويطلب اجراء تغييرات جذرية في سياسة النظام الصليبي فالحرب في نظره للفرسان الشباب ولا مانع ان يذهب الى الشرق عدد قليل جدا من رجال الدين لادارة الأمور الدينية للجيش وهو يتعجب ساخرا لماذا يذهب كل هذا العدد من رجال الدين « لرعاية واحدة من النعاج في الخارج بينما يوجد في داخل البلاد تسعة وتسعين نعجة » (١) . وهكذا عبر رالف بالنيابة عن عصره عن عمق الهاوية التي سقط فيها الصليبيون . وقد تحدث رالف ضد عالمه

كله فى نفس الوقت الذى كانت تستعد وتجتمع فيه قوى الحملة الصليبية الثالثة . ويعلق الأب ادوارد سنان على تحليل رالف النقصى للحركة الصليبية فيقول « انه لأول مرة - حسب علمنا - يعطينا مسيحي لاتينى رأيا معقولا عن لماذا كانت عبارة « الله يريدنا » فى عام ١٠٩٥ مثارا للتساؤلات وربما يجب علينا اعادة صياغة هذه العبارة لتصبح « الله لا يريدنا » ، "Deus non vult". (١٩) .

د . محمد خليفة حسن

الهرم اغسطس ١٩٧٩ م

مصادر التعقيب :

- (١) انظر مثلاً : E. A. Synan, *The Popes and the Jews in the Middle Ages*, the Macmillan Co., N.Y. 1967.
- J. Parkes, *The Conflict of the Church and the Synagogue, A Study in the Origins of Antisemitism*, Atheneum, New York. 1969.
- S. Katz, "Pope Gregory the Great and the Jews", *the Jewish Quarterly Review*, Vol. 24, pp. 113 - 136.
- S. Grayzel, *The Church and the Jews in the 13th Century*, Herman Press, New York. 1966.
- H. Liebeschütz, "The Crusading Movement in its bearing on the Christian Attitudes towards Jewry", *Journal of Jewish Studies*, Vol. X, pp. 97 - 111.
- W. Porges, "Les Relation Hebraiques des Persecution des Juifs pendant la premier Croisade" *REJ*, Vol. XXV, pp. 181 - 201, Vol. XXVI, pp. 183 - 197.
- J. Katz, *Exclusiveness and Tolerance*, Oxford Univ. Press, London, 1961.
- C. Moehlman, *The Christian - Jewish Tragedy, A Study in Religious Prejudice*, Rochester, New York, 1933.
- S. Baron, *A Social and Religious History of the Jews*, Columbia Univ. Press, New York, 1952 - 1969.
- F. Baer, *History of the Jews in Christian Spain*, Philadelphia, 1960.
- J. Aronius, *Regesten zur Geschichte der Juden in fränkischen und deutschen Reiche bis zum Jahre 1272*, Hildesheim, G. Olms, 1970.
- G. Kisch, *The Jews in Medieval Germany*, Chicago Univ. Press 1949.
- H. H. Greetz, *Geschichte der Juden*, eleven vols. English translation, Five vols. Philas.

J. Parkes, *The Jew in the Medieval Community*, London, 1938.

Leon Poliakov, *The History of Antisemitism, from the time of Christ to the Court Jews*, tran. (٣) انظر مثلاً :
from the French by R. Howard, Schocken Books, N.Y., 1974.
Alan Davies, *Anti-Semitism and the Christian Mind*, 1969.

J. Parkes, *The Conflict of the Church and the Synagogue, A Study in the Origins of Antisemitism*, (٤) انظر مثلاً :
Atheneum 1969.

L. Poliakov, *The History of Antisemitism*, p. 42. (٥)

Migne's *Patrologie* (Latin) vol. 156. (٦)

Poliakov, p. 42. نقلا عن

Bouquet, *Recueil des historiens des Gaules et de la France* vol. 12, p. 411. (٧)

Poliakov p. 48.

Bouquet, Vol. 14 p. 462, Poliakov. p. 48. (٨)

Poliakov. p. 48. (٩)

Poliakov. p. 49. (١٠)

Edward Synan, "Theological Discussion of the Crusades by Twelfth Century Christians", a paper delivered at the (١١)
1974 Meetings of the American Academy of Religion,
Washington. p. 1.

P. A. Throop, *Criticism of the Crusades: a Study of Public Opinion and Crusade Propaganda*, (١٢) انظر مثلاً :
Amsterdam 1940.

Synan, p. 9. (١٣)

Synan p. 10. (١٤)

Synan p. 10. (١٥)

G. B. Flahiff, "Deus Non Vult : A Critic of the Third Crusade", *Medieval Studies* Vol. 9 1947 p. 162. (١٦)

Flahiff p. 162. (١٧)

Flahiff p. 162. (١٨)

Flahiff p. 188. (١٩)

محتويات الكتاب

صفحة

تقديم : دكتور قاسم عبده قاسم	٥
١ - ثلاث امبراطوريات وأربع دعاوى	٢٩
٢ - الحملة الصليبية	٢٩
٣ - الصليب والهلال	٦١
٤ - الشرق	٩٣
٥ - المثال والواقع	١١٧
٦ - الحياة فيما وراء البحار	١٤١
٧ - قصص الفرسان والانظمة العسكرية	١٦٧
٨ - القلاع والشؤون الحربية	١٩٩
٩ - مغامرة التجارة والعالم المتسع	٢١٩
الخاتمة	٢٢٧
مؤيد : الموقف اليهودي من الحروب الصليبية والأسس الشرعية	
للحركة الصليبية	٢٤٦

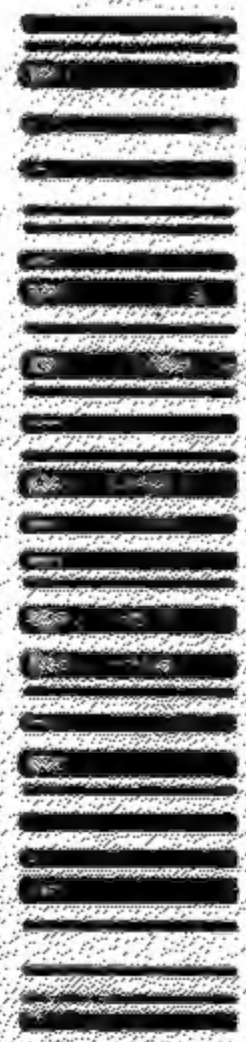
رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٥٦٩ / ١٩٨١ م

دار نشر الثقافة

٢١ عن كمال مصطفى (الطبعة السابقة) القاهرة

٩١٦٠٧٦ تليجرون

Bibliotheca Alexandrina



0339630

